تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 285 يوليو 2023

الحبارى رمز إماراتي أصيل وموروث مستدام

تجربة خلفان بن مصبح الشعرية

ديوان الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري

«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»

الصحة النفسية

في الأمثال الشعبية الإماراتية

القهوة بين العياشي والسديري

طائر الحبارى في شعر الطرديات

الشاعر الراوي علي بن بخيت العميمي

ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات

نادي تراث الإمارات يشارك في تنظيم النسخة التاسعة عشرة من مهرجان ليوا للرطب

الحبارى.. رمز إماراتي أصيل وموروث مستدام

يُعبّر طائر الحبارى عن التراث الطبيعي الغني لدولة الإمارات العربية المتحدة وعن رياضة الصيد بالصقور وشغف البدوي باقتفاء أثرها في رمال صحرائه، وعن المتعة في مشاهدة أسلوبها الرائع والمشوق في مناورة الصقر بطريقة الدفاع عن نفسها سواء أثناء التحليق أو على الأرض. كما يُعبّر الحبارى عن الموروث الثقافي العربي فيما قاله شعراء العرب عنه في صورهم ووصفهم في قصائدهم قديماً وحديثاً بتشبيهات وبألقاب مختلفة وبما يعرف في شعر الطرديات، وعن المفاهيم والأمثال الشعبية التي دخل فيها هذا الطائر وتناقلتها الأجيال وأضحت جزءاً من الثقافة التقليدية.

ولأهالي الإمارات مصطلحات خاصة في طيور الحبارى، يتفاهمون عليها في تخاطبهم فيما بينهم، وهي مستمدة من التراث والثقافة الإماراتية الأصيلة في فن الصيد بالصقور. ففي تتبع آثار أقدام الحبارى للاهتداء عليها، يستخدم الصيادون كلمة «مروّح»، وهو أثر الحبارى في آخر النهار وبداية حلول الظلام، و«تحبو» المبالغة في التخفي لدى الحبارى إذ إنها في هذه الحالة تنتقل من شجيرة إلى أخرى حبواً على ركبها، إلى غير ذلك من تلك الكلمات في أثر الحبارى. كما أطلقوا في أحجامها والوضعيات التي هي عليها تعريفات مختلفة كقولهم «مخمر» وهي كلمة ترمز إلى الحبارى وهي جاثمة على الأرض متخفية بين الشجيرات والأحجار دون حركة. وقولهم «تتكبر» أو «كبرت»، عندما يقبل على الأنثى الصقر فتنفش ريشها وتغير هيئتها في وضع دفاعي. و"الربدة" الحبارى المتوسطة الحجم وقد تكون أنثى الحبارى وهي صعبة المراس، و«الخرب»، وهو الكبير أو ذكر الحبارى وهو المقصود دائماً والمرغوب صيده، وهو عادة ما يتصدى للصقر ويخرج من السرب لملاقاته ومبارزته.

وللمخاطر الجمة التي هددت وضع طائر الحبارى على كوكب الأرض وقبل أن يختفي نهائياً من تراثنا ومن مستقبل أبنائنا استشرف المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - منذ عام 1970، الأبعاد المستقبلية لتناقص أعداده في البرية وأمر بإنشاء برامج إكثار واعدة للحفاظ عليها. ويعمل الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى من مقره في أبوظبي على حماية مجموعات الحبارى على امتداد مناطق انتشارها في آسيا وشمال أفريقيا وإكثار أعداد منها في الأسر بهدف إطلاقها في البرية. ومن منطلق تسليط الضوء على المبادئ التراثية للصيد المستدام لطائر الحبارى جاء اختيارنا ليكون ملفاً لعدد "تراث" لهذا الشهر، وكلنا أمل أن تستمتعوا بموضوعات هذا العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيسة التحرير

نادي تراث الإمارات
السلسلة التراثية الثقافية
مركز زايد للدراسات والبحوث

torathehc www.torath.ae

66
وجهة سفر

إمارة الشرق العربي: المملكة الأردنية الهاشمية

في عام 106م استولت الإمبراطورية الرومانية على المملكة النبطية وضمت البتراء إلى مقاطعة شبه الجزيرة العربية - الرومانية واستمرت البتراء في الازدهار في ظل الحكم الروماني. وأضاف الرومان هياكل جديدة بما في ذلك مسرح كبير وشوارع ذات أعمدة، ومع الوقت تدنت أهمية البتراء تدريجياً مع تحول طرق التجارة وانتقال السلطة السياسية إلى مكان آخر، وتأثرت المدينة بالزلازل وواجهت ثروات اقتصادية متدهورة. وبحلول القرن السابع الميلادي ومع ظهور الإسلام وانهيار الإمبراطورية البيزنطية أصبحت البتراء مهجورة إلى حدٍّ كبير وأصبحت في النهاية مدينة منسية .... ضياء الدين الحفناوي

71
ارتياد الآفاق

رحلة أعيان اليمن إلى إسطنبول 1907م

«وما إن يصل رحالتنا إلى إسطنبول، التي يسميها دار السعادة، حتى تبهره أضواء المدينة بهرجها الحضاري، وها هو يدخل عالماً ليس له عهد به من قبل، ويصف الفندق الذي نزل فيه الوفد وما وجدوه من حفاوة الاستقبال والترحيب إذ جعلوا لكل واحد من المدعوين نزلاً خاصاً به بجميع ما يحتاجه، وقد احتفت بهم الدولة العثمانية، وجعلت بين أيديهم جماعة من الخدم يقومون على خدمتهم وتلبية طلباتهم، وقد وصف رحالتنا كل ما شاهده باندهاش وكأنه طفل صغير بهره ما رآه».... محمد عبد العزيز السقا

14

42

64

88
سرد الذاكرة

ذكريات زمن البدايات: مدينة العين

«مازلت أذكر كيف كنا ندخل إلى مكان مملوء بالشجر ومزروع بأنواع الخضراوات، وفيه ما يشبه النهر الصغير، قالوا لنا: إنه فلج، وكانت مدينة العين ملأى بهذه الأفلاج التي كان أطفالنا يمارسون السباحة فيها. وفي ظلال الأشجار، وبالقرب من الفلج، كنا نفرش الحصير أو البطانيات، ونضع الوسائد، ونجلس بارتياح لنتجاذب أطراف الحديث، ونتناقل أخبار مجتمعنا الصغير والبريء في ذلك الزمن الجميل» ....خليل عيلبوني

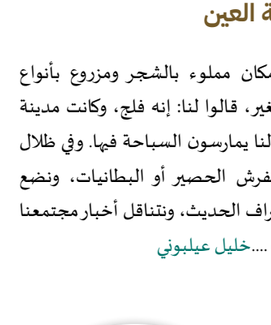

90
حوار خاص

بثينة القبيسي:
أبحاث التراث الغاية منها تحقيق تواصل الأجيال

تقول بثينة: «خطابي موجه إلى الشباب لأنهم يمثلون ثروة الأمة، وعماد الوطن وزاده وعدته وعتاده، والملاحظ أن في عالم اليوم المملوء بالتوجهات والأفكار المختلفة، هناك ارتباط الشباب بتراثهم بما فيه من قيم وعادات جميلة، وهذا من أكبر عوامل تثبيت الهوية الوطنية، وتعزيز الانتماء وترسيخ الولاء لهذا الوطن وقادته وشعبه وتاريخه. وكل هذا سيضمن استمرارية حضارة الإنسان في هذه البقعة الجغرافية».... هشام أزكيض

82

94

102

تراث الشهر

8 نادي تراث الإمارات يشارك في تنظيم النسخة التاسعة عشرة من مهرجان ليوا للرطب

63 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح (7)
ألفاظ من خصائص الحالة البشرية - محمد فاتح زغل

64 مقبض الباب - عبد الفتاح صبري

70 في كل «فرعا» نايف - سعيد بن راشد بن عتيق الهاملي - إعداد: نايلة الأحبابي

78 تجربة خلفان بن مصبح الشعرية من منظور نفسي - عادل نيل

82 ديوان الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري
«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث» - موزة عويص علي الدرعي

87 أن ترى ذاتك الآن - حمزة قناوي

94 قراءة في ديوان «همس الأماكن» للشاعر عبد الله بلحيف النعيمي - عبد الحكيم الزبيدي

98 الصحة النفسية في الأمثال الشعبية الإماراتية - عبد المنعم همت

100 ريشة «ماعت» وقوانينها في الحضارة الفرعونية - نورة صابر المزروعي

102 المعضلة الإبداعية لتقنيات الذكاء الاصطناعي - شريف مصطفى محمد

106 قراءة في كتاب «مَيّ بونعامة»
«المؤرخون الشناقطة وكتابة التاريخ».. هوية وانتماء وتعريف - خالد عمر بن ققه

110 التراث الغنائي في بوليوود
الأغنية المدخل الأساسي لولوج قلوب الجماهير في سينمات بوليوود - نوزاد جعدان

114 شاهد من إشبيلية.. رحلة روائية تكشف تناقضات النفس والعالم
منى التميمي تمزج بين الواقعية والفانتازيا لاستجلاء أسرار النفس الإنسانية - نشوة أحمد

118 عايض بن ختروش الكتبي.. شاعر الحنين والبادية - حاورته: ميثة سالم العامري

124 الشاعر علي بن بخيت العميمي ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات
- مريم النقبي

129 الشعر بين الروايات والمخطوطات - قاسم خلف الرويس

130 أَمَّي أَمَّي يا أمَّايه - فاطمة حمد المزروعي

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو نادي تراث الإمارات

104
أدب ونقد

الكاتبة مريم جمعة..التي سكنت أسئلة المواجع ثم رحلت

يبقى الفقد ماثلاً في منتهى سيرة مريم جمعة فرج القصصية كما يبقى ماثلاً في المبتدى ليحيل إلى السؤال والبحث الذي سكنته مع مختلف شخصياتها. وقبل أن يحين موعد تلبية دعوة قطار الرحيل أبقت لرحلة البناء الإماراتية والعربية شجرتين صحراويتين صامدتين لا تستسلمان للجفاف، فتركت شجرة الغاف لوطنها الصغير الإمارات، وشجرة النخيل لوطنها العربي، وتركت الكثير من أسئلة المواجع تسكن أعمالها القصصية والعديد من مقالاتها، ومن ثم غادرتنا وتركت دنيانا راحلة إلى بارئها... حمد حسين حميدان

126
نبض الذاكرة

القهوة بين العياشي والسديري

«ما إن أقبل القرن العشرين حتى أصبحت القهوة في الخليج شراباً لا محيد عنه، وارتبطت بمجموعة من العلاقات والقوانين التي دخلت في صلب النسيج المجتمعي لسكان المنطقة، فيذكر الوالد - أحمد السويدي - أطال الله عمره أن إيران شرابها الشاي الذي قوامه السكّر، وإبان الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تقوم على تأمين المؤونات بنظام البطاقة للخليج وكان السكر على رأس أولوياتها، الأمر الذي لم يكن يتوافر في الجهة الأخرى من الخليج، فكان ذلك سبباً في رواج تجارة تهريب السكر إلى إيران، فالكيس الذي كان يبلغ ثمنه مئة روبية كان يُباع بألف»..... محمد أحمد السويدي

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:
مركز زايد للدراسات والبحوث - نادي تراث الإمارات، أبوظبي

نادي تراث الإمارات

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتّاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

نادي تراث الإمارات

يشارك في تنظيم النسخة التاسعة عشرة من مهرجان ليوا للرطب

قسم الإعلام

نظم نادي تراث الإمارات محاضرة افتراضية يوم 8 يونيو بمناسبة اليوم العالمي للأرشيف الذي يوافق التاسع من يونيو كل عام، وجاءت المحاضرة تحت عنوان «جوانب من تاريخ الإمارات والجزيرة العربية في مصادر الأرشيف الوطني الهندي»، تحدث فيها الدكتور سيد فريد أحمد نائب مدير الأرشيف الوطني الهندي، والدكتور صهيب عالم الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية بالجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي، وأدارها الدكتور سيف البدواوي المؤرخ المتخصص في تاريخ الإمارات والجزيرة العربية.

وأبان الدكتور سيد فريد أن الأرشيف الوطني للهند يحتفظ بسجلات ذات أهمية قصوى متعلقة بدول الخليج، وتوفر هذه السجلات والوثائق معلومات قيمة تلقي الضوء على الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية لدول الخليج، مشيراً إلى أن هذه الوثائق تتعلق بالبحرين والكويت وعمان وقطر والمملكة العربية السعودية والعراق والإمارات العربية المتحدة وبلاد فارس، وتعود بداياتها إلى مطلع القرن 18.

وأضاف أن الأرشيف الخاص بالإمارات العربية المتحدة في الأرشيف الوطني الهندي، يتعلق بالدفاع والشؤون العسكرية، والتجارة، والسفر والسياحة، والقانون والنظام، والحدود السياسية، والسياسة البريطانية تجاه مناطق الخليج.

كما احتفظ الأرشيف الوطني الهندي بملفات عن دول الخليج تؤرخ للأنشطة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لدولة الإمارات العربية المتحدة، وتوفر معلومات عن الدور الذي لعبته الهند في الاستقلال الاقتصادي والمالي لدول الخليج بما فيها الإمارات العربية المتحدة. وأشار في ختام حديثه إلى البوابة الإلكترونية التي أطلقها الأرشيف الوطني بمناسبة الاحتفال بيوم التأسيس الـ125 في 11 مارس 2015، وتتيح للباحثين والمتخصصين البحث في السجلات الأرشيفية واستكشافها، موضحاً أنها تضم حوالي 2.7 مليون ملف وسجل. من جهته تحدث الدكتور صهيب عالم، عن الأرشيف الوطني الهندي وموجوداته المعنية بتاريخ دولة الإمارات العربية الحديث، حيث تناول في عدة محاور تاريخ إنشاء الأرشيف، ووثائقه ومستنداته المعنية بتاريخ دولة الإمارات، والمواد عن الإمارات المنشورة في الصحف الهندية. وسرد تاريخ الأرشيف الهندي منذ بداياته ومراحل تطوره ومراكزه والمشرفين الذين مروا عليه، مشيراً إلى أن الأرشيف يحوي عدداً كبيراً من المواد التي توفر معلومات هائلة عن العالم العربي بشكل عام، ودولة الإمارات بشكل خاص، حيث يعد من أهم الأرشيفات في آسيا.

وتحدث صهيب عن السجلات والمراسلات التي تتعلق بالعراق والخليج العربي والجزيرة العربية التي تندرج تحت قسم الشؤون السياسية والعلاقات الخارجية لشبه القارة الهندية، وأورد عدداً من الوثائق المهمة التي تتعلق بأبوظبي ودبي والشارقة في حقب تاريخية مختلفة.

ومن الوثائق التي استعرضها تلك التي تخص زيارة جورج غوردون لوريمر للخليج وتعود إلى عام 1906، وزيارة اللورد كرزون إلى الخليج (1903)، ووثائق عن أمن الملاحة في الخليج في القرن التاسع عشر وبعض الوثائق السياسية التي تتعلق بأبوظبي في عهد الشيخ زايد بن خليفة. كما شملت الوثائق أيضاً سجلات عن مسقط وعمان وقطر والإمارات وغيرها من الوثائق المهمة.

من جانبه أشار نادي تراث الإمارات إلى حرصه على الاحتفاء سنوياً باليوم العالمي للأرشيف عبر سلسلة من الندوات واللقاءات الفكرية التي يحرص على عقدها ويستضيف عبرها أصحاب الخبرة والاختصاص لاسيما أن النادي يعد إحدى الجهات الرائدة في مجال حفظ التاريخ على مستوى الدولة وله تجربة طويلة وثرية في المجال الوثائقي. وأشار إلى أن الندوة جاءت لتعبر عن إيمان النادي بأهمية الأرشيف الوطني الهندي باعتباره النواة الرئيسة للأرشيف البريطاني، وأهمية ما يحتويه من وثائق خاصة بدولة الإمارات ومنطقة الخليج والجزيرة العربية.

> **احتفظ** الأرشيف الوطني الهندي بملفات عن دول الخليج تؤرخ للأنشطة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لدولة الإمارات العربية المتحدة، وتوفر معلومات عن الدور الذي لعبته الهند في الاستقلال الاقتصادي والمالي لدول الخليج بما فيها الإمارات العربية المتحدة

نادي تراث الإمارات يشارك في النسخة التاسعة عشرة من مهرجان ليوا للرطب

شارك نادي تراث الإمارات في المؤتمر الصحفي الذي انعقد يوم 20 يونيو للإعلان عن تنظيم النسخة التاسعة عشرة من «مهرجان ليوا للرطب» الذي يقام تحت رعاية سمو الشيخ منصور بن زايد آل نهيان نائب رئيس الدولة، نائب رئيس مجلس الوزراء وزير ديوان الرئاسة، في الفترة «17 - 30 يوليو 2023»، بتنظيم لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية بأبوظبي ونادي تراث الإمارات. وأبان النادي في كلمته خلال المؤتمر أن مشاركته في تنظيم هذا الحدث التراثي الكبير تأتي تعبيراً عن دعمه الثابت واللامحدود للفعاليات والمناسبات التي تسهم في نشر التراث الإماراتي والتعريف به، منوهاً بالحضور المشهود والبصمة المتميزة للنادي في مشاركاته بالمهرجان بما يقدمه من فعاليات وأنشطة. وأشار إلى اهتمامه خلال هذه الدورة بإبراز البعد الحضاري للحرف اليدوية الإماراتية عبر ورش حية تستمر طيلة أيام المهرجان، وتشمل سف الخوص والتلي والسدو والغزل، وورشة لتعليم فن الربابة للصغار، ومعرضاً لإصدارات النادي بالتركيز على ما يختص بالنخيل والتمر مثل «أطلس أصناف نخيل التمر في دولة الإمارات»، و«نخيل التمر كعلم وثقافة وتراث»، هذا بخلاف الإصدارات التي تغطي جوانب عدة من تراث وتاريخ الدولة ودواوين الشعر النبطي، إضافة لبرنامج ثقافي من عدة محاضرات يتحدث فيها مختصون عن إرث النخيل وجوانبه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

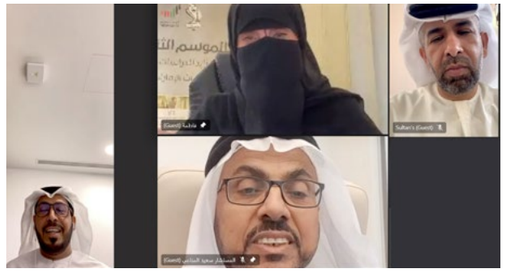

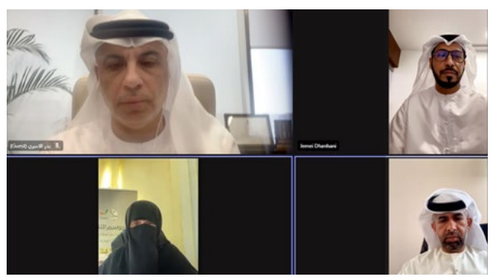

محاضرة عن المطر في الموروث الشعبي الإماراتي

نظم نادي تراث الإمارات يوم 21 يونيو محاضرة افتراضية ضمن برنامج «سلسلة قراءة في إصدارات إماراتية»، تحت عنوان «المطر في الموروث الشعبي الإماراتي»، قدمها جميع سالم الظنحاني الباحث في التراث الشعبي الإماراتي، وتناول فيها موضوعات كتابه الصادر عام 2020 بالاسم نفسه. وأشار إلى أن الإماراتيين كانوا يعتبرون المطر مصدراً لاستدامة وديمومة الحياة، كما كانت سبباً في الرحمة والغيث والتفاؤل، ولم يكونوا ينظرون إليه بوصفه طقساً سيئاً يقيد حياتهم اليومية.

وذكر الظنحاني أن العائلات كانت تعتمد قديماً على «الرواد»، الذين كانوا يمشون مسافات طويلة قد تصل إلى مائة كيلومتر بحثاً عن المياه، وعندما يجدون نباتات وأعشاباً تكون دلالة على وجود المطر، فيعودون إلى ديارهم ليدلوا العائلات إلى تلك المنطقة التي يرحلون إليها ويقطنون بها في موسم المطر.

كما تناول الظنحاني خصوصية تعامل أهل المناطق الزراعية السهلية مع الطقس، وقال إنهم يستغلون المطر في سقاية المزارع، وأشار إلى أنه على الرغم من اعتماد المزارعين على طرق بدائية في سقي مزروعاتهم، لكنها كانت ذات فكر هندسي وطرق هندسية منظمة ومرتبة، لصنع أودية وطرق تصل إلى المزارع واحدة تلو الأخرى إلى أن تصب بالبحر.

فيما كانت المناطق الجبلية توفرلهم العديد من السدود والأودية والطرق لزراعة نباتاتهم، وكانوا يستغلون الأمطار ويحافظون عليها ويجمعوها للأيام القادمة.

وأشار الظنحاني إلى أن هناك عدة أنواع للأمطار ذكرها في كتابه، منها الأمطار الموسمية التي تبدأ منذ النصف من شهر أكتوبر وتنتهي في بداية شهر ديسمبر، وتكون نافعة للنباتات، وأمطار العقربي التي تعم غالباً البحر والبر وهي مفيدة لزيادة منسوب المياه الجوفية، وتأتي في شهري ديسمبر ويناير، وأمطار المصايف التي تكون محدودة وخفيفة وسريعة، وأمطار يولات الثريا وتكون على مساحات واسعة وكميات غزيرة ونادرة واستثنائية، وأمطار الروايح والتي تأتي مع الرطوبة والحرارة وتصيب المناطق الداخلية والجبلية.

وأبان الظنحاني أن هناك العديد من الشعراء تغنوا وكتبوا عن المطر، كما قيل العديد من الأهازيج والأغاني في المطر، حيث

كان الأطفال يلعبون فيه والكبار يتفقدون المزارع ويرفعون الأكف بالدعاء، في تعايش وانسجام مع فترة هطول المطر.

واختتم الظنحاني بذكر العديد من مسميات المطر المتداولة وسط الإماراتيين مثل: المطر، والطش، والرش، والوبل، والمنطرة. كما ذكر عدداً من أنواع السحب مثل المخيلة وهي الغيوم الركامية المنخفضة، والرهام وهي المنخفضة جداً حتى تلامس رؤوس الجبال، والمزن وهي الغيوم الركامية، والردم وهي الركامية الثقيلة، والهمايل المطر المنهمر.

المشاركة في الترويج لمعرض الصيد والفروسية

شارك نادي تراث الإمارات في الفعالية الترويجية التي نظمها نادي صقاري الإمارات في «مارينا مول» بأبوظبي أيام الجمعة والسبت والأحد «16 - 18 يونيو»، وذلك للتعريف والإعلان عن معرض أبوظبي الدولي للصيد والفروسية «2 - 8 سبتمبر 2023»، حيث شملت مشاركة النادي ورشاً لحرف التلي، والسدو، وسف الخوص، التي جذبت اهتمام الكثير من رواد المركز التجاري، ومرسماً للأطفال عرّف بالعناصر التراثية الإماراتية عبر كتيبات «لون تراثك» التي يصدرها النادي، إضافة إلى منصة لإصدارات النادي التراثية والثقافية التي شكلت بعداً معرفياً للفعالية.

وستتواصل الفعاليات الترويجية في عدد من المراكز التجارية بإمارة أبوظبي حيث يستضيفها مول «بوابة الشرق» في الفترة «14 - 16 يوليو» المقبل، في ثم في الفترة «21-23 يوليو» بالخالدية مول في أبوظبي، وفي الفترة « 4 - 6 أغسطس» بمكاني مول في مدينة العين.

الهجن والعادات والتقاليد على يوتيوب

أطلق نادي تراث الإمارات عبر منصته على (يوتيوب) برنامج العادات والتقاليد وبرنامج الهجن التراثي، حيث جاء الأول في ثلاث حلقات هدفت إلى تعريف الطلاب على الأدوات المستخدمة في إعداد القهوة، وطريقة اختيار القهوة وحمسها، بالإضافة للتعرف على أنواع الدلال ومسميات أجزائها.

فيما جاء برنامج الهجن التراثي بموسمه الثاني في أربع حلقات شملت أنواع الهجن وسلالاتها والفائدة منها، ثم مسميات الهجن حسب المراحل السنية، ومستلزمات الهجن، وركوب الهجن ■

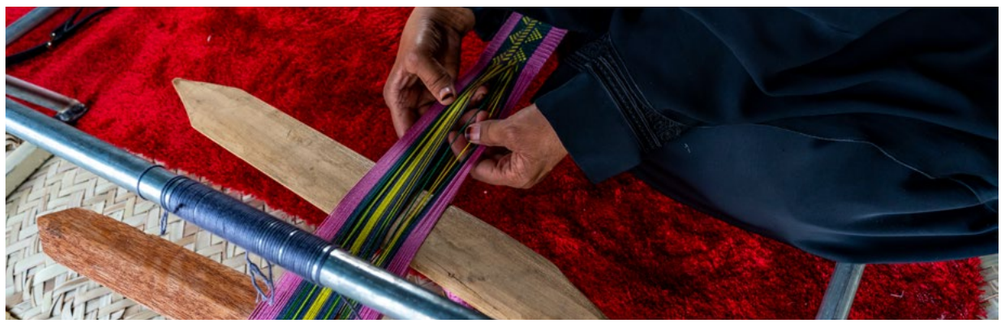

رباعيات في ذكر الله

شعر: د. شهاب غانم

1. ليس كمثله شيء

كـــنتَ يـا ربُّ قبـــلَ كـــلِّ وجـــودٍ
وستبقـى بعـد انتهـــاء الوجـــودِ
ليـس شـيءٌ كمثلِـــهِ، فهـــو ربـــي
وإلهـــي، ووحـــدُه معبـــودي
خلـــق السبعَ والأراضـــين تجـــر
أهـــو تسبيـــحُ ربّهـا فـي سجـــودِ؟
وسنُحيـا مـن بعـد مـــوتٍ لنلقـــى
مـــا وعدنـــا في مستقـــرَّي خلـــودِ

2. علمتني الحياة

علّمـــتني الحيـــاة أن أحمـــــدَ
اللـــــهَ على كـــلِّ لحظـــةٍ في حياتـــي
كـــلُّ هذا العطـــاءُ مـــن غـــير جهـــدٍ
رحمـــاتٌ منـــــه ومحـــضُ هبـــاتِ
يعلـــم الحـــقُّ أنـــني أحمـــدُ اللهَ
بحـــبٍّ فـــي الشعـــرِ والصلـــواتِ
كـــلُّ شيءٍ يأتـــي مـــن اللـــه خـــيرٌ
ولئـــن قـــد بـــدا بشـــتى الصفـــاتِ

3. العذاب الأدنى

لو شكرنـــا لزدتَنـــا يـــا إلهـــي
مثلما قلـــتَ في الكتـــابِ الحكيـــمِ
إنَّما أكثـــــرُ الأنـــامِ كَفـــورٌ
جاحـــدٌ أنعُـــمَ الإلـــهِ الكريـــمِ
فالعـذابُ الأدنـــى لتذكـــيرِ قـــومٍ
بَطِـــروا مـــا وهيئَـم مـــن نعيـــمِ
فلعـــلَّ الأمـــراض بعـــضُ ابتـــلاءٍ
كـــي يعـــودوا إلى الصـــراطِ القويـــمِ

4. واحد أحد

يـا مليـــكَ الملـــــوكِ وحـــدُكَ ربٌّ
وإلـــــهٌ والخالـــقُ الرحمـــــنُ
من تسَمّـــى الرحمـــن بعـدكَ أمـــسى
بوســـامِ «الكـــذابِ» دومـــاً يهـــانُ
أو تسمّى «ملكَ الملـــوكِ» رأينـــاهُ
طريـــداً تمجُّـــهُ البلـــدانُ
واحـــدٌ أنت واحـــدٌ دون كـــفءٍ
في يديـــهِ جهنـــمٌ والجنـــانُ

5. ربنا ما خلقت هذا باطلاً

اذْكُرِ اللـــهَ قائمـــاً.. وعلى جنبيـــكَ
أوقاعـــــداً .. وبـــين العبـــادِ
وتفكَّـــرْ في خلـــقِ ربِّـــكَ للدنيـا
وسبـــــعٍ رُفِعْـــنَ دونَ عِمـــادِ
ربَّنـــا ما خلقـــتَ هـــذا هبـــاءً
باطـــلاً فاهدِنـــا سبيـــلَ الرشـــادِ
قـــد سمِعنـا منادیـــــاً يا إلهـــي
فأعنَّـــا لكي نجـــيبَ المنـــادي

6. الجهاد الأكبر

مَـــن يجاهـــدْ في الله يُهدَ السبيـــلا
ويفـزْ بالرضـــا ويلـــقَ القبـــولا
ليـــس فـــوزٌ يأتـــي بغـــير جهـــادٍ
واصطبـــارٍ لا يعـــرف المستحيـــلا
هل علمتـــم بعالِـــمٍ فـــي مجـــالٍ
أيّمـــا نوعُـــه وكـــان كســـولا
وجهـــادُ النفوسِ أكـــبرُ نـــوعٍ
مـــن جهـــادٍ لنبلـــغَ المأمـــولا

ملف

الحبارى رمز إماراتي أصيل وموروث مستدام

14 جهود دولة الإمارات في الحفاظ على طيور الحبارى..
تاريخ مشرِّف ونتائج مذهلة - خالد بن محمد مبارك القاسمي
18 طائر الحبارى.. مهيب الصحراء - جيهان إلياس
20 طائر الحبارى.. وِفادة أصيلة ورعاية وفيّة في الإمارات - خالد صالح ملكاوي
24 مسابقات أدبية مميزة
أطلقها الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى - أحمد عبد القادر الرفاعي
28 الحبارى الطائر المهيب يعزز شعر الحكمة - الأمير كمال فرج
34 ها أهميتها على صفحات إصدارات الأرشيف والمكتبة الوطنية
الحبارى.. من مفردات الموروث الثقافي والبيئة الإماراتية - جمال مشاعل
38 طائر الحبارى في شعر الطرديات - شمسة حمد الظاهري
42 الحبارى.. بين رياضة الملوك وخطر الانقراض - مريم سلطان المزروعي
44 الحبارى في مختارات شعرية نبطية - فاطمة مسعود المنصوري
46 الحبارى أحد مفاتيح السيرة البريّة - محمد نجيب قدورة
49 طريق السلامة
رحلة طيور الحبارى الشتوية إلى الإمارات العربية المتحدة - صديق جوهر
52 الإمارات رحلة مستدامة في الحفاظ على الحبارى - فاطمة سلطان المزروعي
56 طير الحبارى ومحمياته من أيام الشيخ زايد - فاطمة عطفة
58 الحبارى.. من طائر مهدد بالانقراض إلى رمز إماراتي تراثي مستدام - منى حسن

جهود دولة الإمارات في الحفاظ على طيور الحبارى..

تاريخ مشرِّف ونتائج مذهلة

خالد بن محمد مبارك القاسمي

يرتبط طائر الحبارى ارتباطاً وثيقاً بأحد أهم مقومات التراث غير المادي لدولة الإمارات العربية المتحدة، وهي رياضة الصيد بالصقور، ومع دخول هذا الطائر في دوامة خطر الانقراض، لم تدخر الدولة جهداً في سبيل المحافظة عليه واستدامة أعداده على المدى الطويل؛ مع ضمان استمرارية تراث الصقارة.

طائر الحبارى ورياضة الصيد بالصقور

تنتمي طيور الحبارى من حيث التصنيف العلمي إلى عائلة الحبارى Otididae وهي طيور كبيرة الجسم (نسبياً) وذات أرجل طويلة ورقبة رفيعة. من أعضاء عائلة الحبارى طائر الحبارى الكبير، والحبارى العربي، والحبارى الهندي الكبير، والفلوريكان الأصغر، والفلوريكان البنغالي، وحبارى كوري، والحبارى الأسود، والحبارى الأسترالي، والحبارى الآسيوية وحبارى شمال أفريقيا[1].

وتعد طيور الحبارى من أهم الطرائد التي يصطادها الصقر، فمع بداية موسم هجرة الحبارى للمنطقة العربية يكون تدريب الصقر قد اكتمل وبلغ أوجه، وهكذا فإن الصياد يقوم باصطياد الحبارى بواسطة صقره طوال أشهر الشتاء وتبدأ عملية صيد الحبارى بالصقر عندما يبدأ الصياد في تقصي آثار الحبارى على الرمال، وهو يدرك سلفاً أن هذا الطائر النشط ليلاً يقضي نهاره مرتاحاً تحت الأعشاب، وعند العثور على واحدة من طيور الحبارى يتم إطلاق الصقر عليها على أمل الانقضاض عليها وصيدها. وبعد جولة قنص ناجحة يطعم الصياد صقره من رأس الفريسة وعنقها ويحتفظ بالجزء المتبقي له ولأسرته[2].

وقد أورد ثيسيجر في كتابه «الرمال العربية» ما أخبره به الشيخ زايد - رحمه الله - أن الصقر يستطيع أن يصيد ما بين ثمانية أو تسعة طيور في اليوم من طير الحبارى[3].

وعلى الرغم من تعالي الصيحات المطالبة بحماية الطبيعة والثروة الحيوانية، فإن بعض السلوكيات الخاطئة كانت من أبرز تلك الممارسات والتأثيرات السلبية التي تسببت في انقراض بعض أنواع الطيور تماماً، وتناقص أعداد أنواع أخرى منها وصلت إلى ما نسبته 12.5% من خطر الانقراض في القريب العاجل، وفي مقدمتها طائر الحبارى البديع أكثر الطيور قرباً إلى قلوب الصقّارين في منطقة الخليج العربي.

ومن أهم العوامل التي تهدد الحبارى بالانقراض الصيد الجائر في مناطق إشتائها، وعمليات الأسر الواسعة لاستخدامها في تدريب الصقور، بالإضافة إلى التجارة غير المشروعة بها، وتزايد الصيد في مناطق تكاثرها في أواسط آسيا خلال الأعوام الأخيرة.

ومع استمرار هذا الوضع القائم فقد كان من المتوقع انقراض الحبارى في عام 2027م[4]، لكن جهوداً إماراتية حثيثة وفعالة بُذلت في سبيل الحفاظ على هذا الطائر.

جهود الوالد المؤسس في الحفاظ على طيور الحبارى

لم يغفل الشيخ زايد - طيب الله ثراه - عن البيئة أو يهملها، بل كان جل اهتمامه ينصب عليها، كيف لا وهو ابن الصحراء ويعرف جيداً قساوة الحياة الصحراوية من جهة وروعة الطبيعة فيها من جهة أخرى؛ لذا جاءت جهود الشيخ زايد - رحمه الله تعالى - في مجال البيئة مرتكزة على ركيزتين أساسيتين هما:

1 - العمل على زيادة الرقعة الخضراء ومكافحة التصحر.

2 - الحفاظ على البيئة المحلية والحيوانات الموجودة فيها وإنشاء المحميات.

فقد أنشأ - رحمه الله - محميات طبيعية عدة، مثل: محمية صير بني ياس، وسنّ قوانين تمنع من الصيد الجائر للثروة السمكية أو الحيوانات والطيور النادرة والمهددة بالانقراض ما كان له الأثر البالغ في الحفاظ على هذه الحيوانات.

ففي أحد خطاباته أعرب الراحل الوالد المؤسس عن رؤيته بالقول:

«نحن شغوفون ببيئتنا لأنها جزء لا يتجزأ من وطننا، وتاريخنا، وإرثنا. لقد عاش أجدادنا في البر والبحر، واستطاعوا الصمود في هذه البيئة على الرغم من جميع تحدياتها. وبالطبع، ما كانوا ليفعلوا ذلك لو لم يدركوا ضرورة المحافظة على البيئة بأن يأخذوا منها حاجتهم فقط من مقومات البقاء، ويحمونها من أجل الأجيال القادمة».

«وبإذن الله تعالى، سنتابع العمل على حماية البيئة والحياة الفطرية في بلادنا، كما فعل أجدادنا من قبل. وإذا ما أخفقنا - لا قدر الله- في القيام بهذا الواجب، سيلومنا أبناؤنا على تبديد جزء أساسي من إرثهم، ومن تراثنا»[5]. وبمبادرة خاصة من القائد المؤسس الشيخ زايد احتضنت أبوظبي «المؤتمر العالمي الأول للصقارة والمحافظة على الطبيعة» في مدينة أبوظبي في أواخر عام 1976 في إطار اهتمامه المعروف والمشهود له عالمياً بتراثنا العربي الأصيل الذي يمثل قيمنا وعاداتنا وهويتنا الوطنية. وجمع المؤتمر للمرة الأولى بين صقّاري الجزيرة العربية وصقّاري أمريكا الشمالية وأوروبا والشرق الأقصى، وكان المؤتمر منطلقاً حقيقياً للاستراتيجية التي وضعها الشيخ زايد - رحمه الله - بهدف حشد الصقّارين ليكونوا في طليعة الناشطين أصحاب المصلحة الحقيقية للمحافظة على الطبيعة[6].

وفي مجال حماية الصقور وطرائدها كان الشيخ زايد أول من أدرك المخاطر التي تواجه أنواع الطيور والحيوانات فقام بإنشاء مشاريع عدة لحماية الأنواع المهددة بالانقراض وبتوجيهاته بدأ برنامج إكثار الحبارى الآسيوية في الأسر في حديقة حيوان العين عام 1977، وأُعلن في عام 1982 تفقيس أول فرخ في الأسر في دولة الإمارات.

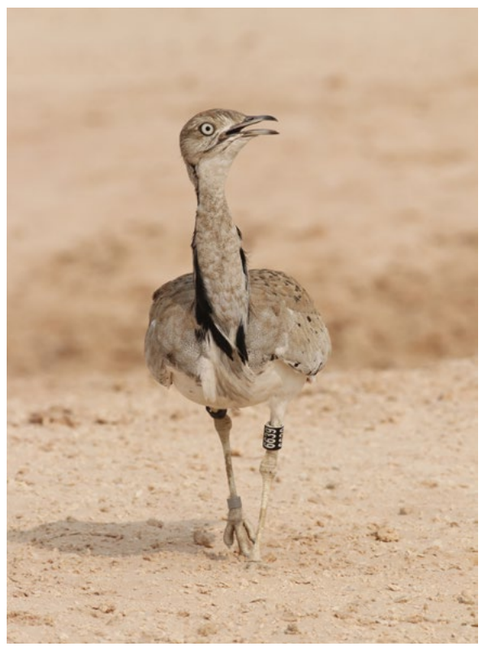

وفي عهد الشيخ زايد بادر المركز الوطني لبحوث الطيور عام 1989 - الذي أصبح فيما بعد جزءاً من هيئة البيئة - برنامجه الطموح لإكثار الحبارى الآسيوية والذي تطور من بداية متواضعة حتى وصل إلى إنتاج 200 طائر في عام 2004، وهو يسير باتجاه الهدف بعيد المدى الذي حدده المؤسس الراحل بإنتاج عشرة آلاف طائر حبارى آسيوي سنوياً وإطلاق معظمها لزيادة أعداد المجموعات البرية.

وأنشأ في المملكة المغربية الشقيقة عام 1995 مركز الإمارات لتنمية الحياة الفطرية لإكثار الحبارى وإطلاقها في البرية.. وقد أثمر النجاح المتزايد من عام إلى آخر عن تفريخ «2150» طائر في عام 2004. ودعم الشيخ زايد بقوة إنشاء الهيئة العالمية للحبارى في باكستان وأثمر ذلك عن زيادة التعاون والتنسيق مع الحكومة الباكستانية من أجل مكافحة الصيد غير المشروع لطيور الحبارى وإعادة تأهيل الطيور المصادرة لإطلاقها في البرية[7].

جهود الشيخ محمد بن زايد في حماية طائر الحبارى

اقتداءً بتوجيهات المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد، يبذل رئيس الدولة صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، من خلال رئاسة مجلس إدارة «الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى»، جهوداً بارزة في الحفاظ على طائر الحبارى، ونجحت رؤية سموه الشاملة ونهجه الاستراتيجي في ترسيخ عرى «الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى»، الذي تأسس عام 2006 بقرار من سموه لقيادة برامج الحفاظ على طائر الحبارى، وحمايته في بيئته الطبيعية، واستدامة أعداده على المدى الطويل؛ مع ضمان استمرارية تراث الصقارة الذي يعد أحد التقاليد التراثية العربية والإنسانية الأصيلة[8]. ويدير الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى حالياً أربعة مراكز للمحافظة على أنواع الحياة البرية للحبارى - المركز الوطني لبحوث الطيور (NARC)، في سويحان، ومركز الشيخ خليفة لإكثار الحبارى، في سيح السلم (كلاهما في أبوظبي)؛ مركز الإمارات لتنمية الحياة الفطرية (ECWP) في ميسور وإنجيل في المملكة المغربية، ومركز الشيخ خليفة لإكثار الحبارى في كازاخستان.

ويعمل الصندوق مع العديد من الدول الواقعة ضمن نطاق انتشار الحبارى وهجرتها بجهود متصلة للمحافظة على أنواع الحياة البرية وإجراء البحوث الميدانية.

ويتولى الصندوق إدارة جميع جهود أبوظبي للحفاظ على الحبارى، وذلك بالإشراف على النطاق الكامل للبرنامج من خلال الجمع بين عناصره كافة وتوفير تركيز أكبر لتأمين مستقبل مستدام للحبارى في البرية لتتمتع الأجيال القادمة بوجودها بأعداد مزدهرة في بيئتها الطبيعية[9].

وفي عام 2008، شارك صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان بإطلاق أكثر من 5000 طائر حبارى شمال أفريقية Chlamydotis undulata undulate من إنتاج مركز الإمارات لتنمية الحياة الفطرية وذلك ضمن نطاق انتشارها الطبيعي في المغرب في منطقة تبعد نحو 300 كلم داخل صحراء المغرب الشرقية، وتعتبر عملية الإطلاق هذه أكبر عملية إطلاق في التاريخ لنوع من الأنواع المهددة بالانقراض[10].

وأعلن الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى عن وصول عدد الحبارى التي تم إطلاقها إلى 549,816 طائر حبارى في17 دولة منذ عام 1998. ووفقاً للدراسات التي أجراها الصندوق، فقد أثبت أن الحبارى المهاجرة التي تم إنتاجها في الأسر تتبع نفس مسار هجرة الحبارى البرية. وأكدت البيانات، التي تم الحصول عليها بناء على أحدث تتبع تقني عبر الأقمار الاصطناعية، أن الحبارى التي تم إكثارها في الأسر وإطلاقها في كازاخستان خلال شهري يوليو وسبتمبر وصلت إلى شبه الجزيرة العربية خلال شهر نوفمبر. وتدعم نتائج هذه الأبحاث جهود الصندوق في نظرته الاستراتيجية لأهمية الأصول الوراثية وموقع الإطلاق المناسب لكل طائر عند توطينه في البرية.

وعلى الصعيد العالمي، فقد تم إنتاج ما مجموعه 706,284 طائر حبارى في الأسر منذ عام 1996، وفي الإمارات باعتبارها أكبر مساهم في الإنتاج، فقد تم إنتاج 404,753 طائر حبارى. ويعتبر الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى الرائد عالمياً في الحفاظ على طيور الحبارى. ولديه شبكة عالمية من مراكز الحفاظ على الحبارى التي تهدف إلى استعادة مجموعات طيور الحبارى إلى مستويات مستدامة في مختلف أنحاء العالم. وقد شهدت الإمارات أكبر إطلاق لطيور الحبارى الآسيوية في البرية، حيث بلغ مجموعها 98,182 طائراً خلال الفترة ما بين الأعوام من 2004 حتى 2022. وبالنسبة إلى الحبارى في شمال أفريقيا، فقد شهد المغرب أكبر إطلاق للبرية، حيث وصل إلى 189,109 طائراً من حبارى شمال أفريقيا خلال الفترة ما بين الأعوام من 1998 حتى 2021، والجدير بالذكر أنه حتى سبتمبر 2022 تم إطلاق 55% من طيور الحبارى الآسيوية من أصل 549,816 طائر في 12 دولة، بينما تم إطلاق 49% من حبارى شمال أفريقيا في خمس دول. وقد تم اختيار هذه البلدان لأنها توفر أفضل فرصة للبقاء للطيور. إلى جانب أنواع الموائل الطبيعية، فإن جودة الغطاء النباتي وتوافر الغذاء وقلة مخاطر الافتراس هي الاعتبارات الأساسية في اختيار المواقع للإطلاق[11].

وهكذا، وبفضل جهود الشيخ زايد - رحمه الله - وجهود صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان نجحت دولة الإمارات العربية المتحدة في الحفاظ على طائر الحبارى وحمايته من خطر الانقراض، ومن ثم الحفاظ على أحد مقومات التراث غير المادي في الدولة، وهو رياضة الصيد بالصقور ■

* باحث في شؤون الخليج

الهوامش:

1. موقع الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، على الرابط التالي:
https://houbarafund.gov.ae/ar
2. صفية أحمد الزايد، رياضة الصيد بالصقور عند العرب الصقارة تراث عربي أصيل. مجلة الثقافة الشعبية، الصادرة عن أرشيف الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث والنشر، البحرين، العدد السابع عشر، ربيع 2021، ص 109 - 110.
3. ولفريد ثيسيجر، فوق الرمال العربية، ترجمة، محمد محمد عبدالقادر، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت، ص 167.
4. عبد الناصر فيصل نهار: الإمارات الأولى عالمياً في تعقب طائر الحبارى بواسطة الأقمار الاصطناعية، موقع إيلاف، بتاريخ 28 مايو 2003، على الرابط التالي:
https://elaph.com/Web/Archive/1054139199790760400.htm
5. عبد الحكيم محمد علي عبد الرحمن، تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة في مجال الحفاظ على البيئة، على الرابط التالي:
https://www.shatharat.net/vb/showthread.php?t=48698
6. شيخة الغاوي، الشيخ زايد، فارس وصقار اعتلى صهوة المجد، موقع وكالة أنباء الإمارات (وام)، بتاريخ 28 إبريل 2018، على الرابط التالي:
http://wam.ae/ar/details/1395302685253
7. المصدر السابق نفسه.
8. «على درب زايد أحد أبرز حماة الطبيعة في العالم»، محمد بن زايد، رحلة الأصالة والصقارة والفروسية مستمرة، موقع الإمارات اليوم، بتاريخ 30 يوليو 2019، على الرابط التالي:
https://www.emaratalyoum.com/life/four-sides/2019-07-30-1.1237674
9. الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، التقرير السنوي 2020 - 2021، ص 1.
10. محمد بن زايد يشارك في إطلاق 5000 حبارى في الصحراء المغربية، موقع صحيفة الاتحاد، بتاريخ 2 إبريل 2008، على الرابط التالي:
https://cutt.us/3SPhs
11. الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى يحتفل بمرور 40 عاماً من الإنجازات في حماية الحبارى، موقع الوطن، بتاريخ 27 سبتمبر 2022، على الرابط التالي:
https://alwatan.ae/?p=1023941

طائر الحبارى.. مهيب الصحراء

جيهان إلياس

تعتبر الطيور من أهم الكائنات في الكرة الأرضية ولها العديد من المميزات فهي تُضفي شكلاً جمالياً على الطبيعة بأشكالها وألوانها الجميلة والمختلفة، كما أن لها فوائد اقتصادية ودوراً فعالاً في المحافظة على التوازن البيئي، فضلاً عن احتوائها على عدد من المغذيات والفيتامينات المهمة لبناء جسم الإنسان، كما أنها تعتبر مصدراً للدخل بالنسبة إلى العديد من المنظمات البيئية والمراكز الطبيعية ومن يمتهن صيدها من خلال القيام برحلات تعليمية وترفيهية لمشاهدة الطيور والتعرف على طبيعتها وميزاتها وخصائصها، أو صيدها للاتجار بها، لذلك أوصى المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة بالمحافظة على حماية البيئة، وكان حريصاً على طائر الحبارى الآسيوية ذلك الطائر الجميل والمهيب والمحب للصحراء، حيث بدأ برنامج إكثار الحبارى في الأسر في حديقة الحيوان في مدينة العين في دولة الإمارات في عام (1977)، وفي عام (1982) تم الإعلان عن تفقيس أول فرخ في الأسر لطير الحبارى في الإمارات، وتعتبر هذه بدايةً لنجاح تكاثر طير الحبارى في الأسر الذي حقق تزايداً كبيراً في الإنتاج عاماً بعد عام حتى تحقق ما كان يخطط له مؤسس الدولة، رحمه الله.

حبارى الإمارات ... تراث متجدد

يعتبر طائر الحبارى رمزاً أصيلاً من رموز دولة الإمارات، كما أنه يعد ركناً أساسياً في رياضة الصيد بالصقور لذلك بذلت الإمارات جهوداً حثيثة ومستمرة لسنوات عديدة حفاظاً على تراثها من طير الحبارى، هذا الطائر المتفرد والغامض، حيث تم فك شيفرة هذا الغموض بوضع جهاز تتبع للطائر لمعرفة طبيعته وأماكن هجرته وموسم تكاثره. وحقق الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى منذ تأسيسه في عام 2006 إنجازات عديدة من أجل استدامة الحبارى استناداً إلى رؤية المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان. فالحبارى من أشهر الطيور عند العرب، وتعتبر من العناصر الأكثر تأثيراً، والتي لعبت دوراً مهماً وبارزاً في استمرار رياضة الصيد بالصقور وتطويرها في المنطقة العربية منذ الأزل حتى الآن، حرصاً من القيادة الرشيدة وعلى رأسها صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، حاكم إمارة أبوظبي - حفظه الله - وإيماناً من سموه بأهمية رياضة الصيد والفروسية والحفاظ على التقاليد الأصيلة لدولة الإمارات، وانطلاقاً من متابعة الاهتمام الذي أولاه المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بضرورة الحفاظ على البيئة المحلية وتنميتها من أجل استدامة التراث الإماراتي.

طائر الحبارى ... رمز الجزيرة العربية

يعد طائر الحبارى رمزاً للجزيرة العربية، فهو يمثل تحدياً كبيراً للصقّارين ويشكل اصطياده مصدراً للفخر والإحساس بالنصر والقوة والظفر لأن طائر الحبارى سريع الهروب والتخفي ولا يمكن اصطياده بسهولة، ويتميز لون ريشه بالتماهي بالألوان وبتقاربه لألوان الطبيعة التي يعيش فيها مما يصعب على القناصين تمييزه حتى لو كان على مسافة قريبة منهم، ويحظى طائر الحبارى بحب كبير من سكان المناطق التي يوجد فيها لما يتميز به من خصائص فريدة فهو يُجيد رقصة التزاوج بشكل فني بديع وممتع للنظر، وكثُرت الأساطير حول هذا الطائر، حيث قيل إنه يقتات الأحجار الكريمة تمجيداً له فلا يمكن للعاقل أن يصدق مثل هذه الأساطير، كما أن هناك اعتقاداً سائداً بأن لحوم طائر الحبارى تعزز القدرة الجنسية لاحتوائه على أهم العناصر الغذائية مثل البروتينات والفيتامينات والمعادن التي يحتاجها جسم الإنسان.

البهلوان ... خصائص ومميزات

يعد طائر الحبارى العربي من أشهر أنواع الحبارى كما أنه من العلامة المميزة لصحاري الجزيرة العربية، وهو يعيش في المناطق

يعتبر طائر الحبارى رمزاً أصيلاً من رموز دولة الإمارات، كما أنه يعد ركناً أساسياً في رياضة الصيد بالصقور لذلك بذلت الإمارات جهوداً حثيثة ومستمرة لسنوات عديدة حفاظاً على تراثها من طير الحبارى

ذات الحشائش والأعشاب، يتغذى بشكل رئيسي على البذور وأوراق الشجر والأعشاب أما في فصلي الخريف والصيف فهو يتغذى على الزواحف الصغيرة والخنافس والحشرات والديدان، ويمتاز طائر الحبارى بشكله الجميل وحجمه المتوسط، ويختلف لونه باختلاف المنطقة التي يعيش فيها، وهو يتلون بلون تربتها وتضاريسها البيئية، وله أسماء عدة مثل: (البهلوان، والحبرج، وأبو جناح منقط، ودجاجة البر، وغيرها)، وهناك نوع يسمى الحبارى العملاق فهو من أثقل الطيور التي يمكنها الطيران في أوروبا. ولكن حجمه الكبير يشكّل عائقاً في التحليق بسرعة أو التحليق عالياً في بعض الأحيان، لذلك يفضل الجري عند الهروب من الصيادين، ويُقال إن طائر الحبارى خجول جداً ولا يستخدم صوته إلا نادراً .

الطائر الغريب

من أغرب عادات طائر الحبارى أنه لا يجتمع مع الأنثى في الطبيعة إلا في فترة التزاوج، حيث يعيش ذكر الحبارى في مساحة خاصة له ويمنع غيره من الذكور من دخولها، ويتخذ لنفسه مكاناً مرتفعاً يُمكّن إناث الحبارى من رؤيته ليمارس رقصته (رقصة الغزل) واستعراضه الجنسي كوسيلة لجذب إحداهن للتزاوج، أما الإناث فهي ترى عدداً من الذكور في حالة استعراض وتختار منهم ما يناسبها للتزاوج وتذهب إليه مباشرة وتمكّنه من نفسها ويلاحقها ثم تتركه وتتجه إلى حيث تُعِدُّ عشها، وبعد أن تضع بيضها تحتضنه وتحرسه إلى أن يفقس وتظل ترعاه إلى أن يكبر، وفي بعض الأحيان يشارك ذكر الحبارى الأنثى في احتضان البيض، ولوحظ أنهما يألفان بعضهما ويشكلان عائلة إذا كانا في مكان محصور مثل الأسر ■

إعلامية من السودان

يعد طائر الحبارى رمزاً للجزيرة العربية، فهو يمثل تحدياً كبيراً للصقّارين ويشكل اصطياده مصدراً للفخر والإحساس بالنصر والقوة والظفر لأن طائر الحبارى سريع الهروب والتخفي ولا يمكن اصطياده بسهولة، ويتميز لون ريشه بالتماهي بالألوان وبتقاربه لألوان الطبيعة التي يعيش فيها مما يصعب على القناصين تمييزه حتى لو كان على مسافة قريبة منهم

طائر الحبارى.. وِفادة أصيلة ورعاية وفيّة في الإمارات

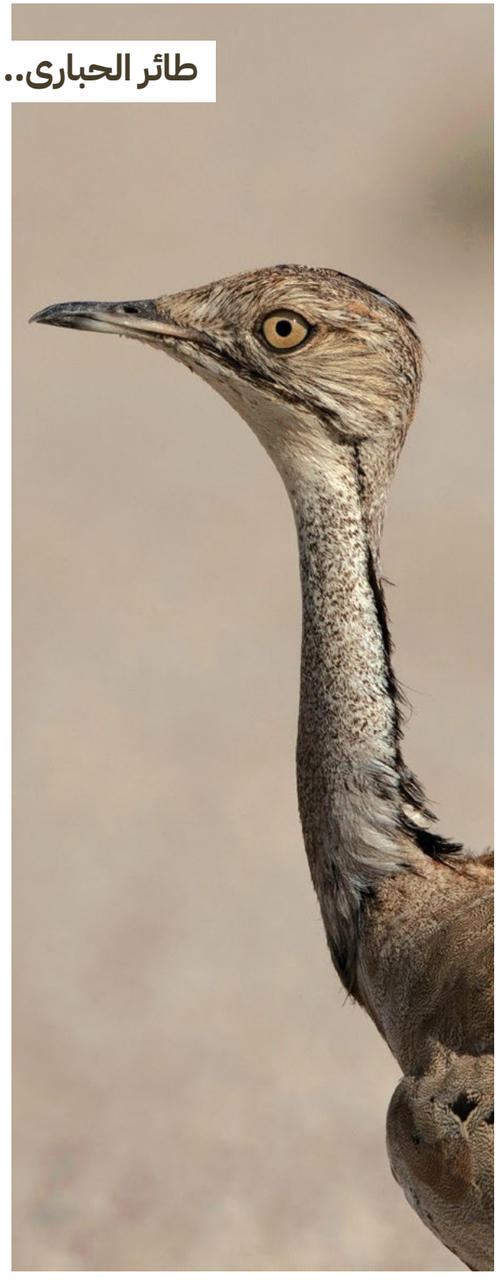

خالد صالح ملكاوي

لطائر الحبارى علاقة بالإمارات على مر العصور، فهو واحد من طيور الهجرة التي تنتقل من المناطق الباردة في أوروبا وروسيا إلى المناطق الأكثر دفئاً في جنوب آسيا وشمال أفريقيا، مروراً بالإمارات العربية المتحدة في جدول ترحالها. وقد حرصت الإمارات على أن تكرم وفادة هذا الضيف الزائر منذ عقود طويلة، وجهدت في الحفاظ على استدامته بعد أن أدركت أنه يمضي في الانقراض بفعل عوامل عدة، للإنسان دور فاعل فيها، فوضعت استراتيجية للحفاظ على هذا الطائر، وامتدت بفعلها خارج الوطن لتعضد الجهود الدولية في هذه الغاية.

وتعد الإمارات رائدة في جهود الحفاظ على طائر الحبارى والتنوع البيولوجي في المنطقة. وتلتزم حكومة الإمارات بتطبيق استراتيجيات حماية الحياة البرية والحفاظ على المَواطِن الحيوية المهمة لطائر الحبارى والأنواع الأخرى، انطلاقاً من التزامها الأخلاقي في حماية الحياة البرية، وكذلك تعبيراً عن دورها المسؤول لعلاقتها التاريخية بهذا الطائر؛ فالحبارى تعبّر عن تراث عريق وجذور ضاربة في أعماق التاريخ لأكثر من ألفي عام، وبذا فإن الإمارات بالتزامها إنما تعبّر عن نزعة أصيلة للحفاظ على إحدى ركائز التراث الوطني التي تم توارثها عن الآباء والأجداد، ما يجعل الحفاظ على هذه الركيزة صوناً للنوع ولهذا التراث العريق والتقاليد الأصيلة. فعلى مر العصور، استمرت الإمارات في استضافة طيور الحبارى المهاجرة، وتوفير بيئة آمنة ومناخاً مناسباً لها خلال زيارتها في فصل الشتاء، في علاقة تعكس تراثاً طبيعياً غنياً للإمارات واهتماماً واعياً بالحفاظ على التنوع البيولوجي والحياة البرية. وهي تتخذ إجراءات عدة لحماية الحبارى وموائلها، كما تضم العديد من المحميات الطبيعية والمناطق المحمية التي توفر بيئة مناسبة لطيور الحبارى وغيرها من الطيور المهاجرة. وتدرك الإمارات أهمية الاستدامة البيئية، وتضمن أن النمو الاقتصادي والتنمية يتم بطريقة مستدامة ومتوازنة مع الحفاظ على الحياة البرية ومواطنها الحيوية، لذا فإن الاستدامة البيئية تعتبر إحدى الأولويات الرئيسية في خطط التنمية وبرامجها في الإمارات. وتتطلع الإمارات إلى أن تكون نموذجاً يُحتذى به في التنمية المستدامة والاستدامة البيئية، عبر الحرص على التوازن بين التقدم الاقتصادي والحفاظ على البيئة للأجيال القادمة. إذ تعمل بشكل مستمر على الحفاظ على التنوع البيولوجي والحياة البرية كجزء من رؤيتها الشاملة للتنمية؛ فالاستدامة البيئية هي جزء أساسي من رؤية الإمارات الشاملة للتنمية المستدامة. ولأن الاستدامة البيئية لها متطلباتها واستحقاقاتها حتى يُكتب لها الحياة، فقد غدا لهذه الاستدامة في الإمارات استراتيجية متكاملة لاستدامة الإنجازات التراكمية التي تحققت عبر عقود، وصار لها مراكزها البحثية، ومؤسساتها المتخصصة، وأُنشئت لها المحميات، وسُنَّت لها التشريعات، وأُبرمت من أجلها الاتفاقيات، ونُظّمت لها المؤتمرات والندوات، وعُقدت اللقاءات الدولية لتبادل الخبرات والممارسات الناجحة.

> **تعد** الإمارات رائدة في جهود الحفاظ على طائر الحبارى والتنوع البيولوجي في المنطقة. وتلتزم حكومة الإمارات بتطبيق استراتيجيات حماية الحياة البرية والحفاظ على المَواطِن الحيوية المهمة لطائر الحبارى والأنواع الأخرى

استراتيجية مبكرة

وتعود بذار هذه الاستراتيجية إلى عهد المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيَّب الله ثراه - عندما أدرك مبكراً المخاطر الجمة التي تهدد وضع طائر الحبارى، فبدأ ينبّه ويحذّر من أنه إن لم تتم المبادرة على عجل للبحث عن السبل الناجحة لحماية هذا النوع النادر فإن الحبارى ستنقرض نهائياً وتختفي من تراثنا ومستقبل أبنائنا. وزاد على ذلك بأن شَرَع في إطلاق أول المشاريع البيئية العالمية للحفاظ على هذا الطائر.

انطلقت البذرة عام 1970م. ببرنامج إكثار واعد للحفاظ على الحبارى في البرية، بعد أن كان لأبوظبي قصب السبق في تنظيم المؤتمر العالمي الأول للصيد بالصقور والمحافظة على البيئة عام 1976م. جمع البرنامج صقّارين من أمريكا الشمالية وأوروبا وآسيا مع الصقارين العرب لأول مرة في تاريخ هذه الممارسة التراثية. وتبع كل ذلك إطلاق برنامج لإكثار الحبارى الآسيوية في الأسر في حديقة حيوان العين في عام 1977م، كما تم تأسيس المركز الوطني لبحوث الطيور في سويحان في أبوظبي عام 1989م. ولم تقتصر هذه المشاريع والبرامج على حدود الإمارات، بل تخطتها وعبرت إلى شمال أفريقيا في المملكة المغربية، وإلى آسيا في كازاخستان، في إنجاز سُجّل باسم دولة الإمارات العربية المتحدة. فقد انطلقت في عام 1996م. عمليات إكثار الحبارى في الأسر في مركز الإمارات لتنمية الحياة الفطرية في المملكة المغربية، تبعها إنشاء محميات جديدة هناك. فيما بدأ العمل في عام 2008م. في مركز الشيخ خليفة لإكثار الحبارى في كازاخستان. وشرعت الإمارات بإطلاق عشرات الآلاف من طائر الحبارى في الدول التي تقيم فيها الإمارات مشاريعها، وفي مناطق مختلفة من

العالم؛ مثل: الكويت، والبحرين، والأردن، وباكستان. ومع هذا الزخم من النشاط الموصول محلياً وإقليمياً ودولياً للإمارات في الحفاظ على طائر الحبارى، أسست الإمارات الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى عام 2006م. ليندرج تحت إدارته المراكز البحثية الإماراتية كافة في كلٍّ من الإمارات والمملكة المغربية وكازاخستان. وليعمل على زيادة أعداد الحبارى البرية، من خلال إكثارها في الأسر وإطلاقها في مواطن الانتشار، وإدارة مجموعاتها البرية من أجل حمايتها وضمان بقائها بأعداد وفيرة، والمحافظة على تنوعها وأصولها الوراثية، وتطوير آلية للتعاون الدولي مع الدول والمنظمات والمؤسسات الدولية والإقليمية المعنية بالمحافظة على الحبارى والتراث المستدام للصيد بالصقور.

تشريعات وسياسات بيئية

تتبنّى الإمارات تشريعات وسياسات بيئية قوية تهدف إلى حماية الحياة البرية والتنوع البيولوجي وضمان استدامة الموارد الطبيعية، كما تعمل على تطوير التشريعات والتنظيمات البيئية وتنفيذها لحماية طائر الحبارى والحفاظ على مواقعه الطبيعية، إذ تُعزز القوانين واللوائح المتعلقة بحماية الحياة البرية وتطبيقها بشكل فعال، ويتم تطبيق القوانين لمنع الصيد غير المشروع وحماية المَواطِن الحيوية وتطبيق العقوبات على المخالفين.

فتولي الإمارات اهتماماً كبيراً في الحفاظ على المواقع الحيوية والمساحات الطبيعية التي يعيش فيها طائر الحبارى.

وقد تم إنشاء العديد من المحميات الطبيعية والمناطق المحمية في جميع أنحاء الإمارات للحفاظ على النظم البيئية المحلية وحماية الأنواع المهددة بالانقراض. وتعمل هذه المناطق المحمية على توفير موائل آمنة ومحمية للحيوانات والنباتات وتشجيع وجودها وتكاثرها. ويتم الحفاظ على هذه المواقع من خلال تحديد المناطق المحمية وتطبيق سياسات الحفظ البيئي المناسبة. فعند إنشائها للمحميات الطبيعية، تقوم الإمارات بتحديد وتطوير المناطق الطبيعية المهمة وتعيينها كمحميات طبيعية، كما يتم تطبيق سياسات وإجراءات حفظ الطبيعة في هذه المناطق للحفاظ على المواقع الطبيعية والمساحات البرية التي تعد موطناً لطيور الحبارى وغيرها من الحياة البرية، وحماية المَواطِن الحيوية والمساهمة في الحفاظ على تنوع الموائل الطبيعية.

سبق عالمي في البحث والرصد

يُسجَّل للإمارات أنها الأولى عالمياً في تعقُّب طيور الحبارى أثناء هجرتها شمالاً وجنوباً بوساطة الأقمار الاصطناعية، إذ تفيد نتائج التعقُّب المحققة في تعزيز جهود الحفاظ على الطائر. ويتم في ذلك تنفيذ برامج للبحث والرصد لمتابعة ومعرفة حالة طيور الحبارى وتحديد مواقع وجودها والعوامل التي تؤثر فيها. ويسهم هذا البحث في توجيه الجهود واتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية هذه الطيور. وتقوم الإمارات بدراسة عادات وسلوكيات طائر الحبارى ومراقبة أعداده وتوزيعه. وتستخدم في ذلك التقنيات المتقدمة مثل التتبع الجيومكاني واستخدام أجهزة التحليل الوراثي للمساهمة في فهم الأنواع وتحديد أفضل الإجراءات لحمايتها. فكما هو شأنها مع التكنولوجيا والابتكار في مختلف المجالات، فإن الإمارات توظف التكنولوجيا والابتكار في جهود الحفاظ على طائر الحبارى، إذ يتم استخدام التقنيات المتقدمة مثل تتبُّع الحركة والتحليل الجيني في جهود حفظ طائر الحبارى في الإمارات؛ فتعتمد تقنية تتبُّع الحركة على تركيب أجهزة تحملها الطيور مثل الFأجهزة الإلكترونية، وبمساعدة الأقمار الاصطناعية، تسمح بتتبُّع حركة الطيور ومعرفة مواقع وجودها ومناطق التكاثر والهجرة. وتساعد هذه المعلومات على تحديد المسارات وفهم أنماط الحركة لطائر الحبارى، ما يساعد في اتخاذ إجراءات حماية أفضل. أما التحليل الجيني، فيتم تطبيقه لفهم التنوع الوراثي لطائر الحبارى وتحديد الأصول الجينية للطيور، ويتيح ذلك توجيه جهود الحفاظ وتطوير البرامج الانتقائية لتعزيز التنوع الوراثي والحفاظ على سلالات طائر الحبارى.

تعمل الإمارات على زيادة الوعي بأهمية حماية طيور الحبارى والحياة البرية بشكل عام من خلال حملات التوعية والتثقيف، إذ يتم تنظيم فعاليات ومبادرات تعليمية تهدف إلى نشر المعرفة والتفهم حول أهمية المحافظة على هذه الكائنات، وتنظم الهيئات المعنية بحماية البيئة حملات تثقيفية على مستوى الدولة

وعي وتعليم بيئي ممنهج

تعمل الإمارات على زيادة الوعي بأهمية حماية طيور الحبارى والحياة البرية بشكل عام من خلال حملات التوعية والتثقيف، إذ يتم تنظيم فعاليات ومبادرات تعليمية تهدف إلى نشر المعرفة والتفهم حول أهمية المحافظة على هذه الكائنات، وتنظم الهيئات المعنية بحماية البيئة

حملات تثقيفية على مستوى الدولة. غير أن أهم ما سجلته الإمارات في هذا المجال أن جعلت التعليم البيئي أحد العناصر البارزة في تطوير المناهج الدراسية في دولة الإمارات. ووفقاً لذلك، تم توجيه الجهود لتضمين المحتوى البيئي في المناهج والكتب المدرسية، كما تم إدراج مفهوم الحفاظ على الحبارى في المناهج التعليمية المعتمدة في مدارس أبوظبي.

ولذلك، حرصت وزارة التربية والتعليم في الدولة على إدماج البُعد البيئي في المناهج الدراسية لجميع المراحل، من خلال مناقشة القضايا البيئية التي تؤثر على بيئة الطالب، ما يفتح المجال لمناقشة الحلول المستدامة. وكجزء من إشراك أصحاب المصلحة العالميين في عجلة تعزيز المعرفة البيئية، فقد تم إطلاق مبادرة المدارس البيئية؛ وهي مبادرة عالمية تترأسها جمعية الإمارات للطبيعة بالتعاون مع الصندوق العالمي للطبيعة، وتهدف إلى تشجيع العمل البيئي في المدارس.

تعاون دولي

وقد جعلت هذه الجهود الإماراتية في الحفاظ على التنوع البيولوجي والحياة البرية والعمل على استدامة عديد من الكائنات الحية بما فيها طائر الحبارى، نموذجاً يُحتذى به على المستوى العالمي. وقادها ما حققته من إنجازات كبيرة في هذا المجال، إلى أن تحظى بتقدير واحترام المجتمع الدولي في مجال الحفاظ على البيئة. ومع حرصها على التعاون الدولي في مجال حماية طائر الحبارى، غدت الإمارات تشارك بفاعلية وهي تحمل ريادتها وتجربتها الثرية في الجهود العالمية للحفاظ على الأنواع المهددة بالانقراض وتعزيز الحياة البرية، وذلك ضمن سعيها لتعزيز التعاون الدولي في الحفاظ على التنوع البيولوجي وتبادل المعرفة والخبرات والممارسات الناجحة.

وفي جهودها في التعاون مع المؤسسات والمنظمات الدولية لحماية طائر الحبارى والحفاظ على التنوع البيولوجي، استضافت الإمارات مؤتمرات وفعاليات دولية عدة حول البيئة، بعد أن كان لها الفضل، قبل نحو نصف قرن، في استضافة أول مؤتمر للصيد بالصقور والمحافظة على البيئة. وهي تشارك في المبادرات العالمية والمؤتمرات والمنتديات التي تهدف إلى حماية الأنواع المهددة والحفاظ على البيئة. وتعمل على توفير الدعم المالي والتقني للمشاريع والبرامج البيئية خارج الوطن، بل وتقود بعض الجهود العالمية للحفاظ على الحياة البرية.

وهي إذ تحرص على تأكيد التزامها بسن التشريعات البيئية القوية وتنفيذ الممارسات البيئية المستدامة، فإنها تعمل، في الوقت نفسه، على تطوير التشريعات والسياسات البيئية وتعزيز الوعي البيئي، ليس لدى المجتمع المحلي فقط، وإنما على المستويين الإقليمي والعالمي أيضاً ■

* باحث وإعلامي مقيم في الإمارات

مسابقات أدبية مميزة

أطلقها الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى

أحمد عبد القادر الرفاعي

من المؤكد أن طائر الحبارى بالنسبة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة سيبقى مركز اهتمام لا يدانيه أي نوع آخر من الأنواع البرية، وقد كانت الانطلاقة الأولى لجهود المحافظة على الحبارى على يد القائد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - عندما أطلق برنامجاً للمحافظة على الحبارى عام 1977، وتوالت العديد من الاستراتيجيات والخطط والإنجازات النابعة من رؤيته وشغفه بالحفاظ على البيئة والحياة البرية، وقد حدّد الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى الركائز الاستراتيجية لعمله؛ ومنها البحث العلمي المستمر وحماية الأنظمة البيئية المهمة، وكذلك المحافظة على التراث الإنساني الحي للصقارة مع استدامة مجموعات الحبارى البرية، وتنفيذ برنامج تعليمي متوافق مع الاستراتيجيات الحديثة للتدريس والتعلم وتوفير الأدوات المفيدة لبناء قدرات قادة المستقبل في المحافظة على الطبيعة[1].

وانطلاقاً من هذه الاستراتيجيات والركائز أطلق الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى مجموعة من المسابقات الأدبية المهمة التي أسهمت بشكل فعّال في تنمية المواهب الأدبية بما يتناسب مع هدف تطوير قدرات الجيل القادم من المحافظين على أنواع الحياة البرية في المستقبل، وتحفيز المبدعين على إنتاج نصوص أدبية إبداعية تعمّق أهمية الحبارى في الثقافة الإماراتية والعالمية وإعطاء الشباب المبدعين فرصة التعبير عن دورهم في الحفاظ على الأنواع الصحروية من الحبارى والتهديدات التي تواجهها من خلال أعمالهم الأدبية الملهمة ليصبحوا أبطالاً للمحافظة على البيئة والحياة الفطرية بهدف عالمي يتمثل في تعزيز التنمية المستدامة وصون التنوع البيولوجي وحماية البيئة والحفاظ على الحياة البرية.

ومن هذه المسابقات مسابقة شعرية أطلق عليها «أجمل بيتين من الشعر» التي أطلقها الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى من خلال حسابه على وسائل التواصل الاجتماعي عام 2017، بهدف زيادة الوعي لدى المجتمع بأهمية الحفاظ على طائر الحبارى، ونشر الصندوق في إطار المسابقة صورة جميلة ومعبرة لطفلة إماراتية وهي تطلق طائر الحبارى طالباً وصف الصورة من خلال بيتين من الشعر بشرط أن يكونا موزونين ولم يسبق نشرهما ويخصان المشارك وليسا منقولين[2]. وقد لاقت المسابقة إقبالاً من قِبل مئات الشعراء والشاعرات ورواد مواقع التواصل الاجتماعي من كل أرجاء الوطن العربي، وفي شهر مارس من العام نفسه أعلن الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى اسم الفائز بالمسابقة وهو الشاعر غانم الوسيدي الحربي من المملكة العربية السعودية[3].

أما المسابقة التالية فقد كانت عبارة عن ورشة لكتابة القصة القصيرة لطلاب الجامعات أطلقها الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى عام 2021، حيث تمت دعوة طلاب جامعيين من جميع أنحاء دولة الإمارات العربية المتحدة للمشاركة في ورشة عمل من جزأين: الجزء الأول للتعريف على جهود الإمارات في الحفاظ على الأنواع البرية وعلى وجه التحديد الحبارى، وفي الجزء الثاني تم إكسابهم المهارات الأساسية لكتابة القصة القصيرة، وقد شارك 27 طالباً من 7 جامعات في دولة الإمارات العربية المتحدة في تحدي القصة القصيرة وشاركوا في ورش العمل[4].

وفي أكتوبر 2021 أعلن الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، عن الفائزين بهذه المسابقة، وتم تنظيم حفل رسمي في جناح الصندوق بمعرض أبوظبي الدولي للصيد والفروسية لتوزيع الجوائز التقديرية، بحضور سعادة محمد صالح البيضاني، المدير العام للصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، حيث أعلن الصندوق خلال المعرض أسماء الفائزين الثلاثة في ورشة الكتابة التي شهدت مشاركة طلاب جامعيين من جميع أنحاء الإمارات، والأسماء هي هانيا فتحي غنيم، وريم محمد اليزيدي، ودانة اليزيدي[5].

ويذكر أن الإبداع والمعرفة هما ما امتازت بهما القصص الملهمة التي تم تقديمها ضمن المسابقة. وأظهرت شغف الجيل القادم بجهود الحفاظ على البيئة في دولة الإمارات، وأظهرت التزام الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى بتعليم الشباب وأجيال المستقبل وإشراكهم في القضايا المهمة خارج نطاق الفصول

الدراسية. وقد نجحت ورشة الكتابة برفع مستوى الوعي وتعزيز إدراكهم بأهمية الحفاظ على الأنواع في دولة الإمارات، وبناء مجتمع طلابي نشط ومدرك تماماً لتراث وطنه الثقافي الغني.

وخلال العام الدراسي 2020 /2021 تم إطلاق تحدي القصة القصيرة بالتعاون بين الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى ووزارة التربية والتعليم لجميع المدارس في دولة الإمارات، حيث طُلب من الطلاب كتابة قصة قصيرة من خلال العمل ضمن فرق تضم الكتّاب والمصممين والمحررين والرسامين لتعزيز التعاون والإبداع من خلال تسليط الضوء على أهمية الحبارى في الثقافة الإماراتية، وقد شاركت 80 مدرسة من مختلف أنحاء دولة الإمارات بالمسابقة، وتم استلام الأعمال التنافسية من 60 مدرسة وتأهلت 30 مدرسة منها للتصفيات النهائية، وأعلن في معرض أبوظبي للصيد والفروسية عام 2021 عن 15 قصة فائزة لتمثل 15 عاماً مضت منذ تأسيس الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، وقد كانت جائزة الفائزين رؤية قصصهم ورسومهم وإبداعاتهم الفنية في كتاب «قصص من بيئتنا بأقلام أجيال المستقبل»[6]. ومن القصص التي تضمنها الكتاب «قصة الحبارى رمز وأصالة، وقصة سفينتها سنحمها، وقصة صديقتي لا شيء مستحيل، وقصة معاً في أمان، وقصة مغامرة في ربوع إماراتي الحبيبة» وغيرها من القصص التي أبدع فيها الطلاب بتأليف قصص مناسبة للموضوع وتصاميم ورسومات معبرة[7].

ويشار إلى أن المشاركين قد أظهروا مستوى عالياً جداً من المهارة في سرد قصصهم، وقد سلطت القصص القصيرة في الكتاب الضوء على رؤية الطلاب الحاليين تجاه العالم المحيط بهم، وتضمن الكتاب المُصوّر مشاهد من القصص التي تروي توجه العائلات إلى الصحراء العربية وهي محاطة بغنى الحياة البرية والموائل الطبيعية وقطعان المها والواحات الصحراوية إضافة إلى اكتشاف الطيور المحلية وبيئاتها الطبيعية المهددة بالانقراض، حيث يتم سرد هذه القصص بطريقة تلقى صدى مسموعاً لدى دعاة الحفاظ على البيئة من الصغار والكبار.

وفي شهر فبراير من عام 2023 أطلق الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى أول مشروع تجريبي في كازاخستان لمسابقة كتابة القصص الإبداعية بين أطفال المدارس الريفية في شايان، حيث يقع مقر مركز الشيخ خليفة - رحمه الله تعالى - لإكثار الحبارى في كازاخستان. وهدفت المسابقة إلى تشجيع جيل الشباب على أن يصبحوا محبين للطبيعة ومحافظين عليها، بالإضافة إلى تعزيز علاقة الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى مع المجتمع المحلي

من المؤكد أن طائر الحبارى بالنسبة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة سيبقى مركز اهتمام لا يدانيه أي نوع آخر من الأنواع البرية، وقد كانت الانطلاقة الأولى لجهود المحافظة على الحبارى على يد القائد المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب اللّه ثراه - عندما أطلق برنامجاً للمحافظة على الحبارى عام 1977، وتوالت العديد من الاستراتيجيات والخطط والإنجازات النابعة من رؤيته وشغفه بالحفاظ على البيئة والحياة البرية

في إطار الدعم الاقتصادي الاجتماعي الذي يقدمه الصندوق إلى البلدان التي يعمل فيها. وازدانت المسابقة التي يدور موضوعها حول «التحديات والحلول في الحفاظ على التنوع البيولوجي» بمشاركة 40 قصة قصيرة إبداعية مصورة حول الأنواع المحلية المعرضة للخطر أو المعرضة للانقراض من مختلف مدارس المنطقة الريفية المحيطة بالمركز، حيث تم اختيار 15 قصة منها للنشر في كتاب باللغتين الكازاخستانية والروسية[8].

وقد كان لهذه المسابقات بمختلف أنواعها ومسمياتها دور مهم في الوعي والتواصل وتثقيف الشباب بأهمية المحافظة على الطبيعة وأنواع الحياة البرية وذلك للحفاظ على مستقبل بيئتنا العالمية، ودور في تعميق قيمة تعليمية ساعدت على التعرف أكثر على طيور الحبارى وجهود الصندوق الدولي للحفاظ عليها وأهمية فهم دور أجيال المستقبل لدعم تلك الجهود ■

* كاتب سوري

الهوامش :

1. الموقع الإلكتروني للصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى:
https://houbarafund.gov.ae/ar
2. وكالة أنباء الإمارات وام: 15 / فبراير / 2017: https://wam.ae/ar/details
3. جريدة الخليج: 16-03-2017/https://www.alkhaleej.ae/
4. التقرير السنوي لعام 2020 / 2021 للصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى:
https://houbarafund.gov.ae/ar/library/reports/educationnn
5. شبكة بيئة أبوظبي:
https://abudhabienv.ae/2021/10/02
6. التقرير السنوي لعام 2020 / 2021 للصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى:
https://houbarafund.gov.ae/ar/library/reports/educationnn
7. قصص من بيئتنا بأقلام أجيال المستقبل، من إصدارات الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى ومؤسسة الإمارات للتعليم المدرسي، 2021.
8. جريدة البيان: https://www.albayan.ae/uae/news/2023-02-01-1.4608000

الحبارى الطائر المهيب يعزز شعر الحكمة

الأمير كمال فرج

الطيور من نِعم الله على الأرض، وهي تقوم بدور مهم في الحفاظ على التوازن البيئي، بالتخلص من الحشرات الضارة والقوارض، والحفاظ على الطبيعة من خلال تلقيح الأزهار، إضافة إلى دورها الجمالي في إضافة البهاء والغناء إلى العالم. تفاعل الإنسان مع الطيور، وعايشها، حيث أصبحت جزءاً من حياة الناس، وبلغ التعايش حداً كبيراً عندما أصبحت جزءاً من حياة بعض القرويات اللائي وجدن في تربيتها وسيلة للرزق، والطعام. واستلهم المبدعون الطيور في أعمال إبداعية عظيمة أصبحت جزءاً من التراث الإبداعي للأمم، لعل أشهرها رائعة تشايكوفسكي الموسيقية «بحيرة البجع»، ورواية «الطيور السوداء» لأجاثا كريستي.

والحبارى طائر جميل رمادي يشبه الأوزة من فصيلة Otididae، مهيب، خجول، ونادراً ما يستخدم صوته الذي يشبه «النبيح" يقضي معظم وقته على اليابسة، محب للصحراء، لا يشرب الماء، وينمو في الموائل شديدة الحرارة. يعيش الحبارى في جزر الكناري وشمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا، وغرب الصحراء الكبرى، ويعتبر رمزاً للصحراء وللثقافة البدوية، حيث لعب دوراً مهماً في رياضة الصيد بالصقور، فهو الطريدة المفضلة للصقارين، لذلك كان عرضة لخطر الانقراض وفق الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة.

يسمى ذكر الحبارى «الخرب» والأنثى «الدجاجة» ويسمى فرخه «النهار»، ويسمى أحياناً «دجاجة البر»، وقال الجاحظ في كتابه «الحيوان»: «الحبارى طائر حسن. وقد يتّخذ في الدور، وكثير من العرب وقريش يستطيبون محسيّ الحبارى جداً، وهو من أشد الطير طيراناً وأبعدها مسقطاً وأطولها شوطاً، أي تطير لمسافات بعيدة. وأقلّها عرجة، أي بقاء في المنزل، ذلك أنها تُصاد بالبصرة فيوجد في حواصلها حبة شجرة البطم الخضراء التي تنبت في تخوم الشام، ولذلك قالوا في المثل: «أطلب من الحبارى».

والحبارى من أكثر الطير حيلة في تحصيل الرزق ومع ذلك تموت أحياناً جوعاً، وهي كثيرة النسيان، حسنة النية، حتى إذا تركت عشها ضلّت طريق العودة إليه، وقد ترقد على بيض غيرها من الطيور وهي لا تدري أنه لغيرها. وقد اهتمت دولة الإمارات بالحبارى، في ظل جهودها في استدامة التراث، والحفاظ على البيئة والتنوع البيولوجي، فأنشأت الهيئات الخاصة به، ومن بينها المركز الوطني لبحوث الطيور، ومركز الشيخ خليفة لإكثار الحبارى، والصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى في أبوظبي. وقد حقق الصندوق عام 2021 أرقاماً قياسية، فقد تم إجمالاً إنتاج أكثر من 82 ألف فرخ من الحبارى الآسيوية، وحباري شمال أفريقيا، في موسم التكاثر لعام 2021، مع توفير أكثر من 69 ألف حباري للإطلاق، كما نجح الصندوق في إنتاج أول فرخ حبارى عربي بالتلقيح الاصطناعي.

سلاح الحبارى

الطيور عادة تملك أسلحة تدافع بها عن نفسها في الطبيعة القاسية، ضد هجوم الكائنات المحيطة، ومن بينها الصقر، وتتميز الحبارى بالقدرة على التخفي، فهي عادة ما تأخذ لون البيئة التي تعيش فيها للاختفاء عن الأعداء، فيصعب على الصياد رصدها، كما أن لون بيض الحبارى يشبه الأعشاش الصحراوية وهو ما يجنبه الحيوانات المفترسة. ولكن السلاح الفعال للحبارى يكمن في خزانة بين دبره وأمعائه يكون فيها «سلحا» وهي مادة صمغية لزجة، فإذا هاجمه الصقر يقذف عليه هذه المادة فيلتصق جناحاه فلا يستطيع الطيران، وعندئذ تجتمع الحباريات على الصقر فينتفن ريشه، فيهلك. لذلك يوصف الحبارى بالدهاء والظرف. ويقال «سَلْح الحُبَارى سلاَحها» كمَثَل لأنه إذا أراد الصيَّاد أن يتنَاوَلها بيدهِ رمت بسلحها عليهِ فينفر عنها ويتركها.

وذكر الجاحظ في كتابه: «وإنما الحبارى في سلاحها كالظّرابيّ . شيء أعظم من الجرذ على خلقة الكلب . في فسائها، أي في الريح التي تخرج منها، وكالثعلب في سلاحه أي ما يَخْرُج من البَطْن من ريح وغائط، وكالعقرب في إبرته، والزنبور في شعرته، والثور في قرنه، والدّيك في صيصيته، والأفعى في نابها، والعقاب في كفّها، والتمساح في ذنبه».

الحبارى في الشعر العربي

كانت الطيور عنصراً أساسياً في قصائد الشعراء سواء من ناحية الوصف أو التأويل، يعبر عمر أبو ريشة عن حالة الإيثار التي تتميز بها الطيور، حتى إنها تغني في الأحوال كلها حتى وهي تحتضر، بينما لا يفرق الإنسان بين الغناء والنشيج:

لا تسأليني ما ترجوه أغنيتي
بعض الطيور تغني وهي تحتضر

الطيور عادة تملك أسلحة تدافع بها عن نفسها في الطبيعة القاسية، ضد هجوم الكائنات المحيطة، ومن بينها الصقر، وتتميز الحبارى بالقدرة على التخفي، فهي عادة ما تأخذ لون البيئة التي تعيش فيها للاختفاء عن الأعداء، فيصعب على الصياد رصدها، كما أن لون بيض الحبارى يشبه الأعشاش الصحراوية وهو ما يجنبه الحيوانات المفترسة

ويضرب محي الدين الخطيب المثل بالطيور في قوة الانتماء والارتباط بأعشاشها، فكيف يكون الحال بالإنسان، ويقول:

تحـــنّ الكـــرام لأوطانهـــا
حنـــين الطيـــور لأوكارهـــا
وتذكـــرُ فيهـــا عهـــود الصبـــا
فـــتزداد شوقـــاً بتذكـــارها

تناول بعض الشعراء الحبارى في قصائدهم، وكانت طبيعته الهادئة وذكاؤه وقدرته على الدفاع عن نفسه مثيرة للمخيلة، وتنوعت أساليبهم في ذلك، فمرة وظفوه في موضوعه الأساسي وهو القنص، فلا تتم متعة القنص إلا به، حيث يعتبر هدفاً رئيسياً للصقور، حتى أطلق عليه «فاتنة الصقر»، ومرة في الحكمة، حيث استخدم الحبارى دائماً كرمز للحمق والأمومة والإيثار والحزن والدهاء. وكانت طريقة الحبارى في الدفاع عن نفسه بالسلح وهو المادة اللزجة التي يطلقها موضوعاً للوصف الشعري، قال شاعر:

وهـم تركـوك أسلـح مـن حبـارى
رأت صقـراً وأشـرد مـن نعـام

وفي المعنى نفسه قال قيس بن زهير:

مـتى تتحـزّم بالمناطـق ظالمـاً
لتجـري إلـى شـأوبعيـد وتسبـح
تكـن كالحبـارى إن أصيبـت فمثلهـا
أصيـب وإن تفلـت من الصّقـر تسلـح

وفي الاتجاه نفسه، هجا ابن أبي فنن بعض الناس، واصفاً إياهم بطائر الحبارى عندما يقذف الصقر المهاجم بمادته اللزجة التي تشل حركته، وكأنه هنا يرميهم بالمراوغة والإفلات من العقاب بطرق غير شرعية، يقول:

رأوا مـال الإمـام لهـم حـلالا
وقالـوا الدّيـن ديـن بـني صهـار
ولـو كانـوا يحاسبهـم أمـين
لقـد سلحـوا كما سلـح الحبـارى

ويرسم متمّم بن نويرة الحبارى في صورة شعرية مبتكرة صورة أرملة تحمل وليداً متبلد الشعر سيئ التغذية، واصفاً إياها بطير الحبارى الذي تشقق رأسه بعدما فقد ريشه، يقول:

وضيـف إذا أرغـى طروقـا بعـيره
وعـان ثـوى فـي القـدّ حـتى تكنّعـا
وأرملـة تمشـي بأشعـث محثـل
كفـرخ الحبـارى رأسـه قد تصوّعـا

والأشعث: المتلبد الشعر، ويقصد ولدها. والمحثل: الذي أسيء غذاؤه. وتصوع: أي تقبض وتشقق.

واستخدم العرب طائر الحبارى لقياس العدل والظلم، فازدهار الحبارى دليل على وجود الخير والكرم ومقتلها يكمن في الظلم، بمعنى آخر تحيا الطيور وتزدهر عند نزول المطر، وتموت في

الجدب. قال أعرابيّ: إنه ليقتل الحبارى هزلاً ظلم الناس بعضهم لبعض! وإذا كثرت الخطايا منع الله عزّ وجلّ درّ السّحاب. وإنما تصيب الطير من الحبّ ومن الثمر على قدر المطر. والحبارى في الثقافة العربية طائر نبيل حزين يكتم حزنه عن أقرانه، حتى أصبح يضرب به المثل في الكمد والحزن، يقول المثل «مات فلان كمد الحبارى». فالحبارى تتحسّر أي تتخلص من الريش القديم لينمو الحديث، وفي هذه الحالة يتباطأ نموريشها، وتخسر في عملية التحسير عشرين ريشةً في دفعةٍ واحدة، فتقعد عن الطيران، وإذا رأت الطيور الأخرى تسبقها وتطير كمدت أي حزنت. قال أبو الأسود الدؤلي :

وزيـد ميّـت كمـد الحبـارى
إذا ظعـنت هنيـدة أوتلـمّ

يريد القول إن زيداً يحزن إذا رحلت حبيبته «هنيدة» كما تحزن الحبارى، وفي بعض الروايات اسم آخر وهو «وجيهة» وفي رواية ثالثة «لطيفة». ويصف الكميت بن زيد الأسدي كيف يواجه الحبارى الطيور الجارحة، فلا حيلة عندها إذا وقعت في الأسر، فتنفش ريشها، ولكن ذلك لا يمنع المهاجم من إتمام مهمته والخوض في دمائها، ويقول:

وعيـد الحبـارى من بعيـد تنفّشـت
لأزرق مغلـول الأظافـير بالخضـب

والأزرق: البازي أو العقاب. المغلول: غل شعره بالطيب أدخله فيه. الخضب: عنى به دماء ما يقتنص من الحيوان.

وطائر الحبارى مهم للصقار، لأن الصقر يهتم به، ويسعى إليه، لذلك هو في عنصر أساسي في عملية الصيد. يقول الشاعر:

أصيـد الأرانـب بالبـراري وأعـتني
بصيـد الحبـارى ليس صيـد اليرابـع
فمـا ذو جنـاح كالحبـارى لقـانص
وفي الطيـر كالكـروان ما قد يصـارع

الحبارى في الأمثال

دخل طير الحبارى أيضاً في الأمثال الشعبية، بمعنى أدق الأمثال الشعرية، قالوا في المثل: «مات فلان كمد الحبارى»، والكمد هو الحزن، وكمد أي «حَزن حُزناً شديداً وَكَتَم حُزْنه»، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «كلّ شيء يحبّ ولده حتى الحبارى!». يضرب بها المثل في الموق أي الحمق. قال ابن الأَثير: خص الحبارى بالذكر في قوله حتى الحبارى لأَنها يضرب بها المثل في الحُمْق، فهي على حمقها تحب ولدها فتطعمه وتعلمه الطيران كغيرها من الحيوان. وفسر بيتاً أَنشده ثعلب: أُحِبُّهُ حُبّاً له سُوَّارى .. كَمَا تُحِبُّ فَرْخَهَا الحُبَارَى، فقال: له سُوَّارَى أَي له ارتفاعٌ؛ ومعنى كما تحب فرخها الحبارى: أَنه فيها رُعُونَةٌ فمتى أَحبت ولدها أَفرطت في الرعونة. وَمن الأمثل الأخرى «عيدَ الحُبارَى الصَّقْرَ» وذلك أَنَّ الحُبارَى تقف للصقر وتحاربه، ولا سلاح لها، وربَّما

ذرقَتْهُ، ولذلك قِيلَ: سِلاحُها سَلاحُها. قال الكلبي: أَقلَّ غَنَاء عَنكَ إِيعادُ بارِقٍ .. وَعيدَ الحُبارَى الصَّقْرَ مِن شِدَّةِ الرُّعْبِ. ويضرب بالحبارى أيضاً المثل في الحلم الكاذب، أو الشيء الذي تتمناه ولا تصل إليه، وإبانة الفرق بين الحلم والواقع. يقول الشاعر:

عِنْـــــدَ اللّـــهِ لَحْـــمُ حباريـــات
وَعِنْـــدَ اللّـــهِ لَحْـــمُ قَطَـــاً سِمـــانِ

الحبارى في الشعر النبطي

يرتبط الشعر النبطي ارتباطاً وثيقاً بالبيئة بكل ما تتضمنه من مخلوقات بديعة، ورغم تعدد مصادر الإلهام فيه، يمكن القول إن الشعر الشعبي هبة الطبيعة، لذلك كان من الطبيعي أن يتناول الشعراء الشعبيون الطيور، ويستلهمونها في قصائدهم، ومن بينها الحبارى. يصف الشاعر: شبيب بن جعيلان رحلة صيد بالصقور، مبشراً بقدوم الحبارى:

يـــا علـي لي شفتـــوا اعبـــور الحبـــارى
ادفـــع لنـــا مكتـــوب في عـــبرت الطـــير
البحـــر هـــدا سهيـــل وقـــت الصفـــاري
وبـــين مـــن المنشـــأ مزونـــن مزابـــير
وقـــرب نقـــال الـــي على الطلـــع ظـــاري
شفـــت الحـــرار تدوج فيها الصقاقـــير
يـــا مـــا حـــلأ كل بطـــيره يمـــــاري
امجرنـــس طيره ليـــال المعابـــــير
في فيضـــــت مدهـــال ريـــم وعفـــاري
حـــول الشنانـــه في هذيـــك العثامـــير
محـــلأ به المقنـــاص صبـــح وعصـــــاري
لـــي ضايـــف النـــادر ومريتـــه اديـــــر

ووظف بعضهم الحبارى في موضوعات أخرى كالتعبير عن الذات، ومنهم سلطان العتيبي الذي يدافع عن نفسه ضد من تقول أنه اعتزل الصيد، يقول في قصيدته «طيور الحبارى»:

قالت ســـلام وكيف حالك وش امســـــيت
يـــا حرنـــا اللي كـــان صيـــده حبـــــاري
اليوم اشوفـــك عـــن سماهـــا تواطيـــــت
ورجعـــت تطـــرد فالحجـــل والقمـــــاري
وبين السلـــم والراك طحـــت وتســـــاويت
وعجـــزت لـ صقـــور الجزيـــره تبـــــاري
مـــن اول عـــن ماكـــرك مـــا توانـــــيت
تهابـــك طيـــور الفـــلا والضـــــواري

وان شفـــــت لك صيده كفخـــت وتعليت
تطـــــرد وراهـــا مـــع نسيـــم الذواري
قلـــت الســـلام انكان يقفـــاه يـــــا لـــيت
خليـــه فـــي نحـــرك وصـــدي يســـــاري
ماهمـــني هرجـــك ولا منـــــه فزيـــــت
دام القصـــر مسكـــون والضيـــف جـــاري
انـــا ورى صيـــدي كفخـــت وتعلـــــيت
ولا بـــان لـــي خلـــــه ولاشـــي عـــــواري
واليـــــوم جـــا للصيـــد بوم وكتاكـــيت
مـــــن داجـــي الفيـــه وبـــين الشجـــاري
وغدو بهـــا واقفـــوا ونا عفـــت وانحـــــيت
وتكســـر جناحـــــي وهـــون مطـــــاري
واللـــه لروح القـــبر مافـــك لـــي بـــيت
واترك طيـــور الخـــبت فيهـــــا تمـــاري

ولعبد الله العصيمي قصيدة جميلة في الحكمة، ينتقد فيها محاولة فرض الرأي بالصوت العالي، يوظف فيها طائر الحبارى ضارباً مثلاً شعرياً في قوله «الخوف ما فك الحبارى من الموت»، أي إن الخوف لا يمنع القدر، والقصيدة بها أكثر من تعبير يمكن أن تجري مجرى الأمثال، يقول في ما يقرب من العامية البيضاء:

ماعنـــــدك إلا الصـــوت لا ترفع الصـــوت
مـــــادام قلبـــك مثـــل قلـــب النعامـــــه
الخـــوف ما فـــك الحبـــارى مـــن المـــوت
والمـــدح مـــــايرفـــع مقـــام الهلامـــــه
لـــو كـــان يملك لـــــه عمـــارات وبيـــوت
وان زاد مالـــه مـــــا يـــزود مقامـــــه
المـــال يفنـــا واخـــر اعمارنـــا نمـــــوت
والذكـــر يبقـــى للنشامـــا علامـــــه
كـــــم خلّـــد التـــاريخ في داخـــل النـــوت
اهـــل الكـــرم والمرجلـــه والشهامـــــه

الغش في الحبارى

ويحذر محمد بن فطيس المري من الغش في بيع الحبارى، وهي ممارسة يتعرض لها بعض الصقّارين، يقول في قصيدة «تحذروا من بايعين الحبارى» :

تحـــذروا مـــــن بايعـــين الحبـــــارى
وتحملـــوا مـــن غشهـــم يـــا صقاقـــــير
فاضـــي عمـــل ويجيـــك ســـارح وســـــاري
ويركـــب الليتـــات تحـــت المداقـــــير
ايبيعهـــــا فالجـــــو لجـــل المصـــاري
ويبيـــع ثرهـــا لجـــل حب الدنـــــانيير
وان افلـــس من اللفوجـــات المشـــــاري
فك العلومـــــه تمســـــي وتصبح اتســـــير
ايفكهـــا عقـــب العشـــا فالغـــــداري
ويصبـــح هو وربعـــه لثرهـــــا مداويـــــر

ويقول محمد بن فطيس عن ظاهرة الغش في الحبارى في قصيدته «الحبارى»:

الحبـــــارى تكشـــف الطـــيب الصناعـــي
من تصنّـــع!! عندهـــا تظهـــر اعيوبـــــه
الردا عنـــد السنافـــي ســـــم افاعـــــي
والردي لو هـــو بغـــى يلقـــــى صعوبـــه
طـــاوٍ من باقـــي المقنـــص اشراعـــــي
كيـــف!! واقـــلال الروابـــع ولعوبـــــه
افتنـــــوا في حبـــه اقـــلال المساعـــــي
مـــــا يغســـل اذنوبهـــم ياكون توبـــــه
بيعهـــا في الجـــو يحـــرم لو تبـــــاعي
كالسمك في الما !! حرام وحللوبه

وهكذا، ألهم طائر الحبارى بصفاته وحياته الغريبة والغامضة مخيلة الشعراء، ليس لكتابة الشعر فقط، ولكن لابتكار الصور الشعرية أيضاً، والتعبير الصادق عن الحس الإنساني، فأنتجوا العديد من الأبيات التي جرت مجرى المثل، وهو ما ساعد على تعزيز شعر الحكمة بما يحمل من مبادئ وقيم ■

* صحفي وباحث مصري

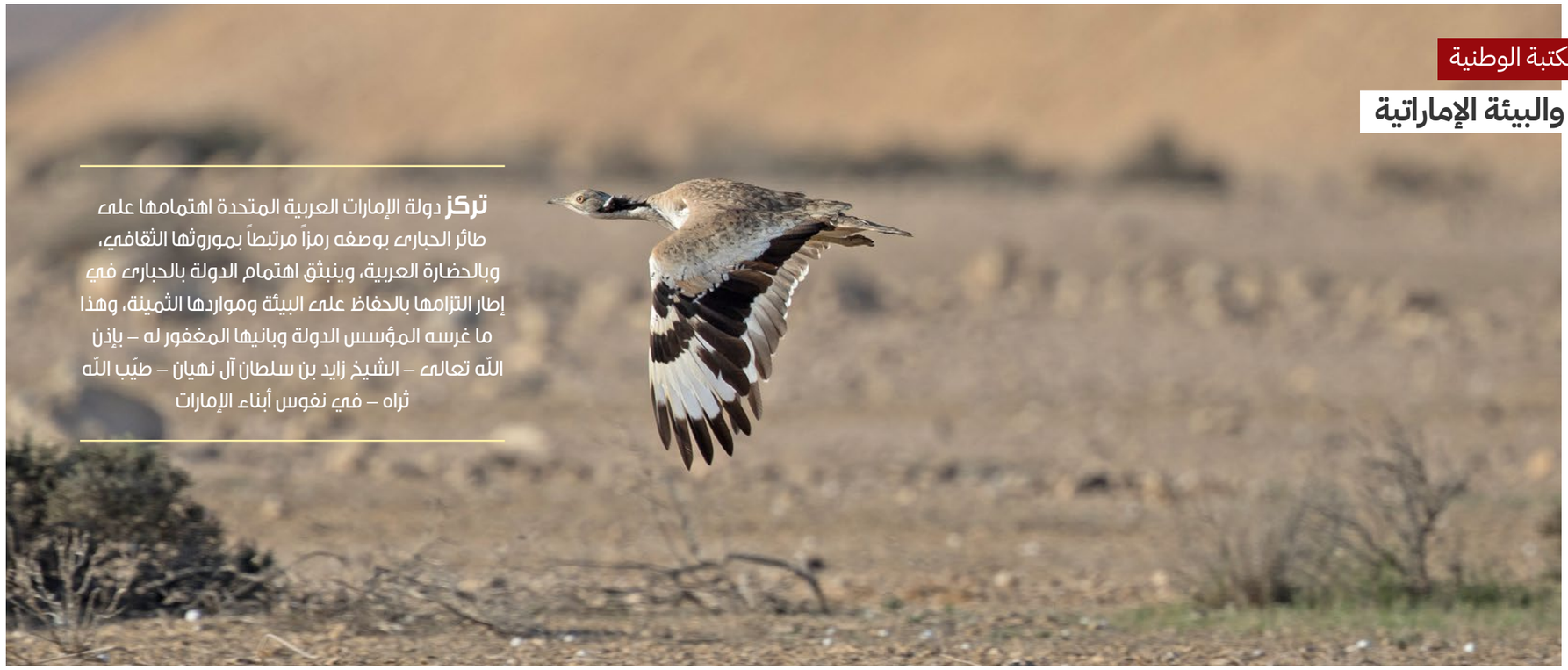

لها أهميتها على صفحات إصدارات الأرشيف والمكتبة الوطنية

الحبارى.. من مفردات الموروث الثقافي والبيئة الإماراتية

تركز دولة الإمارات العربية المتحدة اهتمامها على طائر الحبارى بوصفه رمزاً مرتبطاً بموروثها الثقافي، وبالحضارة العربية، وينبثق اهتمام الدولة بالحبارى في إطار التزامها بالحفاظ على البيئة ومواردها الثمينة، وهذا ما غرسه المؤسس الدولة وبانيها المغفور له – بإذن الله تعالى – الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – طيّب الله ثراه – في نفوس أبناء الإمارات

جمال مشاعل

تركز دولة الإمارات العربية المتحدة اهتمامها على طائر الحبارى بوصفه رمزاً مرتبطاً بموروثها الثقافي، وبالحضارة العربية، وينبثق اهتمام الدولة بالحبارى في إطار التزامها بالحفاظ على البيئة ومواردها الثمينة، وهذا ما غرسه المؤسس الدولة وبانيها المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - في نفوس أبناء الإمارات، ومن هذا المنطلق أَوْلَى الأرشيف والمكتبة الوطنية هذا الطائر اهتماماً كبيراً؛ فوثق في إصداراته بعض صفاته، وأهميته لدى الصيادين في رحلات الصيد بالصقور. ويعتبر طائر الحبارى رمز صحاري شبه الجزيرة العربية وهو الطريدة الأولى والتراثية للصقّارين، ويشكل تحدياً كبيراً لهم ولصقورهم، واصطياده يعطيهم الإحساس بالفخر والنصر.

ثيسيغر.. يسرد أسرار الحبارى

ففي كتاب (أبوظبي: مشاهدات دار الهلال) الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية، ترد معلومات مهمة عن طائر الحبارى دوّنها ويلفرد ثيسيغر «مبارك بن لندن» أثناء مرافقته للشيخ زايد - طيّب الله ثراه - في رحلة صيد بواسطة الصقور: «... ونزلنا جميعاً عن نياقنا، وأشار الشيخ زايد إلى بعض البقع الزيتية على الأرض، وقال: هل ترى هذا الوسخ؟ إن الحبارى تزرفه على مهاجمها، فإذا دخل عين الصقر فإنه يصاب بالعمى مؤقتاً، وإذا وقع على رشه فإنه يوسخه تماماً، ولا يمكن استخدام الصقر مرة أخرى في ذلك اليوم.

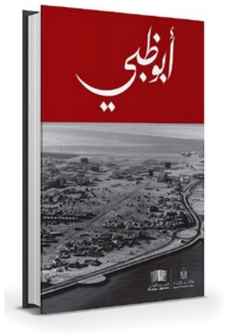

ويواصل ثيسيغر، سألت: كم حبرية يستطيع الصقر أن يصطاد في اليوم الواحد؟ فقال رحمه الله: يمكن للطير الجيد أن يصطاد ثمانية طيور حبارى أو تسعة، ولكنه يصطاد سبعة طيور حبارى وهي تطير مقابل أربعة حبارى على الأرض، هل ترى أين تقاتلا؟ وأشار إلى خط من الريش بطول خمس وعشرين ياردة عبر الرمال. يمكن أن ترى ضراوة القتال بينهما، ويمكن للحبرية في بعض الأحيان أن تفقد الصقر وعيه بضربة من جناحها. وواصلنا المسير ثانية، وقمنا بمفاجأة حبرية في حفرة في الرمال هبطت على الأرض حالما أدركها الشاهين الذي انقض عليها مرتين، ثم هبط إلى جانبها، وقفز عليها محاولاً الإمساك بها بمخلبيه، ففرشت ذيلها وضربت الصقر بجناحها، ثم وصلت الكلاب السلوقية وساعدت الصقر على قتلها لأنها عندما ترى أن الصقر بدأ يصيبه الوهن تركض مسرعة وراءه، ثم طرد الصقر الكلاب، وعندما وصلنا كانت الكلاب جاثمة إلى جانب الحبرية الميتة والصقر يمزقها».

صورة للصقور تطارد الحبارى

وفي كتاب (الفقاعة الذهبية) الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية أيضاً، يصف مؤلفه الرحالة الإنجليزي رودريك أوين، طائر الحبارى في رحلة صيد رافق فيها الشيخ شخبوط بن سلطان - رحمه الله - وما رآه من الشواهين والصقور وهم يطاردون الحبارى، فيقول: انقض «طلال»، اسم أحد الصقور، على طائر الحبارى الذي كان قد انطلق لتوّه، ورفرف أجنحته الكبيرة رويداً على حين كان يسعى جاهداً ليطير، لكن أجنحة «طلال» كانت ترفرف أسرع فحلّق عالياً وسقط كالصاروخ على الطائر، ودفعه إلى الأرض وصرعه، وفي هذه الأثناء يحاول «نهار»، اسم أحد الصقور أيضاً، أن يتبع الأسلوب نفسه مع الحبارى الآخر الذي كان لديه الوقت ليحلق عالياً، لكنه لم يكن سريعاً كفاية، وكان من الممكن رؤية الطائرين وهما يطيران في دائرة واسعة على مدى مئتي ياردة، وأحدهما فوق الآخر، إلى أن ينقض «نهار» على الفريسة ويصرعها، ويرتفع مراراً وتكراراً حتى يسقط الحبارى على الأرض مثل طائرة أسقطت وفقدت أجنحتها السيطرة.

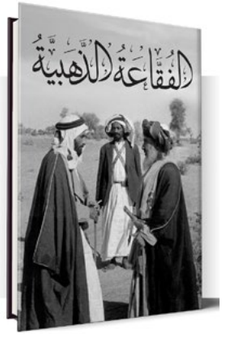

... وعلى الأرض يمدد الصقر فريسته ويغرز مخالبه بشدة في جسمها، وينقر رأس الحبارى وعينيه مراراً وتكراراً، وعندما يصبح الحبارى أعمى يحاول الصقر أن ينزع كبد الطائر.

... وجرت العادة أن يتغذى الصقر بضع لحظات على فريسته الحية، وأحياناً تُستخدم الحبارى إذا كانت في حالة معقولة برغم ذلك في تدريب الصقور غير المدربة، وسيسمح للحبارى بالترنح

والتمايل على الرمال ليهجم عليها مجدداً صقر جديد لا يعرف جيداً كيفية التعامل معها.

ويصف رودريك ممارسة الصيد بالصقور وكأنه من شعائر العبادة لدى إحدى الطوائف، وتحيط به هالة من الرومانسية ... بعد أن تتم السيطرة على الطيور الجارحة بتجويعها، ووضع برقع على عيونها إلى أن ينشأ رابط بين الطائر وسيده.

... إن أفضل فكرة متعمقة يمكن أن تخطر على بالي بشأن عمليات الصيد بالصقور؛ أنه يمنح الصقر الجزء الأفضل في الفريسة، ثم يزال ما تبقى من الحبارى، ويدفن في الرمال عندما يفرغ الصقر منه، ويعود الصقر إلى الوكر؛ حيث يوضع البرقع الجلدي على وجهه مرة أخرى.

ويواصل رودريك سرد ذكرياته: ويتوقف الصيد بالصقور في الفترة الصباحية لتناول الغداء، وأخذ القيلولة، وكنا عادة نأكل صيد اليوم السابق في وجبة الغداء، ويوضع الحبارى في قدر مع الأعشاب والكاري، ويطهى طهياً مكموراً على الحطب، ثم يوضع على صينية ممتلئة بالأرز، ويقدم فوق سجادة الشيخ، ويجلس فريق الصيد حولها، ويجثم كل رجل بحيث تكون إحدى ركبتيه خلف جسد الشخص الجالس بجواره ليجلس أكبر عدد ممكن، ويتناول كل شخص طعامه سريعاً، ثم ينهض ويرحل بصمت فور انتهائه، ويحضر خادم مع إبريق ماء يسكبه على اليدين اللتين تنظفان بالرمال، وهو صابون البدو كما سماه الشيخ شخبوط.

صورة أخرى للصقر والحبارى

إن طائر الحبارى ليس أحمق إلى الدرجة التي يبدو فيها. وعلى سبيل المثال: كنت أفترض أننا سنمسك بفريستنا كلما رأينا طائر الحبارى، ولكن هذا لا يحدث دائماً؛ إذ يمتلك الطائر أجنحة قوية، ومع أنه يكون بطيئاً في البداية، لكنه يصبح سريعاً بدرجة كافية عندما يحلق في الهواء؛ فمثلاً: كنا نمضي في سيارتنا عندما رأينا فجأة حبارى يهمّ بالطيران على بعد مئة يارد أمامنا، وأرسل «طلال» ليطارد فريسته وكان يحلق بالطريقة المعتادة على مستوى منخفض، ودنا من فريسته في البداية، وكنا نتبعه بسيارة الكاديلاك، وكان بين «طلال» والحبارى عشرون ياردة، لكنه كان أسفلها، وكانت أجنحته القصيرة ترفرف بنفس سرعة الأجنحة المشابهة لأجنحة البجع التي يمتلكها الطائر الأسود الذي يسبقه. كنا نتحرك في سيارتنا ونهتز على الأرض الوعرة، وضيّق «طلال» الفجوة بينه وبين فريسته إلى خمس عشرة ياردة، ثم إلى عشر، ثم إلى خمس - لكنه ما زال أسفلها وكان الحبارى يحلق مرتفعاً طوال الوقت إلى أن أصبح مثل بقعة عالية في السماء.

وحرك «طلال» رأسه إلى الأمام واهتز جناح الحبارى فعاينه «طلال» ثم رفرف طائراً نحوه بيد أنه لم يكلف نفسه عناء الهجوم عليه، ومع ذلك نقره مرة أو مرتين.

الحبارى في كتاب (رياضة الصيد بالصقور)

قدمت مجلة (ليوا) الصادرة عن الأرشيف والمكتبة الوطنية في يونيو 2004 عرضاً لكتاب (رياضة الصيد بالصقور) لمؤلفه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - وقد خصص الكتاب الفصل السادس للحديث عن طيور الحبارى التي يحبّ أهل الخليج صيدها بالصقور، وهي طيور معروفة بأنها من أشد الطيور طيراناً، وأبعدها مسافة، والطير منها يكون طويل العنق رمادي اللون، طويل المنقار.

ومن مميزاتها أنها تمتلك سلاحاً تدافع به عن نفسها، ولها خزانة بين دبرها وأمعائها تحتفظ فيها دائماً بسائل لزج؛ فإذا هاجمها الصقر يريد اقتناصها فهي تعلو وتنزل وتحاوره يمنة ويسرة حتى تجد فرصة فترميه به؛ فيلتصق بعض ريشه ببعض ويصبح كالمكتوف المقيد وإذا أخطأته قضى عليها. والصقر يعرف ذلك من الحبارى؛ فهو لا يزال يلقاها عن جنبها، ويدخل من تحتها ويعلو فوقها حتى تقذف سائلها الذي يخاف منه، فإذا قذفته ولم يصبه انقض عليها واقتنصها، ويطلق أهل البلاد على هذا السائل اللزج (طمل). وقد وصفت الحبارى بالحمق والغفلة، فقالوا: ما في الطيور أشد بلهاً منها، لأنها تترك بيضها وتحتضن بيض غيرها، ومن أبرز عادات الحبارى أنها تأوي إلى البراري والحقول الفسيحة المستوية، وتتجنب الغابات، وهي تعيش منفردة وأسراباً.

الحبارى.. محط الاهتمام

وأما عن اهتمام دولة الإمارات العربية المتحدة بهذا الطائر؛ فإن هناك مشاريع ومبادرات مستمرة للدولة؛ محلياً وعربياً وعالمياً، من أجل استدامة هذا الطائر وصونه وتنميته، وقد أثمرت جهود الدولة في الحفاظ على الحبارى - التي تعتبر من الطيور المعرضة لخطر الانقراض - نتائج إيجابية ملموسة، من خلال مساعيها الحثيثة داخل الدولة، وعبر أكثر من منطقة في العالم ■

* كاتب وصحفي مقيم في الإمارات

طائر الحبارى في شعر الطرديات

شمسة حمد الظاهري

يعد طائر الحبارى واحداً من رموز صحراء شبه الجزيرة العربية، دخل تاريخ الصيد من أوسع أبوابه، واسْتُعملت الصقور في الصيد من أجله. عشقها البدوي لوفرة لحمها ومذاقه الطيب ولأسلوبها الرائع والمشوق في مناورة الصقر بطريقة الدفاع عن نفسها سواء في أثناء التحليق أو على الأرض، وبالنسبة إلى الصقّار فهناك متعة في مشاهدتها وهي تصارع صقوره المدربة، مما يبين له مدى نجاحه في تدريب صقره على الاستيعاب والقدرة في المناورة وسرعة الانقضاض. ولقد أكثر الشعراء من ذكر طائر الحبارى في شعر الطرديات قديماً وحديثاً، وكل يصوره ويشبهه بطريقة مختلفة.

وتصنف «الحبر» في أحجامها إلى ثلاثة أنواع: الحفانة وهي الحبارى صغيرة الحجم وتكون أقل مقاومة للصقر وصيدها سهل، والربد أو الربدة: وهي الحبارى المتوسطة الحجم وقد تكون أنثى الحبارى، وهذا النوع من الحبارى صعبة المراس فهي قليلاً ما تتصدى للصقر أرضاً، وتتميز بسرعتها الشديدة في الطيران، وكثيراً ما تبتعد بالصقر وتغيب به عن نظر صاحبه وتكون سبباً في ضياعه فهي وجلة دائماً حتى في مشيها وتخفيها، حذرة في تحركها، سريعة في طيرانها يصفها شاعر بقوله:

خطـــوى خريـــش مشيهـــا تمرش أمـــارش
ربـــــدا يباريهـــــا كـــبير الدراويـــش
وســط الدعايـــس مخليـــة تلعـــب الداش
يتعـــب مدورهـــا بقـــصّ وتفتيـــش

أما الخرب وهو الكبير أو ذكر الحبارى وهو المقصود دائماً والمرغوب صيده، وهو عادة ما يتصدى للصقر ويخرج من السرب لملاقاته ومبارزته. وقد ذكره الشاعر أبي الطيب المتنبي في إحدى أبياته الشعرية بقوله:

فـــلا تنـــــلك الليالـــــي إن أيديهـــــا
إذا ضربـــــن كسـرن النبـع بالغـــــرب

ولا يعـــــنّ عـــــدواً أنت قاهـــــــره
فإنهـــن يصـــدن الصقـــر بالخـــرب

ويقول شاعر:

اندرّج على الفنجـــال الأشقـــر امزوحنـــا
والخـــرب راعـــي الجـــدر ينتف لبايـــده

ومن ألقابه أيضاً «الحقَّال» لقول أحد الشعراء:

يلطـــم الحقَّـــــال عـــــثر مـــا يداري
ملحـــــم المخـــلاب باليمـــنى الثقيلـــة

ومن أشهر الحبارى شكلاً متوسطة الحجم «الربد» وتعرف باسم «دجاجة البر» أيضاً لقول الشاعر:

مـــن طلعتـــه ماحـــد «توقـــر» وســـاواه
رايحـــه الدنيـــا دجـــاج وحبـــــارى

ويقول الشاعر عبد الله بن نايف بن عون في ديوانه:

فيه الدجـــاج الربـــد والخـــرب دونهـــن
كأنـــه عراقـــي يحـــــوش رفايـــده

المناورة بين الحبارى والصقر

يحبس الشعراء في أبياتهم الشعرية اهتمامنا أمام أهم مشهد في القنص وهي المبارزة بين الحبارى والصقر، في قصة متكاملة البنية أودعوا فيها قبساً من براعتهم الفنية شاحنين عواطفهم بصورة شعرية تتوثب في ضوضاء الحركة وفي الألفاظ المعتقة التي تغذيها الوقائع الحية، ومصورين لنا منازلة طائر الحبارى الصقر أرضاً بطريقة عجيبة وجميلة، حيث إنها تتنكر وتركل الصقر بأرجلها أو تنقره بمنقارها، كما أنها تنزل بثقلها عليها، وإذا أحست بضعفها أمام الصقر وهي المحاولة الأخيرة في المواجهة الأرضية أخرجت سلاحها السائل اللزج الذي تقذفه من بطنها، فتلتصق الأتربة والحشائش على ريش الصقر فتضره، ويصعب على الجناح أن يؤدي دوره فيبقى الصقر عاجزاً عن المطاردة، بعدها تقلع الحبارى هاربة مرتقية وبأقصى سرعتها طبقات الجو، وغالباً ما يتمكن الصقر من اللحاق بها في الجو فتناوره في كل اتجاه، وإذا تمكن منها هوى بها إلى الأرض فينثني عليها ويمسكها حتى يحضر الصياد. وقد نظم الشاعر إبراهيم الفجيجي في كتابه «روضة السلوان» بعض الأبيات الشعرية تصف حال الحبارى عندما يهاجمها الصقر فيقول:

هنـــالك يلقـــي الخـــرب خوفاً سلاحـــه
وهيهـــات ما الســـلاح للخـــرب نافـــــع
ويلجـــــأ لاتٍ حـــين يأويـــه ملجـــأ
فـــلا الأرض تنجيـــه ولا الجـــو مانـــع
وتبصـــره يحكـــي أســـير فـــوارس
يجـــر ذيـــول الذل يعـــثر خانـــع
ذؤابتـــه فـــي كـــف مـــن لا يقيلـــه
يســـاق بهـــا المـــوت وهـــو يـــوادع
وتندبـــه حباريـــات ألفنـــــه
بفيفـــاء مجهـــل وهـــن جـــوازع
يـــردن الفـــرار لـــم يجـــدن سبيلـــه
ويحشرهـــن الخـــوف والخـــوف رادع
نوائح أعـــراب علـــى الطبـــل حلقـــة
يحاجلـــن مجنونـــاً لهـــن تراجـــع
شققـــن جيوبـــاً ثائرات الرؤوس، قـــد
جرحـــن خـــدوداً مـــا لهـــن براقـــع
وصرصـــر فوقهـــن بـــازعرفنـــه
فأطرقـــن هيبـــة وهـــن فواكـــع
وحـــل بهـــن الويـــل منـــه وأصبحـــت
لهـــن جـــوار خربهـــن مصـــارع

كما نقرأ في أبيات الشاعر الفجيجي وهو يتأمل تلك المناورة الجوية بين الصقر والحبارى:

وإلـــى لحقهـــا ردهـــا ردة الحـــاق
وأهـــوى عليهـــا كالنجـــم يوم أخيلـــه
وتعانقـــوا فـــي الجّـــو ياحـــي لعنـــاق
وأقبـــل يدليهـــا بكـــف كفيلـــه
والريـــش لـــه فوق الوسيطـــا تحـــلاق
يبطـــي وهـــو متناثـــر فـــي صليلـــه

ويقول الفجيجي في الحبارى أيضاً وهو في حال اصطياده:

أصيـــد الأراني بالبرانـــي واعتـــني
بصيـــد الحبـــارى ليـــس صيد اليرابـــع
فمـــا ذو جنـــاح كالحبـــارى لقانـــص
وفي الطـــير كالكـــروان مـــا قـــد يصـــارع

كما يصف الشاعر عمير بن عفيشة الهاجري (1890 - 1982)، وهو من شعراء النبط في دولة قطر، حال الحبارى عندما يحاربها الصقر:

فإلـى غـــدن برق الحبـــارى مهـــاريب
فالقـــف لدرجتهـــن ترى القـــف نيشـــان
لا قـــام يرديلك طويـــل العراقـــيب
ومترس بالريـــش لك كنـــه زفـــان
مثل الخـــروف اللي يهـــول على الذيـب
بـــالك تهـاب الخـرب لو كـــان فتـــان
خمـــه وعلـق هامتـــه بالكلالـــيب
وخـل المهـب تروح بالريـــش نـــثران

ويقصد «فإلى غدن» إذا ذهبت طيور الحبارى، وطويل العراقيب: طويل الساقين و«الزفان» الذين يحاربون بالسيف، والخرب: هو ذكر الحبارى. ثم يقول:

يـــوم أبـرق الريـش يزفـن كنـــه مـزاح
كنـــه على الخـرب نقـال الوحـــان
لا مـن ضربهـا وعرقـــى قبـل يلتـاح
لا يرقـــت الريـــش مثـل القحويـاني

ويقصد الشاعر «بالريش يزفن» أي الحبارى كبير الجسم والجناحان، و«كأنه مزاح»: وقت المزح، و«نقال الوحاني»: حين يضمر الصقر الشر بالقتال مع الحبارى، والقحوياني: اسم لأشجار معروفة في الصحراء.

ويصور لنا أحد الشعراء وضع الصقر حين يدافع طائر الحبارى عن نفسه ويطلق المادة اللزجة من بطنة ويقوله:

ولاح لنـــا فـــي الأفـق طـير مشـــرق
عرفنا الحبـارى في جناحيـــه مختـــتي
وأطلـــق قيـد الصقـر يجـري وراءه
فسرعـان ما جـد الهـــروب لمغـــرب
وشـــك على رمـــل وشـال بذيلـــه
فـدار عليـــه الصقـــر دورة لولـــب
تجمـع مذعـــوراً وأنفـــش ريشـــه
وكـذلك دفـــاع اليائـس المتحســـب
وأطلـق نحـو الصقـــر سلحـاً كأنـــه
سهـام توالـت مضربـــا بعـد مضـــرب
دفاعـاً، وخـــوف المـوت أفـرغ بطنـــه
ذهـــولاً، وفي جنحيـه خفقـــة مرعـــب
وشـك عليه الصقـــر كالبـــرق منشبـــا
مخالـب كالمسمـــار غاصـت بمكنـــب

أما الشاعر مانع سعيد العتيبة، أول وزير نفط في دولة الإمارات العربية المتحدة، فيقول وهو يصف صقره المسمى «نواف» ومهارته في صيد الحبارى:

نـــواف شـــاف الصيـــده
يـــوم العـــرب تعـــزاه
هـــد وانطلـــق مـــن قيـــده
ع ومـــا طالـــع لـــي وراه
أو مـا الخـــرب مالـــه حيـــده
أو حتـــى ريشـــه شعـــاه
لـــي هـــد تسمـــع ويـــده
أمـــا مـــا أيـــرد لو تدعـــاه
يـــا ليـــن يلحـــق صيـــده
وينســـر مـــن إحبـــاراه
والحبـــر فيهـــا بيـــده
أتخافـــه وتخشـــاه

ويقصد الشاعر بكملة تعزاه: تظهر النخوة فيه أي الصقر، والخرب: يقصد بها طيور الحبارى، وشعاه: الانتصار على الحبارى ونثر ريشها، وبيده: رمز لصوت الرعد يحدثه الصقر في الانطلاق.

ديار صيد الحبارى

ينتشر طائر الحبارى بمختلف أنواعه حول العالم، ويعد الحبارى العربي من أشهر أنواعها، وهو يقطن في قارة أفريقيا ويتميز بلون شاحب ونوع آخر يميل لونه إلى السواد، أما الحبارى الآسيوية فتتميز باللون الرملي المائل للصفار. وقد شملت الأبيات التالية، وهي لأحد شعراء العرب، في ذكر الحبارى وذكر بعض من ديار الصيد وبيان أهم صفات الصقر الجيد في صيد الحبارى إذ يقول:

بشـــر الجرنـــاس باجـوال الحبـارى
والفـروخ اللي تـــبي تفعـل فعيلـــه
بين سفـح وراس رمـــال الصحـــاري
عند فيـاح الدبدبـــة فيهـــا نفيلـــة
الحبـــارى والعفـــاري والمهـــاري
خنـــس في الوادي الأخضـــر جميلـــه
الحبـــارى فـي سباريـــت البـــراري
منـوة لـي فـي العلامـة مـا ارمـي لـــه
أشقـر راعيـــه بفعولـه يمـــاري
نـادر مـــا شـان وجـه اللي يشيلـــه
صافـي الجوهـر غريـــب في المـــواري
أجـرد مـن فـوق ضافيـــة شليلـــه
مثـــل جـزم لابـس لـه ثوب ســـاري
مسبل السـروال وكراعـــه جليلـــه
بـــارز صـــدره خفيـف الريش عـــاري
والمتـــون اطـوال والعاتـــق طويلـــه
أفدغ راســـه وعينـــه عين ضـــاري
عيـن عـدم واذبحـــوا قدمـــه ادخيلـــه
يلطـــم الحقّـــال عـثر مـا يـــداري
ملحـم المخـــلاب باليمـنى الثقيلـــة
لو تعـــلّا فـــوق يلحقهـــا اجبـــاري
لـــي ضربهـا ريشهـــا حـوّل هليلـــه
فرخ شـــام بالهـــدد مالـــه امبـــاري
من يعنـد اعنـــاده انكـــف بالفشيلـــه
الحـرار اللـــي معـــه مثـــل الوكـــاري
لـي تعشّى مـا اخـذ الحاكـم بديلـــه
كانـــه اللـــي لابـس ثـــوب جـــزاري
وبشـــت أشقـــر والبـــوادل ثقيلـــه
منـــوة اللي قانـــص ديرة هـــواري
فـي البلاطـه وين دربك يـــا دليلـــه؟

* مركز زايد للدراسات والبحوث

الهوامش:

1. فيض البراري، محمد عبد الله الظريف، مطبعة الاتحاد للصحافة والنشر، أبوظبي، 1980.
2. رياضة الصيد بالصقور، زايد بن سلطان آل نهيان، وزارة الإعلام والثقافة، أبوظبي 1977.
3. الصيد بالصقور، قراءة في تراث دولة الإمارات العربية المتحدة، حمدة حمد الشرقي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، 2014.
4. مدونة القنص بالصقر: قراءة في أدبيات «روضة السلوان» لإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي: دراسة أنثروبولوجية مقارنة، الزهرة إبراهيم، محاكاة للنشر والتوزيع، دمشق.
5. لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، بيروت، 1997.
6. ديوان عبد الله بن نايف بن عون، مدارك للنشر والتوزيع، دبي، 2015.

الحبارى.. بين رياضة الملوك وخطر الانقراض

مريم سلطان المزروعي

إن عالم الحبارى له قصة رُسمت وخُطت عبر السنين ونُسجت حوله الأساطير التي كان يقال بأن كبده يحتوي على أحجار ألماسية صغيرة، فهذا الطائر ينطلق عبر السهول والأنهار ويقطع الحدود ويجتازها بحثاً عن آفاق جديدة وملتقى أكبر تتجمع فيها شتى أنواع الطيور والحيوانات، بحثاً عن الدفء والأمان ووفرة الغذاء والظروف المناخية المناسبة، طائر عدّاء سريع جداً وجميل لونه بني من الأعلى وأبيض من الأسفل، مع شريط أسود أسفل جانبي العنق تظهر الأجنحة أثناء الطيران مناطق كبيرة سوداء وبنية على ريشه، الأنثى أصغر حجماً وأكثر رمادية من الأعلى مقارنة بالذكر.

الحبارى من الطيور المهاجرة التي تهاجر من المناطق الباردة إلى المناطق الصحراوية والبراري ذات الطقس الدافئ، فهي تقضي شتاؤها على بعد آلاف الأميال من مواطن تكاثرها، ففي كل عام هناك فترات يُطلق عليها «دورة التكاثر» التي يمر بها طائر الحبارى تبدأ بفترة التزواج ووضع البيض وتربية الفراخ، وهي فترة التكاثر بسلام لإنتاج أعداد كبيرة من الفراخ، بعدها تأتي الشهور التي يضع الحبارى بيوضه في شهر مارس وإبريل، بينما هناك فترات يُمنع فيها صيد الحبارى تبدأ من شهر مايو إلى شهر سبتمبر، ومن شهر أكتوبر حتى شهر فبراير تكون هذه الفترات فيها نوع من الرقابة على صيده؛ بحيث يكون الصيد تحت الرقابة والمتابعة للمحافظة عليه من الانقراض والصيد الجائر.

يعتبر صيد الحبارى «رياضة الملوك» فلقد ارتبط اسمها ارتباطاً قوياً بمهنة القنص التي يمارسها الملوك والخلفاء والأمراء وذلك لأسباب عدة أهمها: إن مهنة القنص هواية لمن يمتلكون الصقور المدربة على صيد طائر الحبارى، وكذلك يمتلكون كلاب (السلوقي) المدربة على القنص فطريقة صيده تكون مشتركة ما بين الطير الجارح بأنواعه العديدة

يعتبر صيد الحبارى «رياضة الملوك» فلقد ارتبط اسمها ارتباطاً قوياً بمهنة القنص التي يمارسها الملوك والخلفاء والأمراء وذلك لأسباب عدة أهمها: إن مهنة القنص هواية لمن يمتلكون الصقور المدربة على صيد طائر الحبارى، وكذلك يمتلكون كلاب (السلوقي) المدربة على القنص فطريقة صيده تكون مشتركة ما بين الطير الجارح بأنواعه العديدة منها على سبيل المثال لا الحصر: القرموشة والوكري والحر والشاهين،.. إلخ. والصقّار المدرب نفسه، الذي يجيد التعامل مع الصقر؛ لمتابعة طير الحبارى بمهنية، يطير الصقر من يد الصقّار باحثاً عن طيور الحبارى، وما إن يرى طير الحبارى حتى يضربه بجناحيه على رأسه وعينيه كي لا يستطيع الطيران ويصاب بالعمى، وهنا يأتي دور الكلب الذي يحمله ما بين فكيه إلى صاحبه القناص المدرب بحكنة وذكاء. وفي قصيدة للمغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان يصف فيها الطير القناص:

يا طـــــير وضبتـــك بتدريـــب
ابغي أصـــــــاوع بك هـــــدادي

لـــــي طـــارن (الربـــد) المهاربـــب
لـــي ذايـــرت مـــن العـــــوادي
إلقـــف لهـــــن عساك ما تخـــيب
وأقصـــد لقايـــــدهم عنـــــادي
خمـــــه راســـــه خمـت الذيـــــب
وعليـــــك مـــا ظنيـــــه بـــــادي

توجد طيور الحبارى بكثرة في براري إيران وباكستان وأفغانستان وموريتانيا وأذربيجان والمملكة المغربيه، يذكر الراوي محمد علي النايلي الشامسي، في **كتاب «ذاكرتهم تاريخنا»**، أن الشيخ زايداً - طيّب الله ثراه - كان يقنص في الربع الخالي، وقد يذهب إلى هناك سنوياً أو كل سنتين، وعندما يذهب يبيت في سيح يسمى «قراعي»، كان به شجرة سلمة (شجرة معمرة كثيرة الفروع، ولها أشواك طويلة حادة كالإبر).

لقد مارس المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان هذه الهواية وأصبحت هوايته المفضلة، وكان يذهب في رحلات القنص داخل الدولة وتستغرق من شهرين إلى ثلاثة أشهر، وهذه الرياضة تمتاز بأنها رياضة جماعية تساعد على نشوء الألفة والتعاون والانسجام بين المجموعة، وقد وُجدت في بيئة الإمارات أنواع من الطرائد التي يصيدها الطير الجارح منها: (الحبارى والقطا والكروان والغزال والأرنب البري وبعض من أنواع الطيور).

وحرصت دولة الإمارات العربية المتحدة على حماية طائر الحبارى من الانقراض بعمل محميات لتكاثره وتناسله وحمايته من الانقراض. في كتاب

«استراتيجية عالمية للمحافظة على الصقور وطيور الحبارى

- سعادة محمد البواردي وآخرون» قال: (إن وصول الحبارى إلى دولة الإمارات العربية المتحدة حدثاً ينتظره السكان بفارغ الصبر منذ مئات السنين، وكان على الصيادين وصقورهم استخدام مهاراتهم التقليدية لتعقب طائر الحبارى الخجول خلال أشهر الشتاء، وفي الوقت الحالي فإن أعداد الحبارى التي تزور الدولة في تناقص متزايد ما يستدعي تقصي أسباب تناقص أعدادها وكيفية الحد منه قبل أن تتعرض للإنقراض في دولة الإمارات العربية المتحدة، لذلك فالبحوث الميدانية على الحبارى في دولة الإمارات تعتمد على تقييم وتحديد مناطق انتشار ووجود طائر الحبارى في جميع أنحاء الدولة، وكذلك مراقبة مجموعات الحبارى التي تقضي الشتاء في دولة الإمارات بهدف تقييم التغييرات في أعدادها وتكوين مجموعات من المراقبين لمتابعة أعداد الحبارى في مختلف أرجاء الدولة، بعدها يتم تحديد مؤشرات التغيير في أعداد الحبارى ومدى توفّر بيئات لها في دولة الإمارات العربية المتحدة وإجراء بحوث بهدف دراسة العديد من التغييرات، مثل: البيئات المناسبة لحياة الحبارى والنظام الغذائي ودراسات وراثية لتحديد أنواع الحبارى التي تأتي لقضاء الشتاء وأوقات وصول الحبارى ومغادرتها وأعداد الحبارى وتوزيعها الجغرافي في الدولة وبالتالي إقامة مناطق محمية للحبارى (مناطق صيد محلية) لحمايتها وتوفير البيئة المناسبة لتكاثرها واستيطانها وزيادة أعدادها ■

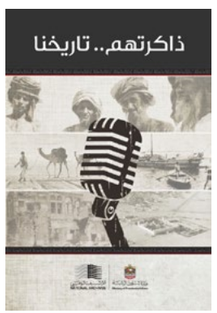

* كاتبة وباحثة من الإمارات

الحبارى في مختارات شعرية نبطية

فاطمة مسعود المنصوري

ترتبط طيور الحبارى ارتباطاً وثيقاً بتراث وتاريخ أهل الإمارات، باعتبارها تشكل أهم الطرائد في القنص والصيد بالصقور، هذا الضرب من الممارسة الذي عرفته المنطقة منذ تاريخ قديم، فالقنص بالصقور كان يمثل أحد أهم أشكال الصيد خاصة في توفير الطعام والغذاء لأهل المنطقة، وقد تغير مفهوم الصقارة في الوقت الحالي مع تغير معطيات الزمن فأصبح اليوم من الرياضات التقليدية التي تحظى بدعم رسمي وشعبي كبير في الدولة.

ومع اهتمام الدولة برياضة القنص، برز كذلك اهتمامها بطائر الحبارى الذي يشكل عنصراً رئيسياً في رياضة الصيد بالصقور. وبالرجوع إلى الأدب الشعبي الإماراتي خاصة الجانب المتعلق بالشعر النبطي نلاحظ أن الحبارى شكل مادة غنية للشعراء، ومن هذا المنطلق أولى نادي تراث الإمارات توثيق طائر الحبارى اهتماماً خاصاً باعتباره رمزاً أصيلاً في التراث الإماراتي ويتبين ذلك جلياً من خلال دواوين الشعر النبطي التي أصدرها النادي لكبار شعراء النبط في المنطقة وهي كثيرة وعديدة إلا إننا في هذا المقال سنورد نماذج من تلك الأبيات التي رسمت جزءاً من مشاهد القنص لاسيما مشهد المبارزة بين الصقر والحبارى، وصورة الصحراء التي يرتع فيها الحبارى ويتمناها كل قنيّص عند حلول موسم القنص، وصور الحبارى وهي تختبئ عن أعين الصقر، ونلاحظ رغم تنوع تلك الصور إلا أنه يجمعها موضوع القنص الذي تفوق على جميع الأساليب الشعرية الأخرى.

فديوان بن مساعد على سبيل المثال للشاعر عيد بن أحمد بن مساعد (من إصدارات نادي تراث الإمارات، 2010)، نلاحظ أن الشاعر ذكر طائر الحبارى في العديد من قصائده لاسيما تلك القصائد المتعلقة بالقنص، فمنها على سبيل المثال القصيدة المعنونة بـ (شلة محمد كاسب المدح والكار)، ويتذكر القنص متمنياً أن يذهب إلى القنص مع الشيخ محمد بن بطي آل حامد، ويأتي الشاعر على ذكر طائر الحبارى في أحد الأبيات بقوله:

لـــي قرنـــس القرنـــاس والفرخ قـــد دار
يابـــوه من فـــارس اقـــروم مناعـــير
محـــلا شقـــاره بـــين ربـــات لوكـــار
أشقـــر ذهابـــي مـــا قنـــوه الصقاقـــير
عيل ارمعانـــه يلحـــق الخـــرب لي طـــار
وايصخـــره فـــي لجـــة الجـــو تصخـــير
فـــي الطـــرد لحـــاق وفـــي القـــاع جـــزّار
يـــازين تطلعيـــه مـــن الصبـــح واعصـــير
اطلـــع وفـــك السبـــق راعيـــه محتـــار
شـــاف الحبـــاري داريـــات ومخامـــير

يأتي الشاعر في الأبيات الأولى على مدح ووصف الصقر، فالصقر يعتبر من أهم الطيور وأحبها إلى قلوب الشعراء نظراً لجماله وشجاعته، ثم يأتي على صفات هذا الصقر وهي السرعة والقوة، ثم يربط بين سرعة هذا الصقر وبين الخرب وهي ذكر الحبارى، فالطير ينقض على طريدته وهي الخرب، وهي محلقة في الجو، ثم يكمل الشاعر وصف شجاعة هذا الطير أو الصقر فهو سريع في الجو، ومفترس على الأرض وهذا ما يبينه البيت الثالث عندما يقول في القاع جزار أي يفتك بها.

ثم يأتي الشاعر في البيت الأخير على وصف الحبارى بأنها مخامير، والحبارى المخامير هي الحبارى المتخفية فالحبر عندما تشعر بالخطر يحدق بها تتخذ من الأرض موقعاً لها حتى يزول الخطر.

وفي قصيدة أخرى للشاعر نفسه، بعنوان (نسرح من العين فويا الربع الحشامي)، يتذكر الشاعر في هذه الأبيات المختارة من قصيدة طويلة، رحلات القنص ورفقة الأخيار من الرجال ويقول:

يـــازين لـــي من بنينـــا ذيك لخيامـــي
في خايع قفـــر فيـــه اخطـــور وسميّـــه
فيـــه الجـــوازي تقص ايـــداد واقدامـــي
والصيـــد فيهـــا تشوفـــه شوف وثريّـــه
لي من سرحنـــا ويـــا التوفيـــق بصدامـــي
فـــي قافـــرٍ مـــا بعـــد ذارت حباريّـــه

نلاحظ أن الشاعر يصف الدار أو الأرض الخاصة بالقنص ويصفها بأنها خايع قفر والخايع والقفر هو المكان الخالي إلا من آثار الوسم، والوسم أو الوسمي هي بداية موسم الأمطار وتأتي مع منتصف شهر أكتوبر، وفي هذه الأرض كذلك يصف الشاعر آثار الجوازي وهي نوع من الغزلان، ويأتي كذلك على وصف طائر الحبارى، فالحبارى في هذه الأرض تطير وتمشي بحرية وبدون خوف، وهذا ما تفسره مفردة (ما بعد ذارت) في الشطر الثاني من البيت الثالث، أي الحبارى لم تختبئ فهي لم تشعر بأي خطر يحدق بها. أما في ديوان الرقراقي، للشاعر محمد بن سعد بالرقراقي المزروعي (الصادر عن نادي تراث الإمارات، 2010) ، نلاحظ أن الشاعر جاء على وصف طائر الحبارى في العديد من قصائده الشعرية لاسيما تلك القصائد التي توثق لرحلات القنص، وهو لم يختلف كثيراً عن أسلوب الشاعر عيد بن مساعد، ففي إحدى قصائده المعنونة بـ (سهيل طاف وقرّب الوسم والطير) يقول:

هواتـــي شلّـــة لحـــوق المـــدابير
اللّـــي طارت هـــروبٍ نكسهـــا
تطيـــح لو مـــا ناشهـــا منه تثويـــر
هبـــاب مـــا مـــن صيـــدة ما لمسهـــا
حرٍ ايزرّ داغـــر الخـــرب تيزيـــر
شرحٍ شنـــوع بصيدتـــه لي كبسهـــا

نلاحظ في البيت الثالث الشاعر يمعن في وصف طريقة افتراس الطير للحبارى وذلك بقوله «حر ايزر داغر الخرب تيزير»، أي عندما ينقض الصقر على الحبارى فأول ضربة تكون في ظهرها (داغر)، وقد شبه الشاعر ضربة الطير بالجزار.

أما في ديوان الدرمكي للشاعر محمد بن سلطان الدرمكي (الصادر عن نادي تراث الإمارات، 2019)، نلاحظ أن الشاعر الدرمكي أمعن في وصف الحبارى وذلك من خلال قصائده في مجال الطيور والمقانيص والتي شكلت جزءاً مهماً من مسيرته الشعرية باعتباره كان أحد المرافقين الدائمين للشيخ زايد في رحلات القنص في المناطق الداخلية أو في خارج الدولة.

ففي إحدى قصائده المعنونة بـ (حان المشام)، يصف الأرض الخاصة بالقنص بأنها مكتسية بالعشوب وتعتبر مقر للربد (أنثى الحبارى)، ويقول في ذلك:

نشتـــاق لـــي قلتـــوا ترى غاية المنشار
جـــدوى ترابٍ تزخرف بالعشـــب لونـــه
وطحتوا شعـــاب تكتـــسي بالعشـــوب
خضار وفيهن مقرّ الربد ربعك يقصونه

وفي قصيدة أخرى بعنوان (زعيمنا)، يصف فيها الشاعر الدرمكي رحلة المقناص مع الشيخ زايد ويقول:

زعمينـــا يا فخـــرنا الشيـــخ زايـــد
بوجـــودك المقنـــاص توّه بمبـــداه
ومخوتـــك يا شيـــخ راس الفوايـــد
يا ذخرنـــا وانتـــه لنـــا العز مرســـاه

إلى أن يصل إلى مدح طيور الشيخ زايد ولاسيما طيره «فرحان» الذي يتميز بالشجاعة والقوة والسرعة، ويصف من خلال الأبيات الحبر بالعنايد، ويقول:

وفي طيوركـــم بمـــدح وعنـــدي وكايـــد
والشـــاهد الثانـــي «بن مغـــيره» عـــزّاه
«فرحـــان» له يا شيـــخ سابج عوايـــد
معـــوّد وعـــاد السيـــل في سير مجـــراه
هـــدّوه لـــي طارن الربـــد الشرايـــد
ولاظن عنـــد الهـــدد «فرحان» تنســـاه
إن هـــدّ لحـــق اللّولات العنـــايد
والفخـــر للّي ينقلـــه فـــوق يمنـــاه ■

* مركز زايد للدراسات والبحوث

الحبارى أحد مفاتيح السيرة البريّة

محمد نجيب قدورة

حكاية من الذاكرة

كان خالي يحكي لنا عن رحلات صيد الحبارى في منطقة (الأزرق) الأردنية، وفي وصفه لعملية الصيد كان تركيزه على دور الصقر والصقّار في الاصطياد، وعندما جاء إلى أبوظبي في الإمارات، عاد يحدث من حوله عن ذكريات مرّ عليها ربع قرن، لكن لم يغب عن باله متابعة رحلات شيوخ الإمارات واهتمامهم بالوصول إلى مستقر الحبارى بعد عناء ومشقة بما في ذلك الرحلات إلى الصحارى الباكستانية وربما المغربية.

أجل امتدح خالي قرار المرحوم الشيخ زايد - رحمه الله وطيّب الله ثراه - بأن الصيد بالصقور فيه توازن بيئي بعكس الصيد بالبنادق التي تنفر وتهلك الأخضر واليابس، مما سيستدعي تأسيس المحميات الطبيعية. سألت خالي عندما كنت في عمّان عام 1990 عن أسباب وعلة المغامرة في صيد الحبارى، فقال: هي رياضة عربية قديمة، وفي لحوم الحبارى فوائد لا تحصى، حتى إن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يحب أكل لحوم الحبارى على عكس كراهته لأكل لحوم الإبل مع أنها حلال، وعلة ذلك علمياً أن لحم الإبل شديد التأثير على الأعصاب حيث يهيجها. وربما لهذا كانت الوصية بالوضوء بعد أكل لحم الإبل، أما لحم الحبارى فهو مرغوب مطلوب عند الصقّارين.. والأمراء وهواة الصيد البري.

الحبارى تلك الطيور الخجولة

أقول لا عجب .. فهذا الطائر الصحراوي بلونه البني الفاتح المائل إلى الرمادي له ما له من السوالف والحكايات عن طائر خجول قليل الصوت قادر على التخفي والتمويه حتى في بيضه المتكيّف مع طبيعة المكان. أجل ذلك الطائر العجيب في الشتاء والربيع مائدة يخبّرويفرح بها السعداء عادة، لكن بعض البيئات في مواسم الصيد لهم طرق بدائية في صيدها سواء بالأفخاخ أو باستخدام كلاب الصيد المدربة على الكمائن والجري السريع، أو الشباك، وقد يوصف الحبارى بالطائر الشبيه بالإوزة شكلاً طويل العنق جسماً، ناهيك عن المنقار اللاقط للحبوب والسحالي والنمال والأزهار البرية... وما دمنا قلنا إنه طائر صحراوي فهذا يعني أنه نادر شرب الماء.

أجل ذلك الطائر المتميز في رقصته الاحتفالية في مراسم زواجه ... حيث انتفاخ الريش في الرقبة وخصلات بيض من الأرياش والعرس بعيد عن الأنظار ثم نرى دجاجة الحبارى ترقد على بيوضها ما بين 21 - 25 يوماً لتفقس صيصاناً تدربها الأمهات على الجري السريع ربثما تصل الى حدّ الطيران ..

أجل ما هذه الزينة وما هذا التنميق! وأنت ترى جمال الخلق والصورة في الحبارة المفردة الجارية وفي الأسراب الطائرة.

أقول: لا عجب إن كان صيد الحبارى مفضلاً لدى الأثرياء لأنه يحتاج إلى آليات وتدريبات قد تصل إلى الملاحقة بالسيارات والطائرات ثم انقضاض الصقور وغنيمة اللحم الشهي الثمين.

المركز الوطني لبحوث الطيور

كلنا عرفنا أصالة المرحوم الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - في اهتمامه بالبيئة حتى عرف (برجل الأرض) ثم كان دور صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد بالصقارة والمحافظة على الطيور الجارحة، فهو الرئيس الفخري للاتحاد العالمي للصقارة... وهذا الاهتمام يقابله ما تقوم به منظمة الأمم المتحدة لحماية التراث الفطري البري، فتعترف بأن الحبارى تراث إنساني يجب المحافظة عليه ومنعه من الانقراض، حدث هذا في الإمارات حيث نرى برنامج أبوظبي في (الظفرة) لاستعادة طيور الحبارى إلى مستويات مستدامة في الإنتاج والإطلاق والانتشار في بيئة صحية بعيداً عن مشقة الأسفار إلى صحارى باكستان أو سواها بتكاليف باهظة ومسؤوليات اجتماعية واقتصادية قد تصل إلى حد الخلاف مع الدول، خاصة إذا عرفنا أن رحلات الصيد تكون في مساحات شاسعة قد تتجاوز حدود الرياضة إلى المفاخرة بحجم الكنز اللحمي المرغوب فيه كغذاء ومقوٍ و(مبرتن) والناتج في نهاية المطاف ترسيخ علم البيزرة العربية القديم وإعادة تأهيل مخلوقات صحاري العالم وسهولها الحصوية.

عودة إلى الحياة

من هنا كانت العودة إلى الحياة تحتاج إلى مزارع ذات تصريف صحي وأرض حصوية تُراعى للاهتمام بهذا الطائر الذي يعمر إلى عشر سنوات وأكثر بقليل، هي مدة تكفي لإكثارها فالحبارى طيور بياضة لأكثر من مرّه ما يجعل الثروة التي تسعى لها الإمارات ذات دخل قومي مادي ودخل بيئي يحافظ على استمرار هذه الطيور التي تطلق منها أعداداً كبيرة تستقر في موائلها الطبيعية، وهذا ما حقق سعادة للاتحاد الدولي لحماية البيئة الفطرية. إنها عملية باذخة لها معناها في دورة الحياة، تتطور وسائل الصيد، فيمتزج

التراث مع عصر التكنولوجيا في اصطياد الحبارى من جهة وفي أساليب الحماية والرعاية من جهة أخرى لكي تستقيم المعادلة في وجود الكائنات.

من الشعر والموروث العربي في الحبارى:

يقول الشيخ زايد - رحمه الله - في معانٍ رمزية تربوية فيها أنسنة الفكرة:

يـــا طـــير وضبتـــــــك بتدريـــب
أبغـــــي أصـــاوع بـــــك هـــدادي
لـــــي طـــارن (الربـــــد) المهاربـــــب
لـــــي ذايـــــرات مـــــن العـــوادي
إلقف لهـــــن عســـاك مـــا تخـــــيب
واقصـــــد لقايدهـــــــم عنـــــادي
خمـــــه براســـه خمـــــة الذيـــــب
وعليـــــك مـــا ظنيـــــت بـــــادي
وخـــل الهبـــوب تـــــروح وتـــييب
ريش شعيـــــع عقـــب المصـــادي
واللي سبـــــق طـــــيره بـــلا طـــــيب
بيتـــــم بحزنـــــه ينـــــادي
عنـــــد اخويانـــــا والأصاحـــــيب
كلـــــن بخـــبره بايســـــادي
وإن مـــا ضـــوى ودولـــه الجـــيب
تزهـــاب والطبخـــه عنـــــادي

(بيان) - المدح للصقر- الإطلاق إلى الحبارى التي تخاف من دبيب النمل فتفزع الحبارى -

(الربد) - هي الحبارى المتوسطة الحجم - (ذايرات) متخوفات فازعات.

كما قال شاعر من تراثنا الشعبي ممجداً قيمة المجهود في الصيد من قِبل الصقر المنقض والصقّار المدرب:

والطـــــيب عند الطـيب كـاش وتجـــاري
ومـا يغلـــــى علـى اهلـــه لو يطلبونـــه

حتى في الشعر العربي القديم يقول الشاعر الكميت في تصويره الشعري لمعركة بين الصقر والحبارى:

وعيـد الحبـــاري من بعيـــد تنفشـــت
لأزرق مغلـــــول الأظـــــافير بالخضـــب

ومن بعض أقوال الكتاب اختارت:

1 - من كتاب (الحيوان) يقول الجاحظ: الحباري طائر حسن وقد يتخذ في الدور، وقريش يستطيبون محسيّ الحباري جداً، وهو من أشدّ الطيور طيراناً. (فصل الطيور).

2 - من كتاب: (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري، نقلاً عن ذخائر التراث العربي، نشر معهد الشارقة للتراث ص 172 - 173 - 2021م، يقول في سياق آخر: باب الطيور(حبارى) يضرب به المثل في البلاهة، يقال كل أنثى ترى ولدها حتى الحبارى، والمعنى أن الحبارى إذا رأت بيض طائر آخر احتضنته، وتترك بيض نفسها، وفيها مثل آخر الحباري (سُلاحها سِلاحها) ففي الدفاع عن نفسها أمام الصقور (تذرق) فيبقى الصقر كالمكتوف المقيد، وفيها المثل في الحسد أيضاً: مات فلان كمد الحبارى، حيث يستوحى أن الحبارى إن ماتت فجأة تموت لأنها رأت ريش غيرها ينبت قبل ريشها.

3 - أما الطبيب ابن البيطار، فيضيء على جوانب طبية في شحم الحبارى المجفف مع الملح والحمص، وأن قانصة الحبارى في خلطة ما ... تزيل النمش وإزالة ماء العين والمنع من النوم ووقف الرعاف وكثير من المنافع في أكل لحوم الحبارى واحتساء مرقه، ناهيك عن كبده الكنز الذي وصفه بعض الباحثين أنه أغلى من الكافيار، وعندي أنه رمز السعادة والجمال حيث أوردته في شعري الفصيح والشعبي.

الشعبي:

يـــا لحبـــارى والعيـــــون المهـــا
ابرقـــي فـــي مرايـــة الذكريـــات
بصّريـــني بفكـــرك المشتهـــــى
كيـــف أكون الصقـر طـول الحيـــاة

أما الفصيح:

وأذكـــركـم أبصرتـــني الحبـــــارى
فلـــم تخـش منـي ولـــم تتهمـــــني
وأذكـرفـــي صيدهـــا أن روحـــي
تخـــاف عليهـــا فتكشـف حزنـــي
أهـذا الجمـــال وهـــذا الحـــنين
يحيّرنـــي كيـــف أهـرب مـــــني ■

* أديب وباحث سوري

من كتاب (الحيوان) يقول الجاحظ: الحباري طائر حسن وقد يتخذ في الدور، وقريش يستطيبون محسيّ الحباري جداً، وهو من أشدّ الطيور طيراناً. (فصل الطيور)

طريق السلامة

رحلة طيور الحبارى الشتوية إلى الإمارات العربية المتحدة

صديق جوهر

يُعتقد أن أعداد الحبارى تتناقص على امتداد النطاق الذي تنتشر فيه هذه الطيور بسبب العديد من العوامل، مثل: الرعي الجائر، والصيد الجائر، والفخاخ، والتنمية الزراعية، والتدخلات البشرية المستمرة. وقد أشارت الدراسات الميدانية إلى تقلص أعداد طيور الحبارى بشكل ملحوظ في أواخر القرن العشرين. وتم تصنيف الحبارى على أنها طيور «على شفا الانقراض» في جميع أنحاء العالم وفقاً لبحوث أُجريت في الفترة من تسعينيات القرن المنصرم حتى عام 2004 بسبب متغيرات التضاريس والتربة والغطاء النباتي وتأثير الإنسان. تسكن الحبارى في جزر الكناري كما تسكن البيئات ذات الصلة بالنطاق الجغرافي الممتد من شرق أفريقيا إلى هضاب آسيا الوسطى وسهولها والصين، وتتطلب متابعة حياة طيور الحبارى والحفاظ عليها معرفة مواطنها وموائلها وهذه المسألة ذات صلة كبيرة بحفظ الأنواع المهددة بالانقراض في جميع أنحاء العالم. وتُظهر الدراسات انخفاضاً في أعداد طيور الحبارى في قارة آسيا على وجه الخصوص حسب دراسة أجريت عام 2005. أما في أرخبيل الكناري فقد أصبحت طيور الحبارى ضمن الفئات «المهددة بالانقراض» وفقاً لدراسة أجريت في عام 2006.

هجرة الحبارى إلى أرض التسامح

والجدير بالذكر أن طائر الحبارى زائر شتوي يهاجر بانتظام من مناطق التكاثر الشمالية إلى الإمارات العربية المتحدة ولكن البيانات والمعلومات عن طرق الهجرة وأصل هذه الطيور لا تزال ضبابية وغير واضحة وضوحاً تاماً رغم المعلومات التي سنسردها لاحقاً. تتراوح المسافات الإجمالية التي تقطعها طيور الحبارى في رحلتها ما بين (747) و(11938) كيلومتراً. وبينما تقضي الحبارى الشتاء في الإمارات فإنها تُمضي شهور الصيف في مناطق مختلفة من الصين وكازاخستان وأوزبكستان وشمال أفغانستان. وغالباً ما تصل الطيور المهاجرة إلى الإمارات في شهري سبتمبر وأكتوبر من كل عام وبعد قضاء شهور الشتاء تبدأ في الهجرة مرة أخرى في الفترة من فبراير إلى مارس (في العام الجديد) حسب دراسة أجراها (لوناي وآخرون) في عام 1997. تاريخياً يعتبر الحبارى طائراً مهماً في شبه الجزيرة العربية ولا يزال الطريدة الرئيسية

للصقّارين العرب. ولكن في دولة الإمارات العربية المتحدة توجد شبكة ممتدة من حراس الصحراء الذين يرصدون وجود هذه الطيور من أجل الحفاظ عليها. وعلى الرغم من ارتفاع مستوى الحفاظ على الحبارى في الإمارات، فإن هناك ندرة في البيانات حول أعدادها الفعلية وآليات هجرتها حسب دراسة (كولار) في عام 1996. وبالنسبة إلى تقديرات أعداد هذه الطيور يرى الباحث (أوزبورن) أنها في أحسن الأحوال مجرد تخمينات بسبب صعوبات الحصول على تقييم دقيق، ولكن على الرغم من ذلك فإن الإمارات قد لعبت دوراً مهماً في الحفاظ على هذه الطيور المهددة بالانقراض كما سنوضح أدناه. ولأسباب تتعلق بالصيد الجائر فقد شعرت الإمارات بشكل متزايد بالقلق على مستقبل الحبارى خاصة أن مناطق في الاتحاد السوفييتي السابق قد أصبحت متاحة للصيد من قِبل أطراف أجنبية لا ترحم ولا تقيم لقضايا الحفاظ على البيئة وزناً. ولذلك بدأت الإمارات في بذل جهود مكثفة في السنوات الماضية وفي إقامة مشروعات عملاقة في محاولة لاستعادة أعداد الحبارى والحفاظ عليها في الإمارات. تشمل هذه المشاريع برامج التربية في الأسر وإعادة التوطين لطيور الحبارى مع حماية موائلها ومواطنها. ووفقاً لأحدث البحوث فإن أعداد طيور الحبارى التي تقيم وتتكاثر في شبه الجزيرة العربية محدودة للغاية ويقتصر وجودها على منطقة في شمال المملكة العربية السعودية ومنطقة أخرى في سلطنة عُمان وربما بعض المناطق في اليمن، في حين أن معظم الطيور في المنطقة مهاجرة من أماكن التكاثر الشمالية خارج الجزيرة العربية. أما الموطن الأصلي لطيور الحبارى التي تأتي في فصل الشتاء إلى شبه الجزيرة العربية فهو غير معروف ولكن في الإمارات

المركز الوطني لبحوث الطيور في أبوظبي

العربية المتحدة يُعتقد أنها تأتي من إيران أو بلدان آسيا الوسطى حسب دراسة (هندرسون). علاوة على ذلك رأى الباحث أوزبورن وجود ست مجموعات من طيور الحبارى تهاجر إلى الإمارات من مناطق شملت بلدان الشرق الأوسط، وشرق شبه الجزيرة العربية، وإيران، وباكستان، ومناطق آسيا الوسطى، والهضبة والسهوب المنغولية. وتعد المعرفة بهذا الجانب من بيولوجيا الحبارى أمراً ضرورياً حسب تصور الباحث سالف الذكر خاصة بعدما تم إطلاق الطيور الآتية من باكستان في المملكة العربية السعودية وإمكانية إطلاق الطيور الآتية من كازاخستان في الإمارات. بالإضافة إلى ما سبق فإذا كان التعامل المستدام مع طيور الحبارى هو جزء من اتفاقية عامة بموجب اتفاقية (بون) ذات الصلة فيجب النظر بعناية إلى طرق الهجرة والمَواطِن الرئيسية التي تتوقف فيها مجموعات طيور الحبارى المهاجرة. ولقد أدت هذه المخاوف بالمركز الوطني لبحوث الطيور في أبوظبي إلى الشروع في إجراء دراسات واسعة النطاق عن هجرة

الحبارى الشتوية إلى الإمارات العربية المتحدة من مناطق تكاثر مختلفة في آسيا الوسطى والصين ومن ثم نزوحها عن البلاد مع انتهاء موسم الشتاء. في الدراسات التي أجراها المركز الوطني لبحوث الطيور في أبوظبي على الطيور المهاجرة تمت الاستعانة بالأطباء البيطريين وعلماء الأحياء والصقّارين المدربين والصقور التي وصفت بأنها (منزوعة السلاح) وبعدما تم الإمساك بالطيور في المنطقة الغربية كشفت الفحوصات أن طيور الحبارى التي تم اصطيادها لم تُصب بأذى أثناء الأسر. في أعقاب ذلك أُخذت القياسات وعينات الدم وتم تركيب أجهزة الإرسال والتعقب وبالتالي أُطلق سراح جميع الطيور في وقت لاحق من مواقع الأسر. وحسب البيانات الواردة من أجهزة التعقب فقد أمضت جميع الحبارى التي تم صيدها في المنطقة الغربية لإمارة أبوظبي الصيف في مناطق متعددة من بينها الصين (شمال بحيرة نور)، وكازاخستان (صحراء كيزيل كوم وشمال بحر آرال)، وأوزبكستان (جنوب بحر آرال)، وشمال أفغانستان، والساحل الإيراني للخليج العربي، وشرق إيران، وغرب أفغانستان. وقد لوحظ أن الوقت الذي يقضيه طائر الحبارى في هجرة العودة أطول بكثير من الوقت الذي يقضيه في الهجرة إلى الإمارات. لقد أثبتت الدراسات عموماً أن غالبية طيور الحبارى المهاجرة إلى الإمارات في الشتاء تأتي من آسيا الوسطى (كازاخستان، وأوزبكستان، وأفغانستان) والصين وهي مناطق تكاثر صيفية مهمة. ومع ذلك تأتي طيور قليلة للغاية من أماكن غير محددة في شبه الجزيرة العربية. وكذلك أثبتت البحوث أن الحبارى في رحلة العودة تعبر جميع الطرق التي اتبعتها الطيور عند هجرتها إلى الإمارات إبان فصل الشتاء مع محطات توقف عدة مهمة خاصة على الحدود الإيرانية - الأفغانية. وتشكل الحدود الإيرانية - الأفغانية طريق هجرة رئيسياً للطيور الشتوية الآتية إلى الإمارات، ولا سيما طيور الحبارى التي تكاثرت في الجزء الشرقي من كازاخستان. وللأسف الشديد فقد استضافت إيران في الآونة الأخيرة مجموعات كبيرة العدد من صيادي الحبارى. علاوة على ذلك ثمة تقارير تشير إلى أن الحبارى يتم اصطيادها الآن بشكل جائر في جنوب أفغانستان وتتم عمليات القنص على قدم وساق دون تدخل من المسؤولين. وعلى الرغم من الجهود التي تبذلها الإمارات في سعيها للحفاظ على طيور الحبارى من الانقراض، فإنه لا توجد تدابير فعالة واسعة النطاق للحفاظ عليها في الدول الأخرى، علاوة على قلة عدد الدراسات الميدانية التي يتم إجراؤها على الأنواع المختلفة من الحبارى والتركيز على التربية في الأسر في معظم الأحوال. من ناحية أخرى ثمة نقص في المعلومات البيولوجية المستندة إلى دراسات علمية عن أعداد الحبارى في موائلها البرية مما يحول دون اتخاذ تدابير سليمة وموضوعية للحفاظ على هذا الطائر تنفيذاً للاتفاقيات الدولية ذات الصلة. لذلك يتطلب الأمر على وجه السرعة زيادة التركيز على الدراسات الميدانية التي تُجرى على الطيور في مرابعها البرية، علاوة على التعاون الدولي، خاصة أن السلالات الآسيوية من الحبارى تهاجر لمسافات طويلة وتتوقف في دول مختلفة ومتباعدة جغرافياً أثناء غدوها ورواحها خاصة في الإمارات وشبه الجزيرة العربية وتتكاثر في أماكن بعيدة مثل الصين. لذلك سوف يعتمد الأسلوب الناجح في الحفاظ على طائر الحبارى على الجهود المتضافرة والمشتركة من قِبل دول عديدة، مثل: دول آسيا الوسطى والصين ودول الخليج العربي ■

أكاديمي وناقد - خبير الترجمة في الأرشيف والمكتبة الوطنية

الإمارات رحلة مستدامة في الحفاظ على الحبارى

فاطمة سلطان المزروعي

سعت دولة الإمارات العربية المتحدة إلى الحفاظ والاهتمام بالحبارى وتبوأت مكانة عظيمة في هذا المجال على مستوى العالم، ويشهد لها اليوم الكثير من المشروعات والمحميات التي قامت بها لحمايتها من الانقراض، إذ تُعَدُّ الحبارى العربية من الطيور التي تحب الصقور اصطيادها، وينتظر السكان وصولها بفارغ الصبر منذ مئات السنين وكان على الصيادين وصقورهم استخدام مهارتهم التقليدية لتعقب طائر الحبارى خلال أشهر الشتاء، ويبلغ طول طائر الحبارى 70 سنتيمتراً، ويأتي ريشها مرقطاً بالذهبي والأبيض والأحمر والأسود الذي تشوبه كدرة، ومن ميزاتها أن لها ثلاثة أصابع في كل رجل يستدل بها على مكانها، ويظهر ذلك بسهولة فوق الرمل والأعشاب الطرية وتعيش في سرب مؤلف من 4 أو 5 طيور وقد تصل أحياناً إلى عشرة وهي سريعة الركض على الأرض، وقوية في الانطلاق والاندفاع في الطيران خاصة إذا شعرت بالخطر.

تبدأ قصة حياة الحبارى على بُعد آلاف الأميال وفي بلدان عديدة.

فبعض أنواع الحبارى يبقى في المنطقة ولا يغادرها، في حين الأنواع الأخرى تقضي معظم شتائها على بُعد آلاف الأميال من مواطن تكاثرها، وعلينا أن نضمن حماية الحبارى من عمليات الصيد خلال الفترات الحرجة من العام ويشمل ذلك فترات التزاوج ووضع البيض وتربية الفراخ وذلك لتمكين الحبارى من التكاثر بسلام لإنتاج أعداد كبيرة من الفراخ.

إن أعداد طيور الحبارى التي تزور دولة الإمارات العربية المتحدة في تناقص كبير ما يستدعي تقصي أسباب تناقص أعدادها وكيفية الحد منه قبل أن تتعرض للانقراض في هذه البقعة من منطقة الخليج العربي، لذلك سعت الدولة إلى تقييم وتحديد مناطق انتشار طائر الحبارى ووجوده في جميع أنحائها، ومراقبة مجموعات الحبارى التي تقضي وقت الشتاء في الدولة بهدف تقييم التغييرات في أعدادها، وتكوين لجان من المراقبين لمتابعة أعدادها في مختلف أنحاء الدولة، وتقنين ومراقبة تأثير الصيد على أعداد الحبارى، والحد من الإزعاج وما تتعرض له من مضايقات وملاحقات لاصطيادها في أماكن وجودها في دولة الإمارات.

لقد سعت دولة الإمارات للحفاظ على الحبارى، فمشاريع إكثارها في الأسر انطلقت في أبوظبي منذ أكثر من 40 عاماً وحققت نتائج مميزة رغم صعوبة إنتاجها في الأسر للخصوصية التي تتميز بها عن غيرها من الطيور التي يمكن إكثارها بهذه الطريقة. إن هذه العملية تهدف إلى التنمية المستدامة من الطرائد عن طريق زيادة أعداد الحبارى التي تقضي الشتاء في أبوظبي وسوف تحقق هذه العملية تلك الغاية منها عن طريق الجمع بين إكثارها بالأسر والعناية بها وحمايتها ثم إطلاق سراحها وتحسين بيئاتها الطبيعية بالإضافة على إنتاج مجموعات قادرة على التكاثر في مناطق محمية ذات إدارة جيدة. إن برنامج إكثار الحبارى كان يهدف إلى إطلاقها في البرية لتعزيز الأعداد التي تقضي الشتاء في الدولة، وإطلاقها لغرض الصيد وزيادتها في نطاق وجودها وتكاثرها، وإنشاء قاعدة بيانات للحبارى تبيّن الأصول الوراثية لكل طائر تتم تربيته بهذه الطريقة، وتبادل المعلومات بين مراكز تربية الحبارى في الأسر.

إن البذرة التي غرسها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة، طيّب الله ثراه، بإنشاء برنامج لإكثار الحبارى الآسيوية في الأسر في حديقة حيوان العين في عام 1977م، قد آتت أُكلها بإنتاج متصاعد، وصل إلى 53 ألفاً و743 طائر حبارى خلال عام 2016، ويتابع البرنامج عمله ودراساته باستراتيجية متكاملة لاستدامة الإنجازات التي تحققت طوال أربعة عقود من هذا البرنامج والسير على نهجها ومتابعتها.

لقد وضع الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - همته وسخّر معرفته بالطائر الذي أحبه وعاش معه أجمل رحلات صيده، في إطلاق أول المشاريع البيئية العالمية للحفاظ على هذا الطائر. ولولا تلك الهمة والجهود المتميزة، لبقيت معرفتنا بالحبارى وطرق هجرتها وأيديولوجيتها ومواسم تكاثرها وحياتها وغذائها ضئيلة جداً، بل ربما معدومة، إلا أنّ رؤيته الحكيمة وتوجيهاته السديدة بدراسة الحبارى وتجربة إكثارها، قد أعطى أول المؤشرات الإيجابية للحفاظ على الحبارى في الأسر، لقد عُرف عن الشيخ زايد - رحمه الله - حبه وعشقه لرياضة الصيد بالصقور، وكان خبيراً بها وبأنواعها وخصائصها وطبائعها لقد قال عنها - رحمه الله - (إن الصيد بالصقور رياضة مهمة ووسيلة من الوسائل التي تعلم الصبر والجلد والقوة، كما أن هذه الرياضة تُظهر ابن البادية الذي وهبه الله فطرة ومقدرة على تأنيس هذا الطير الجارح وتأديبه بأمره فيطيعه وينابديه فيحضر مسرعاً إليه) يعتبر الصقر رمزاً للقوة والرفعة والصبر والشجاعة للشعوب العربية حتى أصبح شعاراً للكثير من الدول العربية ومنها دولة الإمارات، فقد اعتمد المجلس الأعلى للاتحاد الصقر شعاراً لدولة الإمارات العربية المتحدة يوم 9 ديسمبر 1971.

وعندما سئل - المغفور له بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان عن هواية الصيد بالصقور وسبب الاهتمام بها في إحدى المناسبات؟ قال: (نعم إن هوايتي الصيد بالصقور لأنني تبنّيتها عن أسلافي ومنتشرة كذلك في الدولة، ولقد وجدت في هذه الهواية ميزاتٍ، حيث إنها تجمعني بأصدقائي ومع من حولي من مسؤولين ومواطنين لمدة أسبوعين أو ثلاثة، ومعيشتي معهم سواء بسواء، ونتحاور في كل شيء، وأشعر براحة؛ لأن في هذه الهواية متعة المنافسة بين الصقّارين، كما أنها تخفف عنا هموم الحياة ومشاكل الدنيا حيث يكون التركيز أساساً على الصيد بالصقور الذي يتيح لي الحوار المفتوح من دون إحراج مع إخواني في الصحراء، فنتحدث حول بعض الأمور وأطلع على معلومات عن أوضاع الوطن والمواطنين وغيرها مما قد لا تتوافر لدي الإمكانية لتحقيقه والحصول عليه عندما أكون في المدينة نظراً لانشغالي بالنشاط الرسمي للدولة).

لقد أطلق الشيخ زايد - رحمه الله - «برنامج الشيخ زايد لإطلاق الصقور» وهو عبارة عن برنامج مشترك بين هيئة البيئة والحياة الفطرية وتنميتها وإدارة البيئة والحياة الفطرية التابعة للدائرة الخاصة لصاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، ولقد طلب سموه - رحمه الله - أن تستخدم صقوره الخاصة بعد انقضاء موسم الصيد في دراسة قدرة الصقور التي يتم انطلاقها في البرية على التكيّف مجدداً مع الحياة في البرية ودراسة مسار هجرتها وتكاثرها.

والتزم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بالعمل من أجل ضمان بقاء «الحبارى» في المستقبل عندما لاحظ تراجع أعداد هذا الطائر في البرية منذ سبعينيات القرن الماضي بسبب

الصيد غير المنظم والتوسع الحضري على حساب الموائل الطبيعية، ووجه بإنشاء أول برنامج للمحافظة على هذا الطائر، وكان ذلك البرنامج النواة الأولى للصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى.

كما قام - رحمه الله - بتأسيس برنامج لإكثار هذه الطيور في حديقة حيوان العين في أبوظبي، حيث تم إنتاج أول فرخ حبارى آسيوي في الأسر في عام 1982 ، كما تأسس المركز الوطني لبحوث الطيور في عام 1989 بمنطقة سويحان في إمارة أبوظبي بموجب قانون أصدره صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان - رحمه الله - وتتلخص مهامه في

الحفاظ على الحبارى والسعي نحو التوفيق بين تقاليد الصيد بالصقور والاستخدام المستدام للموارد الطبيعية، لقد بذل المركز عبر السنين جهوداً كبيرة في تطوير تقنيات حديثة للمساعدة على إنتاج الحبارى في الأسر في ظل الظروف البيئية غير الملائمة لتكاثر هذه النوع في المنطقة، ولقد استطاع المركز مع الوقت الحفاظ على الحبارى على وجه الخصوص، وعمل المركز تحت مظلة هيئة البيئة أبوظبي حتى عام 2010 إلى أن أصبح واحداً من أهم مراكز الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى الذي أنشأته أبوظبي في عام 2006، ويختص الصندوق بإجراء البحوث البيئية العلمية لتطوير وسائل الإكثار في الأسر لمجموعات ذات أصول وراثية مختلفة من الحبارى الآسيوية ووضع الخطط الجادة وتنفيذ المشاريع الرائدة مع المؤسسات الحكومية المتخصصة في دول انتشار الحبارى وتعزيز الفهم العلمي والمصلحة العامة في الحفاظ على الحبارى.

كما حقق مركز دبي لأبحاث الحياة البرية الذي تأسس عام 1982 لإدارة مشروعات الحفاظ على الحياة البرية لسمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم رقماً قياسياً مهماً في تربية طيور الحبارى، ونجح المركز في تربية حبارى متزاوجة في الأسر خلال الأعوام التالية لتأسيسه، كما قام بتربية طائر الحبارى الأسود في عام 1984 ولديه مجموعة كبيرة من الحبارى العربي والنوبي والكبير في إطار مجموعة من الحياة البرية الإقليمية.

لقد تم إنشاء عدد من المناطق المحمية في دولة الإمارات العربية المتحدة والسعودية وعمان وإيران ودول آسيا الوسطى وهدفها

توفير الملاذ الآمن لمجموعات الحبارى المتبقية، كما يتم بذل جهود حثيثة في الشرق الأوسط من أجل القضاء على الصيد غير المشروع وإدارة الصيد والمجموعات البرية من الحبارى وتنفيذ نظم اتفاقية الاتجار وإدارة المجموعات البرية من الحبارى وقد تم إنشاء نادٍ للصقارين في دولة الإمارات بهدف تشجيع رياضة الصيد بالصقور الملتزمة بالأخلاقيات والطرق التقليدية التي تراعي الاستدامة والمحافظة على الموائل والأنواع البرية، وساعد هذا النادي على دمج الصقارين كشركاء في الحفاظ على الحبارى وتتلقى هذه الجهود وغيرها التنسيق والدعم والالتزام الكامل ولا تزال بحاجة إلى المزيد من ذلك على أعلى المستويات وأوسعها ■

* رئيس قسم الأرشيفات التاريخية - الأرشيف الوطني

طير الحبارى ومحمياته من أيام الشيخ زايد

فاطمة عطفة

الحبارَى من الطيور الجميلة التي تعيش في الصحراء، والاسم مشتق من الحِبر (مداد الكتابة) أو من حسنه وبهائه، شكلاً ولوناً. وتحبير الخط والشعر: تحسينه، كما ورد في لسان العرب لابن منظور. والحِبر (جمع أحبار): العالِم والرجل الصالح، وقد وردت في القرآن الكريم في سورتي «التوبة» و«المائدة»، كما ورد الفعل: يُحبرون في سورة «الروم»، وتُحبرون في سورة «الزخرف» ومعناها: تُسَرّون وتَنعمون. والكلمة ومشتقاتها وردت كثيراً في الشعر العربي القديم. وهو من أكبر الطيور حجماً وأثقلها في الطيران. ومن يتأمله يحس بجماله بوجه عام، من لون ريشه البني الموشى بالأبيض والأسود، إلى صدره الملون الجميل وعنقه الطويل ورأسه الصغير ومنقاره القصير العريض، إضافة إلى ساقيه الطويلتين اللتين تساعدانه على الفرار من الصقور المطاردة. والحبارى يصنف بأنه من فصيلة مالك الحزين.

تبيض أنثى الحبارى في الرمال أربع أو خمس بيضات، وجاء في لسان العرب أن بيضه ألذ من بيض الدجاج، وهو لا يشرب الماء، ويوصف بالحمق، وهو على حمقه يحب فراخه ويعلمها الطيران. ويمتاز عن غيره من الطيور بأن سلحه كالصمغ يدافع به عن نفسه، فحين يهاجمه الصقر يرتفع بسرعة ويلقي بسلحه على مهاجمه فيلتصق ريش جناحه ويعوقه عن الطيران.

وتمتاز الإمارات برعاية هذا الطير الجميل وحمايته منذ عهد المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - كما تابع المغفور له - رحمه الله - الشيخ خليفة بن زايد نهج الوالد.

وتشاهد الحبارى في منطقة سويحان في إمارة أبوظبي، وفي منطقة الظفرة وهي محمية واسعة لهذا الطير. كما توجد محمية فريدة من نوعها للمها في الإمارات، وتحظى طيور الحبارى بالحماية من الانقراض وتأمين المكان المناسب لاستيطانها وترعاها القيادة الرشيدة، كما ترعى أبناءها والمقيمين فيها.

وجاء في لقاء الروائية الكاتبة مريم الغفلي مستهلة حديثها بالشعر:

يـــــا طـــير وضبتـــك بتدريـــب
ابغـــي اصـــاوع بك هـــــدادي
لي طـــارن (الربـــد) المهاريـــب
لـــي ذايـــرات مـــن العـــوادي
إلقف لهـــن عســاك ما تخـــيب
واقصـــد لقايـــدهن عنـــادي
خمـــه براســـه خمـة الذيـــب
وعليـك ماظنيـــــه بـــادي
وخـل الهبـوب تـــروح وتيـــيب
ريش شعيـــع عقب المصـــادي
واللي سبـق طـــيره بـــلا طـــيب
بيتـــــم في حزنـــه ينـــادي
عنـــد اخويانـــا والأصـــاحيب

كلـــن بخـــبره بايســـــــادي
وان ماضـــــوى ودولـــــــه الجـــيب
تزهـــــاب والطبخـــه عنـــــادي

هذه من أشهر القصائد للمغفور الشيخ زايد بن سلطان، طيّب الله ثراه. فهو كان عاشقاً لرحلات الصيد والمقناص وامتلك أشهر وأندر أنواع الصقور التي كانت تستخدم في صيد طيور الحبارى والكراوين . وأضافت الغفلي: عندما نتحدث عن طائر الحبارى هذا الطائر النبيل، فهو طائر غير عادي وهو هدف كل راعي قنص، لونه بني فاتح كبير الحجم مقارنة بغيره من الطيور المحلية، كان يوجد بكثرة في الستينيات من القرن الماضي، ولكن القنص الجائر أسهم في انقراضه. ولكن جهود المحافظة عليه منذ الثمانينيات أعادته، وذلك بفضل جهود الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى الذي أسهم في حمايته من الصيد الجائر والانقراض، كما تم العمل على إكثارها بهدف الحفاظ عليها وزيادة أعدادها.

وتوضح الكاتبة مريم الغفلي قائلة: حالياً يوجد في المحميات الطبيعية المنتشرة بمدن الدولة كافة والتي تعد موطناً للكثير من الكائنات، مبينة أن موطنه الأصلي عمق الصحراء حيث الهدوء. وهو أحياناً يأتي مهاجراً من المناطق الباردة وأول محطة له في اليابسة جزر الإمارات وأرضها الآمنة.

وتعود بالذاكرة إلى أيام الطفولة قائلة: كنا نراه نادراً ونحن صغار هو وطيور الكروان، ولكن سماع صوته كان أندر بعكس صوت الصفارد .وكنا ونحن صغار نذهب لاكتشاف أعشاش هذه الطيور الخجولة حيث تكون الأعشاش والبيض بلون واحد لحمايتها من غزو الثعابين وغيرها. وبالنسبة لي أعشق هذا الطائر فهو طائر محلي ارتبط بذهني بوالدي الذي كان يصطحبنا معه أثناء رحلات الصيد.

وفي الأخير، تلفت الغفلي النظر إلى أن الحبارى، هذا الطائر المحلي النادر والجميل ارتبط بحياة الآباء والأجداد كذلك، وذكره الشعراء كثيراً مثل هذا البيت لابن فطيس المري:

الحباري تكشـــــف الطيب الصناعي
من تصنّع! عندهـــــا تظهر اعيوبـــه

وفي لقاء للكاتب نبيل الكثيري قال: في بداية السبعينيات أنشأ المغفور له - بإذن الله - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيب الله ثراه - خطاً زمنياً لمشروع صندوق الحبارى، لحمايتها وتشجيع المتخصصين لاحتضانها وتسهيل تكاثرها، حيث يستطيع الجميع متابعة مراحل حياة وتطور محميات الحبارى عبر أحدث الأجهزة الإلكترونية. وأضاف مبيناً أن طيور الحبارى تتميز بذكائها الحاد وبقدرتها على التأقلم والتمويه بحسب البيئة التي تعيش فيها، وموجودة حالياً بكثرة في مراكز تابعة للصندوق في مختلف الدول لمتابعة خطوط هجرتها، وأقامت الإمارات عدداً من المراكز في الإمارات وكازاخستان والمغرب وغيرها من الدول، وتوجد الحبارى بكثرة في وسط آسيا «منغوليا والصين» حيث تعد من أهم محميات الحبارى بالامتداد جنوباً إلى شبه الجزيرة العربية، وكذلك تعد كازاخستان من الأماكن التي توجد بها الحبارى بكثرة، نظراً لكبر مساحتها، كما توجد الحبارى في شمال أفريقيا، والمغرب، والجزائر، وليبيا، وتونس ■

* إعلامية وصحفية سورية

الحبارى.. من طائر مهدد بالانقراض إلى رمز إماراتي تراثي مستدام

منى حسن

منذ بداية الحياة على كوكب الأرض، اعتمد البشر في بقائهم على التنوع البيولوجي في الطبيعة بصورة أساسية. فاستخدم الإنسان في كل مكان وزمان أنواعاً عديدة ومختلفة، من الحيوانات والنباتات، في حياته اليومية من أجل الحصول على الغذاء، والدواء والملابس، وغيرها من متطلبات البقاء.

وكما هو معلوم فإن الاستدامة من وجهة نظر بيئية، هي ممارسة استخدام الموارد الطبيعية بمسؤولية، تفي بمتطلبات الأجيال الحالية ولا تؤثر في احتياجات الأجيال المستقبلية. وبصورة أشمل، هي التفاعل المسؤول مع البيئة، وعدم الاستنزاف الجائر للموارد الطبيعية، إلا أنه ورغم ذلك، ورغم أن الإنسان هو المتضرر الأول من اختلال التوازن البيئي الناتج عن سوء استغلال الموارد الطبيعية، فإن تنامي أزمة فقدان التنوع البيولوجي نتيجة للأنشطة البشرية المفرطة وغير المسؤولة كسبب رئيسي إضافة إلى عوامل المناخ، وغيرها من مهددات النظام البيئي، عواملٌ مجتمعة دفعت الباحثين في مجال البيئة، للاعتقاد أنه من العسير أن تتضمن أهداف التنمية المستدامة الحفاظ على الحياة البرية، مالم تنشأ مبادرات دولية تسعى نحو ذلك، فكان ظهور اتفاقية الاتجار الدولي بأنواع الحيوانات والنباتات البرية المهددة بالانقراض (CITES)، وهي «اتفاقية دولية بين الحكومات، هدفها ضمان أن التجارة الدولية في الحيوانات والنباتات البرية لا تهدد بقاء الأنواع»، والتي تأسست عام 1963، ودخلت حيز التنفيذ رسمياً عام 1975، وانضمت إليها الإمارات في الثامن من فبراير عام 1990. هذه الاتفاقية وغيرها من اتفاقيات الحياة البرية والتنوع البيولوجي أعطت أملاً في إيجاد إطار عالمي لاستدامة الموارد الطبيعية.

وقد أسفرت الأبحاث الحديثة عن صورة مؤلمة لحالة الحياة البرية والتنوع البيولوجي في العالم، ناتجة عن الأنشطة البشرية غير المسؤولة، مثل الصيد غير المشروع للحيوانات. حيث جاء في تقرير التقييم العالمي عن التنوع البيولوجي وخدمات النظام البيئي «الإيكولوجي»، الذي نشره المنبر الحكومي الدولي للعلوم والسياسات المعني بالتنوع البيولوجي وخدمات النظم الإيكولوجية 2020 ،(IPBES): «إن ما يقرب من مليون نوع - أي ما يجسد ربع أشكال الحياة المعروفة - يمكن أن تواجه خطر الانقراض في غضون عقود كنتيجة مباشرة للاستغلال المفرط من جانب البشر، إضافة إلى تغيّر المناخ وتدهور المصادر». كما يصنّف تقرير المخاطر العالمية لعام 2020 الصادر عن المنتدى الاقتصادي العالمي، العاملين: خسارة التنوع البيولوجي،

وانهيار النظام البيئي، كاثنين من التهديدات الخمسة الكبرى التي ستواجهها البشرية في الأعوام العشرة المقبلة. وتعد طيور الحبارى على اختلاف أنواعها، كائنات مهددة بالانقراض بسبب الصيد الجائر، والتجارة غير المشروعة. والحل الأمثل لحمايتها من خطر الانقراض، هو أن يصبح إكثارها مستداماً من أجل الحفاظ على النوع، والحفاظ على الموروث الثقافي المهم للصقارة العربية. من هنا تولت دولة الإمارات العربية المتحدة الدعوة إلى نهج نموذجي للاستدامة من خلال برنامج البحث العلمي، وإنشاء المحميات عبر برنامج ابتدأ منذ أكثر من خمسة وأربعين عاماً، وما زال يؤتي ثماره.

عن الحبارى:

الاسم العلمي للحبارى هو «Chlamydotis Undulata»، وهو طائر بني اللون في الغالب ، مع بياض أسفل الجسم ، وبقع سوداء وبنية فاتحة في جميع أنحاء الجسم، ويبلغ متوسط طول ذكور الحبارى نحو 73 سنتميتراً ويبلغ طول الجناح نحو 135 - 170 سنتميتراً. بينما الإناث أصغر قليلاً من الذكور، حيث يبلغ متوسط طولها نحو 66 سنتميتراً. ومن المعروف أن الحبارى طائر حساس تجاه الخطر في طريق هجرته، وحين يستشعر الخطر في طريق ما، فإنه لا يستخدمه مرة أخرى. وتهاجر طيور الحبارى في مجموعات مع قائد واحد. وفي الحالات التي تفقد فيها القطعان قائدها، فإن طائراً آخر ينوبه في قيادة المجموعة إلى وجهتها.

يوجد طائر الحبارى في الغالب في المناطق التي تتراوح فيها درجة الحرارة ما بين 4 - 34 درجة مئوية. وهي تتكيف مع الظروف شبه الصحراوية والرملية والصخرية والقاحلة، وتحديداً البيئات الصحراوية حيث توجد كثبان رملية كبيرة وصحاري مفتوحة، من دون أشجار. وعادة ما تتجنب الحبارى أماكن التجمعات البشرية، فهي طائر بري يعشق المساحات الواسعة.

أما من حيث نظامها الغذائي، فالحبارى تُعتبر آكلة للحوم، حيث تتغذى على السحالي والقوارض الصغيرة، إضافة إلى الخنافس والنمل والنباتات. وإحدى صور تكيفها المذهلة مع البيئات الصحراوية هي أن الحبارى لا تحتاج لشرب الماء لأنها تفي بمتطلباتها المائية من خلال الطعام الذي تأكله. ومع ذلك، فإن غالبية نظامها الغذائي يعتمد على النباتات، بينما تتغذى على الحيوانات في فصل الشتاء فقط. ووفقاً لوكالة الأبحاث البيئية وتنمية الحياة البرية، (ERWDA)، فإن الحبارى (Chlamydotis Undulata) طائر مهاجر مهدد

بالانقراض في السنوات المقبلة، إذا استمر الصيد المفرط وغير القانوني بحقه على اختلاف أنواعه التي تتجاوز الثلاثة وعشرين نوعاً. إذ يبلغ معدل النفوق الطبيعي لهذا الطائر نحو 3.3٪ بينما يصل معدل النفوق بسبب الصيد (الأنشطة البشرية) إلى 73٪. كما صنفت اتفاقية التجارة الدولية في الأنواع المهددة بالانقراض من الحيوانات والنباتات البرية (CITES) الحبارى على أنه طائر مهاجر مهدد بالانقراض بسبب زيادة معدل نفوقه أثناء الصيد في الموائل الشتوية. وأنه في حال استمرار معدل الصيد الجائر، فسوف ينخفض عدد هذه الطيور بنسبة 50٪ حتى عام 2015 وسينقرض بحلول عام 2027.

أهمية الحبارى في التراث الإماراتي

طائر الحبارى من الطيور المحمية دولياً، ونوع مهم من الطيور،

لا تحرص دولة الإمارات العربية المتحدة على حمايته والحفاظ عليه فحسب، بل ولأكثر من خمسة وأربعين عاماً مضت، اهتمت دولة الإمارات بإكثاره وذلك بعد إدراك خطورة وضعه واحتمال انقراضه، حيث لاحظ المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الوالد المؤسس لدولة الإمارات العربية المتحدة، انخفاض أعداد الحبارى في البرية، ووجه بضرورة معالجة الأمر، وحمايتها من الانقراض، فتم تنظيم برامج تكاثر للحبارى في جميع أنحاء الإمارات، من خلال برنامج مخصص تم فيه الاستعانة بمجهودات الباحثين البيولوجيين والبيئيين. وبدأت قصة جهود الإمارات في حماية الحبارى وإنتاجه في الأسر، في عام 1977 وكانت البداية من حديقة حيوان العين، بسبعة من طيور حبارى آسيوية شكلت التجربة الأولى لمشاريع تفريخ الحبارى في الأسر في دولة الإمارات. وتوجت الجهود بالنجاح حيث تم تفريخ أول فرخ في عام 1982، وبحلول عام 2016 ارتفعت الإنتاجية إلى أكثر من خمسين ألف فرخ حبارى سنوياً. وحتى عام 2020، تمت تربية نحو ثلاثمئة وخمسون ألف فرخ حبارى.

والحبارى رمز أساسي في سلسلة الصقارة التي تعتبر من صميم التراث الإماراتي، فقد مارس العرب رياضة الصقارة في المنطقة العربية منذ نحو خمسة آلاف عام مضت، واشتُهر بها البدو في الإمارات وشبه الجزيرة العربية، حيث شكلت أحد أهم أنواع الصيد في الصحراء. ومصدراً للغذاء في بيئة جافة وقليلة الموارد. ومع مرور الزمن، والتطور الكبير في الحضارة الإنسانية بمنطقة الخليج العربي، تغير دور الصقارة من صيد بغرض الغذاء، إلى رياضة تراثية تعتبر من صميم تقاليد دولة الإمارات. حيث ترتبط لدى المواطن الإماراتي بالشجاعة والقيم السامية، والفخر، إضافة إلى صلتها بالحياة البرية، والنشاطات الجماعية التي تربط الصقارين في ممارسة الصيد المستدام. وقد مارسها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه، منذ طفولته، وحرص على استدامة ممارستها وتعزيز قيمتها المعنوية. ما دفعه للاهتمام بشقي معادلة هذه الممارسة التراثية، وهما الصقور، والحبارى التي تعد أهم طريدة للصقارين. وتمكنت دولة الإمارات من تنسيق جهود ثماني عشرة دولة أسهمت في إدراج رياضة الصيد بالصقور في القائمة التمثيليّة للتراث الثقافي غير المادي للبشرية في منظمة اليونسكو، بتاريخ السادس عشر من نوفمبر، عام 2010.

الحبارى والتوازن البيئي والغذائي:

من ناحية أخرى، وإضافة لأهمية طائر الحبارى التراثية عند العرب، وارتباطه بموروث الصقارة الثقافي، وجد الباحثون أن لطيور الحبارى تأثيراً كبيراً على البيئة، لما لها من مكانة مهمة في الشبكة الغذائية. إذ يتسبب فقدان الحبارى في زيادة أعداد الكائنات الحية الضارة ذات المستوى الغذائي المنخفض (مثل الحشرات والعناكب والقوارض الصغيرة والسحالي)، وقد يؤثر هذا بالتالي في المجموعات السكانية ذات المستوى الغذائي الأعلى وبالتالي يختل توازن الشبكة الغذائية. ومثال على ذلك ما حدث في باكستان، خلال فترة الخمسة إلى عشرة أعوام الماضية، فقد لوحظ أنه نظراً لانخفاض أعداد الحبارى بسبب الصيد المفرط، فقد تزايد بالمقابل عدد القوارض والهوام في الجزء الشمالي الشرقي من بلوشستان ما أدى إلى زيادة الأضرار التي لحقت بالمحاصيل الزراعية وقنوات المياه.

جهود دولة الإمارات في الحفاظ على طيور الحبارى وحمايتها من الانقراض:

قبل أن نُفصِّل في الحديث عن جهود الإمارات في إكثار طائر الحبارى وإنقاذه من الانقراض، علينا أن نقف وقفة لا بد منها على تاريخ حماية الحياة البرية في دولة الإمارات الذي رسم ملامحه الوالد المؤسس الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - فمنذ توليه حكم إمارة أبوظبي عام 1966، بادر بإنشاء هيئة الرفق بالحيوان، التي تولت مراقبة، وتنظيم صيد الحيوانات البرية وفرض الحظر على الصيد غير المشروع في الإمارة.

واستمرت جهوده - رحمه الله تعالى- في مجال المحافظة على الحياة البرية، عبر رعايته الكريمة لمبادرات عدة كان لها دور كبير محلياً ودولياً، أهمها تنظيم المؤتمر العالمي الأول للصقارة

والمحافظة على الطبيعة في مدينة أبوظبي عام 1976، الذي اجتمع فيه لأول مرة صقّارو الخليج مع نظرائهم في أمريكا الشمالية وأوروبا والشرق الأقصى. وقد كان المؤتمر نقطة الانطلاق الحقيقية لاستراتيجية شاملة وضعها – رحمه الله تعالى - لتطوير برنامج عالمي واسع المدى للحفاظ على الحبارى والحياة البرية التي ترتبط بها، وأصبح هذا البرنامج فيما بعد المصدر الأول للبحوث والمعلومات حول هذا الطائر، وتواصلت الجهود والبحوث التي تمت بدعم كبير من سموه في إعداد اللبنات الأولى لبرنامج إكثار طيور الحبارى في الأسر، إلى أن تكللت الجهود بالنجاح بإنتاج أول فرخ من الحبارى الآسيوية في الأسر في عام 1982م. «ووصف سمو الشيخ حمدان بن زايد تلك اللحظة الرائعة بقوله (وإن أنسى فلن أنسى ذلك اليوم الذي زفت فيه هذه البشرى للمغفور له الوالد الشيخ زايد ومشاعر البشرى والفرحة التي كست محياه وهو يستشرف نجاح جهوده التي بدأت في طرح ثمارها الغضة مبشرة بأن هذا الطائر النادر سيبدأ في التكاثر في قلب بيئة الإمارات النابض الذي لن يسمح له بالانقراض بإذن الله)».

وكان ظن الشيخ زايد - رحمه الله تعالى - في محله، فهو الرجل صاحب البصيرة النافذة، والنظرة البعيدة التي تهتم بالحاضر، وتستشرف المستقبل، وتسعى للحفاظ على التراث بشقيه المادي وغير المادي، نحو حياة أجمل للأجيال القادمة، عبر استدامة الموارد الطبيعية، والتراث الكبير من القيم والأخلاق النبيلة التي ترتبط بالصقارة وتراثها العريق، وغيرها من العادات والتقاليد الأصيلة في المجتمع الإماراتي والعربي.

ولم تقتصر جهود إكثار الحبارى على تربيتها في الأسر محلياً، بل اتسعت إقليمياً إلى دول أخرى تُعد موطناً لهجرات طيور الحبارى، حيث تعد الإمارات أول دولة في العالم استخدمت تقنيات التعقب بالأقمار الاصطناعية في رصد هجرات طيور الحبارى شمالاً وجنوباً، واستخدام نتائج التعقب في البحوث التي تسعى لحماية الحبارى من الانقراض، وإكثارها عبر دراسة سلوكها وهجراتها، والاستفادة من البحوث في تطوير المحميات في دول عدة تشملها هذه الهجرات، (ركزت الدراسات في الإمارات على الحبارى الآسيوية وحبارى شمال أفريقيا، إضافة إلى الحبارى العربية).

فتم افتتاح مركز الإمارات لتنمية الحياة الفطرية في المملكة المغربية عام 1995، وهو أحد أهم وأكبر المراكز التابعة للصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، وهو عبارة عن محمية عالمية للحفاظ على طائر الحبارى الشمال أفريقي، وتبلغ مساحته أكثر من 40 ألف كيلومتر، وبدأت عملية الإكثار فيه بحلول عام 1996، ومن ثم إطلاق أول مجموعة من الحبارى التي تم إكثارها في الأسر في المملكة المغربية عام 1998. ونظراً لنجاح التجربة في المغرب فقد تم إنشاء محميات جديدة في المملكة المغربية عام 2001، وأخرى في منطقة أنجيل عام

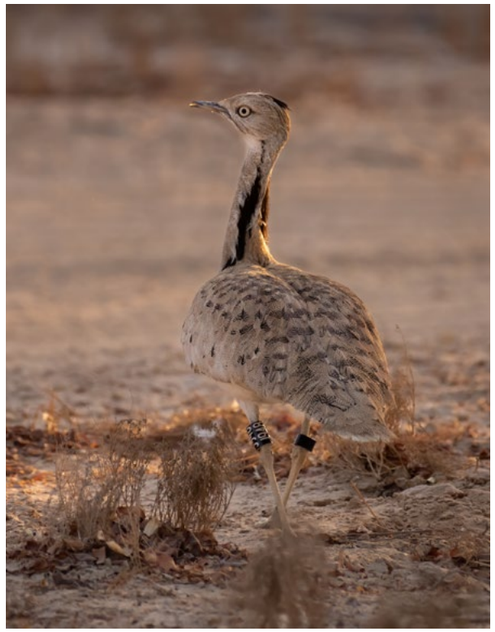

2006 هناك أيضاً. وفي عام 2004 قام المركز الوطني لبحوث الطيور بأكبر عملية إطلاق في البرية لأكثر من ألف فرخ حبارى تم إنتاجها في الأسر في مركز الإمارات لتنمية الحياة الفطرية. وفي عام 2007 أعلن المركز الوطني لبحوث الطيور عن رصد أول عملية تعشيش لمجموعة أفراخ حبارى قام بإطلاقها سابقاً في البرية. وفي عام 2008 تم إنشاء مركز الشيخ خليفة - رحمه الله تعالى - لإكثار الحبارى في كازاخستان، وتنفيذ أول عملية إطلاق للحبارى المتكاثرة في الأسر في كازاخستان عام 2009. وتوالت عمليات الإطلاق الناجحة بإطلاق خمسين ألف طائر من حبارى شمال أفريقيا بنجاح في عام 2011.

وتتابعت النجاحات داخلياً وخارجياً في إكثار الحبارى بجهود إماراتية ودعم كبير من قادة الإمارات الحريصين على استدامة هذا النوع من الطيور الذي يعد رمزاً أصيلاً في التراث العربي غير المادي، وفي تراث الصقارة تحديداً. حتى وصلت كما أسلفنا وبحلول عام 2016 إلى إنتاج أكثر من خمسين ألف فرخ حبارى سنوياً. وفي عام 2020 ، تم إكثار نحو ثلاثمئة وخمسون ألف فرخ حبارى.

الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى «International Fund For Houbara Conservation»، (IFHC):

في عام 2006 ضاعفت دولة الإمارات جهودها لزيادة أعداد طيور الحبارى - التي يعتبرها الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة ضمن القائمة الحمراء للأنواع المهددة بالانقراض، حيث تم تأسيس الصندوق الدولي للحفاظ على الحبارى، (IFHC)، في أبوظبي، الذي يعتبر من أبرز جهود دولة الإمارات في حماية الحبارى من الانقراض، ويهدف إلى زيادة أعداد الحبارى البرية وإكثارها من خلال تربيتها في الأسر وإطلاقها في مواطن انتشارها وهجراتها، وحمايتها وضمان بقائها وعدم تعرضها للصيد الجائر والانقراض. كما يهدف إلى الحفاظ على تنوعها وجيناتها الوراثية، وتطوير آلية للتعاون الدولي مع الدول والمنظمات والمؤسسات الدولية والإقليمية المعنية بالمحافظة على الحبارى والتراث المستدام للصيد بالصقور.

وفي عام 2013، تم إنشاء قطاع حماية الحياة البرية ضمن هيئة البيئة بأبوظبي، وذلك لدعم الهيئة في ضبط مخالفات الصيد، ومراقبة المحميات الطبيعية بأنحاء الإمارة كافة.

ولم تقف الإنجازات على إكثار طائر الحبارى وإطلاقه في البرية، بل تعدتها إلى توعية الأجيال القادمة بأهمية ما بذل من جهد وقيمته المعنوية والمادية، فتم إبرام اتفاقية مع مجلس أبوظبي للتعليم تقضي بإدراج مفهوم الحفاظ على الحبارى في المناهج التعليمية المعتمدة في مدارس أبوظبي عام 2014.

أخيراً فإن طائر الحبارى يعتبر رمزاً تراثياً عريقاً وأصيلاً لصحارى شبه الجزيرة العربية، وهو الطريدة الأولى للصقّارين، التي تُشكل التحدي الكبير لهم، حيث تصل صقورهم إلى الحبارى في الجبال والوديان والجو أحياناً، وصيد الحبارى بواسطة الصقور بدءاً من تدريب الصقور إلى ممارسة رياضة الصقارة يمثل شغفاً تراثياً خاصاً لدى الإماراتيين، وخزانة لقصص ونوادر عن الصقارة ومنظومة القيم العظيمة التابعة لها في التراث الإماراتي ■

* شاعرة وكاتبة سودانية

الهوامش:

1. مجلة بيئة المدن الإلكترونية، حماية الطبيعة والمحافظة على التنوع البيولوجي- أكتوبر، 2018.
2. موقع هيئة البيئة أبوظبي.
3. حماية الحبارى وإكثارها في أبوظبي، جهود 40 عاماً تؤتي ثمارها، أبوظبي، وكالة أنباء الإمارات، 3 أكتوبر 2016.
4. كيف يمكن للحفاظ على الحياة البرية أن يفيد التنمية البشرية المستدامة، إيفون هيغيرو، 2 آذار/ مارس 2020.
5. Houbara bustard may go extinct due to hunting, trapping, Dr. Mazhar Iqbal, February 10, 2015.
6. https://cites.org/
7. Protecting the houbara bustard,BAI | Jennifer Bell,13 Oct 2020.

بِئْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح (7)

ألفاظ من خصائص الحالة البشرية

محمد فاتح زغل

أكاديمي وباحث في التراث

كما هي حال اللهجات كلها في العالم فقد تفاعلت اللهجة الإماراتية مع بعض عيوب خصائص الحالة البشرية وذلك لتصويب السلوك الإنساني بما يتوافق مع المجتمع وفق الصالح العام لزرع الخير أو الفضائل، ومن الخصائص الداخلي وهو ما يبطنه الإنسان أما الخارجي فهو الذي يظهره الإنسان، وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة: الوجه الأول باتجاه النفس (داخلي) والآخر باتجاه الناس (خارجي). وقد وردت في اللهجة الإماراتية الإشارة إلى بعض هذه الألفاظ وما فيها من عيوب، ومنها:

خَرْخوش، ومخرخش، وخريش: يقال في اللغة عن الرجل الطائش غير الرزين في هذه اللهجة، (فلان خرخوش، ومخرخش، وخريش)، وهي ألفاظ - كما يرى الأستاذ محمد المر - من الفصيحة: هارش الكلب، وتهارشت الكلاب (مزق بعضها بعضاً)، على أن الخارش كالهارش، وهو من باب الإبدال، ويتبدى لي أن الأَوْلى أن تحمل هذه الألفاظ على ظاهرها، لأنها من حيث المعنى يمكن أن تدور في فلك المعاني التالية: الذي يهيج ويحرك، والذي لا ينام مع الجوع، وضرب البعير بالمخراش للإسراع، وغيرها.

خُلَيْف (خُلَيَف): من معاني الخلف في العربية: نقيض قدام، ولها معانٍ كثيرة كالرديء من القول، والاستقاء، وحدّ الفأس. ومَنْ ذهبوا من الحي يستقون وخلفوا أثقالهم، والنسل وما وراء البيت، والظهر، وخلفه: بعده، والمتخلف عن الأول هالكاً كان أو حياً، والخالف والخالفة من لا خير فيه، والخوالف: النساء المتخلفات في البيوت. جمع خالفة، والذين لا يغزون، أو الصبيان المتخلفون، وغير ذلك من المعاني، والخَليف: تصغير خَلْف، وهو الرجل الجبان الذي يخاف الحرب. ويؤثر البقاء مع النساء في البيت، وهو من الخوالف.

دَلّاهَةٌ: ويطلق على المرأة التي تُكثِر من زيارة الجيران، وغيرهم. فلا تستقرّ في مكان، أو بيتها. في هذه اللهجة: دلاّهة، وهي دَلاّلة تُتبيّن من الدَّلْه أو الدَّلَه وهو ذهاب الفؤاد من الهمّ أو نحوه. والدَّلُوه: وهي النّاقة التي لا تكاد تحنّ إلى إلف، ولا ولد، والمُدلَّه: وهو الساهي القلب، الذاهب العقل.

بِرْذَوْلَة (بِرْذُلَة): وتستعمل هذه اللفظة في اللهجة الإماراتية للدلالة على العشوائية، كما في قولهم: فلان بِرْذَوْلَة للدلالة على عدم الاتزان، والطيش، والكسل، وغير ذلك مما يمكن أن يوسم به بعض الشباب في تصرفاتهم غير السوية. ويظهر أن البِرْذَوْلَة هي البِرْذَونة وهي دابة في مشيها ثقل، إذ يقال: في العربية: مشى مشي البراذين، ومذكر البِرْذَونة بِرْذَوْن، والبُرْزُل: الضخم.

بَرْصِيْصٌ: البَرْصِيْصُ في قولهم: فلان بَرْصِيص: أي الشّديد البخل، وهي عند الأستاذ فالح حنظل من الفصيحة: بَصِيْص. ويظهر لي أن البَرْصِيص (فعليل) من (برص)، ومن ذلك: أرض بَرْصاء (رُعِيَ نباتُها من مواضع، فعَرِيَتْ عنه)، والبَرِيْص: نَبْتٌ يشبه السَّعْد، والبِراصُ : بقاع في الرمل لا تنبت شيئاً، والتَّبريص: أن يصيب المطرُ الأرضَ قبل حَرْثها، ويمكن أن تنئ هذه الألفاظ وتدل على معنى البخل.

أَبْلَح: يُطلق على الغبيّ البطيْءِ في الكلام وفي اللهجة الإماراتية: أبْلَح، وهو في العربية: البَيّنُ البَلَح، على أن التَّبلُّحَ التَّكبُّر، كما في قول أوس بن حجر:

يجُود، ويُعطي المالَ من غير ضِنَّةٍ

ويَضْـــــرِب رأسَ الأبْلَخ المُتهكِّـمِ

وليس بمستبعد أن يكون من البَلَق، وهو الحُمق غيرُ الشّديد، على أن القاف قلبت في هذه اللهجة غيناً.

بَلُّوْطِيّ (بُلُوطِيّ): يُطلق على الكثيرِ الانْتِقاد، الذي لا يرضى بشيء، ويتدَّخل في مسائل لا وشيجَ لها به، وفي المثل في اللهجة الإماراتية: فلان عِبْرِيّ، وبُلُوطِي، وهو معنى يمكن تبيّنه من بعض الألفاظ التي تدور في فلك الأصل نفسه، ومن ذلك: أَبْلَطَ فلانٌ فلاناً (ألحّ عليه في السؤال حتى برم، وملّ)، وبَلَّطَ أُذُنَه (ضربها بسوط ضرباً موجعاً)، وبَلَطَ: (أعيا في المشي)، والبَلُّوط شجر بارد، يابس، وثقيل غليظ) ■

مقبض الباب

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

الباب - هذا العظيم والكبير الذي بدونه ستتبدل شكل الحماية ونوعها - هذا الدور الكبير للباب في حماية وستر الإنسان والأماكن والذي تمتع به عبر التاريخ ومنذ تأسيس العمارة لإيواء الإنسان بقدر كبير من الاهتمام والتبجيل من الإنسان لأن الباب أصبح من أهم أدوات العناية والحفظ والستر للإنسان ولمتاعه وممتلكاته ومكتنزاته، كما أنه ستر، وهذا مهم جداً في حياة الإنسان الخاصة، حيث إنه يحافظ على خصوصية المكان والإنسان ومنع رؤية أحوال الداخل عن البصاصين والرائين وغير المرغوب فيهم.

هذا هو الباب الأهم في مفردات العمارة. لكن هذا المبجل والمهم والمهتم فيه كيف نسوسه؟ كيف نتحكم في حركته؟ كيف نتحاور معه ونتفاهم لنحركه وفق مشيئتنا ووفق الحالة التي نريده عليها: يمنة للإغلاق أو العكس مثلاً أو يسرة للفتح حسب مقتضيات الوقت والحالة. لابد من أداة للتحكم فيه والقبض عليه بملء الإرادة والتيقن من الإنسان صاحب الباب. أو حتى المار والداخل من الخارج وإليه والعكس، الباب الكبير والعظيم كيف تتم السيطرة عليه؟

كيف القبض عليه لإفراغ طاقة التحكم لفتحه أو إغلاقه وحسب المشيئة لا بد من مقبض وتخيل قبض ومقبض .. أي إن التسمية لتلك الأداة «مقبض» جاءت متساوقة مع الغرض ومنبتة من القبض- إذاً حالة القبض تحتاج إلى أداة هي في النهاية ما درج عليها اشتقاقاً من الحالة بالمقبض اسم للأداة .. وتخيل الباب الضخم بأشكاله وأصنافه وأحجامه لو لم يكن له أداة للقبض .. كيف سنواري أنفسنا وكيف سنحمي ممتلكاتنا وأشياءنا ومحتوى الدار أو المنزل أو المكان من دون تحكم. الأمر سيكون صعباً بالتأكيد بلا شك ساعتها هل سنثقل عليه بأجسادنا كي نغلقه أو نفتحه .. سيكون التعامل بكل الجسد وبالأيادي، وربما شخص أو أكثر للقيام بعملية تدوير هذا العظيم وفق رحلته التي تم ضبطها في كوة مرتكنة. وفي قرار إشغاله ووجوده المرتبط بفوهة المكان أو مكمنه الذي سيرسف فيه عمره مفتتحاً ومنغلقاً والقيام بعمله ودوره على الوجه الصحيح والأكمل. .

ومن حكمة الحياة أن لكل شئ فيها جماداً كان أو إنساناً أو حيواناً أداة للتحكم فيه يبدأ من الاسم الذي ينادى به عليه، ولك أن تتخيل لو أن الله جلّ في علاه لم يقضِ علينا بأسمائنا - كيف سيكون الحال - كيف سنقبض على بعضنا كي نكمل رحلة الحياة المكتملة بيننا جميعاً، كيف سأقصد إنساناً بعينه وكيف سأختاره وأقصده وأعنيه، وهو كيف سيعرف أنه هو المقصود والمعني والذي تتجه إليه نية الآخر، وكيف سيتجه نحوه للتعامل أو التشاور أو السؤال أو الحديث.

الاسم باب أول والأهم ليكون مقبض الإنسان.. الإنسان المعني اسمه كذا، المسألة على بساطتها في روعنا ولكنها كبيرة الأثر وعظيمة النتيجة ومدخلاً للتعارف واستكمال دورة الحياة برمتها، الاسم هنا مفتاح الحياة ومقبضها نحو صيرورتها وإدامتها، وبناء الحضارة والعلاقات وفتح دروب الحركة المعيشية كما أرادها الله هذا الشيء البسيط، «الاسم» له دور عظيم في فتح أقنية الحياة برمتها .

ولذا اندهش الملائكة حين أعلمهم آدم عليه السلام بأسمائهم وفق المشيئة الإلهية وأمره العظيم لسيدنا آدم أن يعلم الملائكة أسماءها التي أفاض بها الكريم على سيدنا آدم فقالوا «لا علم لنا إلا ما علمتنا» وكانت بداية تسيّد آدم هي كنية الأسماء، التي هي مقبض المنادى وكنيته، فلكل إنسان اسم مختلف. عن آخر للتعريف والإظهار والتبيين. إنه أداة التحكم الأولى في الإنسان، الأولى للسيطرة عليه وتيسير وتسهيل قيادته ليصير منقاداً لما أريد له .. ومع تشابك وتعقد أدوات الحياة والصناعة والتكنولوجيا أصبحت هناك أدوات أخرى للسيطرة على الإنسان بعمومية في شتى بقاع المعمورة أو الدول على وجه التحديد، فهناك الإعلام، وهناك المنع، وهناك الحجز،.. وهناك الشائعات، والتجويع، والتخويف..، وكلها أساليب للقبض على حركة الإنسان وتدجينه.

للجماد أيضاً وللمخترعات والأدوات الصغيرة والكبيرة ولكل مادة منتجة في الوجود أداة للسيطرة عليها والتحكم فيها لتحسين الأداء أو لأداء وظيفتها التي اختُرعت من أجلها وما أريد لها لتكون طيعة في يد صانعها.

حتى الحيوان المدجن الذي خلقه الله لخدمة الإنسان له مقبض للتحكم فيه والتعرف عليه.. لكل حيوان مدجن: جمل، حصان، حمار، بقرة، مقود للتحكم فيه والسيطرة على قوته المسخرة للخدمة.. الحبل المربوط في رقبة الحيوان مقبض مهم للسيطرة والتدجين ولخشوع الحيوان لأوامر مالكه... وحينما يكون قوياً وهناك احتمال لعدم السيطرة التامة يتم عمل اللجام للحصان والحمار والبغل زيادة في القبض والسيطرة والتحكم في حركته.. وللحيوانات الأكثر شراسة يتم عمل خطام مقود أكثر صرامة في التحكم يبدأ من منخار الثور حتى يكون التحكم أكثر نفعاً، وكذلك خطام الجمل الذي يكون شرساً وصعب المراس.

الباب العظيم له مقبض عبارة عن أداة صغيرة بارزة فيه أو هي جزء منه، من معدن أو خشب مرتبة الشكل لتؤدي دورها الوظيفي من ناحية ودورها الجمالي من ناحية أخرى. المقبض هو أداة قيادة الباب ويجعله منصاعاً للأمر الإنساني للقيام بواجبه ووظيفته وفق الحالة ومقتضيات الأمر. هذا المقود تبدلت أشكاله على مدار السنين وأحواله، هو يتخذ شكلاً من أشكال الوجاهة الاجتماعية أيضاً لدى أبواب أصحاب الجاه والسلطة والمقتدرين مادياً فيمكن أن تكون هذه من معادن ثمينة وغالية كالذهب مثلاً، مثلما نرى في قصور الأثرياء والملوك وأصحاب الثروات الضخمة كما أنه يتخذ أشكالاً جمالية توحي بالذوق والحس الفني الرفيع كأن يكون على شكل طائر أو أيقونة أو زهرة أو شكلاً تراثياً جميلاً من صنع فنان يمتلك موهبة التخيل ورصد ونقل كل جميل ليصبح صاحب الباب أو المار منه مندهشاً بإبهار الصنعة والشكل والمادة المصنوع منه المقبض وقيمته الفنية والمادية . في قصص الخيال التراثية، سنجد مقبض الباب من خيال مجرد، كلمة تسهم في السيطرة على أبواب ضخمة وتبهرنا قصص ألف ليلة وليلة بشكلها وضخامتها وأحياناً عدم وجودها في الظاهر. ولنا في قصة علي بابا والأربعين حرامي مثال مهم على بذاخة الخيال للتحكم في أبواب ضخمة تغلق أماكن واسعة في جبل أو أن الباب نفسه جزء من الجبل الذي يحوي مغارة فخمة الاتساع كبيرة المساحة. ومجرد كلمة يطلقها زعيم العصابة التي تمتلك المغارة تفتح أبوابها بكل أساطير كنوزها من ذهب وفضة ومعادن ثمينة زمرد وياقوت و غيرها.

«افتح يا سمسم» هذه الكلمة الساحرة هي مقود ومقبض على أثرها ينزاح باب كبير غير مرئي، تقربنا لينهمر الضوء إلى داخل المغارة وينزاح الباب الكبير، «افتح يا سمسم» هي مقبض خيالي لباب خيالي - في قصة عظيمة من تراثنا الخالد. ولكن الأكثر خيالاً هو ما نشاهده الآن وأن كلمة «افتح يا سمسم» تحولت بواسطة التكنولوجيا الحديثة إلى واقع في زر أو في أداة صغيرة إلكترونية غير ظاهرة في الباب وغير مركبة فيه ولا تشكل جزءاً منه مثل مقبضنا الذي نتحسسه ونلمسه ونمسك منه بأيدينا لنقود الباب نحو انحنائه لنا والقيادة وانصياعه في خضوع لينفتح أو ينغلق وأصبحت ضغطة زر من آلة صغيرة جداً في يدنا تجبر هذا الباب على الخضوع . وكأن «افتح يا سمسم» الخيالية والكلمة المسموعة تتحول إلى تيار سري إلكتروني ودوائر كهربائية غير مرئية تحرك الباب وتفتح مصارعيه وتهيئنا للخطوة التالية الدخول أو الخروج .

المقبض المحسوس في زمن التكنولوجيا يتحول إلى كهرباء وأيونات وأشياء غير مرئية. وسبحان مطوّر الحياة والكون والوسائل لنرى العجب حتى في مقبض الباب ■

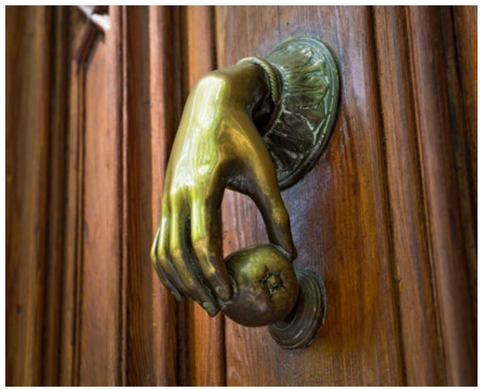

إمارة الشرق العربي المملكة الأردنية الهاشمية

ضياء الدين الحفناوي

المملكة الأردنية الهاشمية التي غالباً ما يشار إليها ببساطة باسم (الأردن) وهي قطعة من وطننا العربي الغالي والمحببة للكثير حول العالم، وتاريخ الأردن أو إمارة الشرق العربي كمان كان يطلق عليها في السابق يعود إلى آلاف السنين، ويمكن إرجاع إنشاء المملكة الأردنية الهاشمية الحديثة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى وتفكك الإمبراطورية العثمانية فمن قبل الحرب العالمية الأولى كانت المنطقة التي تُعرف الآن باسم الأردن جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، حكم العثمانيون المنطقة لقرون عدة لكن سيطرتهم بدأت تضعف مع انتشار الحركات القومية في جميع أنحاء العالم العربي، وخلال الحرب العالمية الأولى اندلعت الثورة العربية في شبه الجزيرة العربية ضد الدولة العثمانية، قاد التمرد القوميون العرب بمن فيهم الشريف حسين بن علي الشريف الهاشمي في مكة وتلقت الثورة دعماً من البريطانيين الذين سعوا إلى إضعاف الإمبراطورية العثمانية، آنذاك، وتم توقيع اتفاقية (سايكس بيكو) في عام 1916 التي تمت سراً بين بريطانيا وفرنسا وقسّمت الأراضي العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية وقوض هذا الاتفاق تطلعات القوميين العرب إلى دولة عربية موحدة.

ففي الفترة ما بين عامي 1915 و1916، تم تبادل الرسائل بين شريف حسين بن علي والسير هنري مكماهون المفوض السامي البريطاني في مصر وأعرب البريطانيون في هذه الرسائل عن دعمهم لاستقلال العرب مقابل المساعدة العربية ضد العثمانيين، ومع ذلك أصبح تفسير المراسلات لاحقاً نقطة خلاف، ولاحقاً تم انتداب عصبة الأمم للأرض العربية في ذلك الوقت بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى وأصبحت المنطقة تحت سيطرة قوات الحلفاء ومنحت عصبة الأمم بريطانيا انتداباً على المنطقة المعروفة باسم شرق الأردن في عام 1920. شملت منطقة شرق الأردن المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن بما في ذلك ما يُعرف الآن بالأردن. وفي عام 1921 عينت بريطانيا عبد الله بن حسين الابن الثاني للشريف حسين أميراً على شرق الأردن وينتمي عبد الله إلى الأسرة الهاشمية التي تنحدر من النبي محمد صلي الله عليه وسلم ولها صلات طويلة الأمد بالثورة العربية وتأسست الإمارة ككيان شبه مستقل تحت إشراف بريطاني على مر السنين. وقد اكتسبت منطقة شرق الأردن تدريجياً المزيد من الحكم الذاتي وفي عام 1946 نالت استقلالها التام عن بريطانيا وأصبحت المملكة الأردنية الهاشمية وأصبح عبد الله بن حسين أول ملك للبلاد. وقد واجه الملك عبد الله الأول العديد من التحديات بعد الاستقلال الأردن بما في ذلك الصراعات مع الدول المجاورة، وشاركت الأردن في الحروب

العربية - الإسرائيلية بما في ذلك الحرب العربية - الإسرائيلية عام 1948 التي احتلت خلالها الضفة الغربية. انتهت سيطرة الأردن على الضفة الغربية خلال حرب الأيام الستة عام 1967 وشهدت المملكة الأردنية الهاشمية منذ إنشائها تغيرات سياسية واجتماعية وتطورات اقتصادية وتحديات إقليمية فظلت الملكية الهاشمية ركيزة أساسية لاستقرار البلاد، ولعب الأردن دوراً مهماً في الشؤون الإقليمية ومبادرات السلام في الشرق الأوسط.

التراث الثقافي والشعبي

الأردن بلد ذو تراث ثقافي غني وشعور عميق بالتقاليد تتأثر عاداته وتقاليده بجذوره العربية والإسلامية وتاريخه المتنوع وتأثيراته الإقليمية، يُعرف الأردنيون بكرم ضيافتهم والضيوف محترمون للغاية ويتم الترحيب بهم بأذرع مفتوحة ومن المعتاد تقديم الطعام والمشروبات للضيوف ويبذل الأردنيون جهوداً كبيرة لجعل ضيوفهم يشعرون بالراحة والتقدير، ويعرف عن الأردنيين عند مقابلة شخص بمبادرتهم بتبادل التحيات، وتعد المشاركة في الوجبة الغذائية جزءاً مهماً من الثقافة الأردنية، وغالباً ما يتم تقديم المأكولات الأردنية، مثل: المنسف وهو طبق بدوي تقليدي مصنوع من لحم الضأن المطبوخ في صلصة الزبادي المنعشة ويقدم فوق طبقة من الأرز، ويتم الاستمتاع به عادةً خلال المناسبات الاحتفالية والفلافل والمقلوبة على الطراز العائلي. والإسلام هو الدين السائد في الأردن، وتؤثر التقاليد الإسلامية بشكل كبير على عادات وممارسات البلاد. وتعد الآداب الاجتماعية واحترام كبار السن وشخصيات السلطة محل تقدير كبير في المجتمع الأردني، وما زالت الملابس التقليدية في المناسبات الخاصة والعامة والثقافية من العادات الاجتماعية المهمة، وغالباً ما يرتدي الرجال رداءً أبيض طويلاً يسمى «الدشداشة» أو «الثوب»، بينما ترتدي النساء الفساتين الملونة والمطرزة المعروفة باسم «الجلابيات» أو «الثوب». والزواج والأسرة يلعبان دوراً مركزياً في المجتمع الأردني وتحظى الروابط الأسرية القوية بتقدير كبير. ويعد الفولكلور الأردني بما في ذلك الموسيقى والرقص التقليدي جزءاً مهماً من التراث الثقافي وتستخدم الآلات الموسيقية التقليدية، مثل: العود (العود) والمجوز(الناي الطويل المزدوج) بشكل شائع في عروض الموسيقى الشعبية، ومن المهم ملاحظة أن العادات والتقاليد قد تختلف باختلاف المناطق والمجتمعات داخل الأردن. بينما يعتنق العديد من الأردنيين الحداثة ويستمر الاحتفال بهذه العادات والتقاليد والاحتفاء بها مما يسهم في النسيج الثقافي الفريد للبلاد.

النشاط الاقتصادي

تعتبر الصناعات الدوائية والطبية من أكبر الصناعات في الأردن، حيث يمتلك الأردن قطاعاً قوياً للصناعات الدوائية والطبية مع وجود العديد من الشركات التي تنتج المنتجات الصيدلانية والأجهزة الطبية وغيرها من المنتجات المتعلقة بالرعاية الصحية. كما برزت الأردن كمركز إقليمي لتكنولوجيا المعلومات وخدمات تعهيد العمليات التجارية، حيث إن الدولة تمتلك قوة عاملة متعلمة جيداً، وتقدم الشركات خدمات مثل تطوير البرمجيات والاستعانة بمصادر خارجية لتكنولوجيا المعلومات ومراكز الاتصال. وتتمتع الأردن، رغم مناخها الجاف بقطاع زراعي مزدهر حيث تنتج الفواكه والخضروات والزيتون والحبوب، كما تشتهر بإنتاج زيت الزيتون والتمر بنوعياته عالية الجودة.

ولدى الأردن صناعة النسيج التي تصنع الملابس، والمنسوجات، والملابس الجاهزة للأسواق المحلية والدولية، وتستفيد الدولة

من قربها من الأسواق الرئيسية واتفاقيات التجارة التفضيلية، وتشتهر في مجال التعدين والفوسفات أيضاً، ويمتلك الأردن احتياطيات كبيرة من الفوسفات وهو مورد طبيعي رئيسي، وتلعب صناعة التعدين دوراً مهماً في اقتصاد البلاد، حيث تسهم في الصادرات والتوظيف، ويستمر اقتصاد الدولة في التطور والتنويع مدفوعاً بمختلف القطاعات والمبادرات التي تهدف إلى تعزيز النمو الاقتصادي والتنمية.

أرض العجائب

الأردن بلد غني بالعجائب الأثرية والطبيعية ما يجذب السياح من جميع أنحاء العالم، وتعد البتراء جوهرة تاج صناعة السياحة الأردنية، وموقع تراث عالمي لليونسكو، وتتميز المدينة النبطية القديمة المنحوتة في تشكيلات صخرية وردية اللون بالخزانة الشهيرة (الخزنة) والدير (الدير) والعديد من المعابد والمقابر والمباني الأخرى، وهي مدينة قديمة لها تاريخ رائع يمتد لأكثر من ألفي عام ويعود تاريخ البتراء إلى القرن الرابع قبل الميلاد عندما تم تأسيسها كعاصمة للمملكة النبطية، وكان للأنباط حضارة عربية سيطرت على جزء كبير من طرق التجارة في المنطقة وخاصة تجارة البخور المربحة في ذلك الوقت وازدهرت البتراء كمركز للتجارة وأصبحت نقطة التقاء مهمة لطرق تجارة القوافل التي تربط شبه الجزيرة العربية ومصر وسوريا ومناطق أخرى ما مكّن الموقع الاستراتيجي لمدينة الأنباط من تجميع الثروة والنفوذ. وطوّر الأنباط مهارات معمارية وهندسية رائعة ونحتوا هياكل ومقابر متقنة في منحدرات الحجر الرملي ذات اللون الوردي المحيطة بالبتراء والمبنى الأكثر شهرة في البتراء هو الخزانة (الخزنة) التي كانت بمثابة ضريح كما تضم المدينة معابد ومسارح وقنوات مائية ونظام متقدم لإدارة المياه. في عام 106 للميلاد ضمت الإمبراطورية الرومانية المملكة النبطية وضمت البتراء إلى مقاطعة شبه الجزيرة العربية - الرومانية واستمرت البتراء في الازدهار في ظل الحكم الروماني، وأضاف الرومان هياكل جديدة بما في ذلك مسرح كبير وشوارع ذات أعمدة ومع الوقت تدنت أهمية البتراء تدريجياً مع تحول طرق التجارة وتحول السلطة السياسية إلى مكان آخر، وتأثرت المدينة بالزلازل، وواجهت ثروات اقتصادية متدهورة، وبحلول القرن السابع الميلادي ومع ظهور الإسلام وانهيار الإمبراطورية البيزنطية أصبحت البتراء مهجورة إلى حدٍّ كبير وأصبحت في النهاية مدينة منسية. وبعد قرون من الغموض لفت المستكشف السويسري

(يوهان لودفيج بوركهاردت) انتباه العالم الغربي إلى البتراء في عام 1812، وأثارت كتاباته ومخططاته الاهتمام وأدت في النهاية إلى أعمال التنقيب عن الآثار واستكشاف الموقع وفي عام 1985 تم تصنيف البتراء بسبب أهميتها الأثرية والثقافية الاستثنائية كموقع للتراث العالمي لليونسكو يجذب السياح من جميع أنحاء العالم الذين يأتون للاستمتاع بهندسته المعمارية المذهلة والتعرف على تاريخه القديم، واليوم لا تزال البتراء واحدة من أكثر المواقع الأثرية شهرة على مستوى العالم حيث تجذب الزائرين بهندستها المعمارية الرائعة المنحوتة في الصخور بما في ذلك الخزانة والدير والمقابر الملكية وغيرها من الهياكل الرائعة وهو يمثل شهادة على الإبداع والإرث الثقافي للأنباط ويشكل موقع مدينة البتراء رمزاً دائماً للتراث التاريخي الغني للأردن. وتتميز مدينة جرش الواقعة في الأردن أيضاً بتاريخ ثري يعود إلى آلاف السنين، حيث كانت جرش مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري الحديث ومع وجود أدلة على وجود مستوطنة بشرية يعود تاريخها إلى نحو 7500 قبل الميلاد، ما جعل الموقع الاستراتيجي للمدينة على طول طرق التجارة منها مركزاً مهماً للتجارة والتبادل الثقافي. وبلغت مدينة جرش أوجها في العصر اليوناني - الروماني وكانت تعرف باسم (جراسا) وأصبحت واحدة من المدن العشر في ديكابوليس وهي عصبة من المدن الهلنستية - الرومانية في المنطقة وتحت الحكم الروماني، وازدهرت جراسا كمدينة إقليمية وأصبحت مركزاً رئيسياً للتجارة والزراعة والفنون. وخلال القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي شهدت جراسا تطوراً حضرياً كبيراً، وأقيمت هياكل رائعة بما في ذلك المسارح والمعابد والشوارع ذات الأعمدة والساحات العامة، وتعكس الهندسة المعمارية الرائعة للمدينة تأثير كل من الطرز اليونانية والرومانية، وفي القرن الرابع الميلادي أصبحت المسيحية هي الديانة السائدة في المنطقة، وشهدت جراسا فترة من التنصير وتم بناء العديد من الكنائس والمباني الدينية خلال العصر البيزنطي وأصبحت المدينة موقعاً مهماً للحج المسيحي أيضاً. وفي القرن السابع الميلادي تحررت جراسا على أيدي الفتوحات الإسلامية بقيادة الخلافة الراشدة، وأصبحت المدينة جزءاً من الخلافة الإسلامية وشهدت وعانت جرش من الزلازل المدمرة في القرن الثامن والفترات اللاحقة ما تسبب في أضرار جسيمة لمبانيها وبنيتها التحتية، وانخفض عدد سكان المدينة تدريجياً وغرق المكان في الغموض. وأعيد اكتشاف جرش في القرن التاسع عشر الميلادي من قِبل المستكشفين الأوروبيين، وبدأت الحفريات الأثرية في أوائل القرن العشرين وبُذلت جهود مكثفة للكشف عن الهياكل الرائعة للمدينة القديمة وترميمها. واليوم تقف مدينة جرش القديمة كواحدة من أفضل مدن المقاطعات الرومانية المحفوظة في العالم لجذب السياح من جميع أنحاء العالم الذين يأتون للاستمتاع بهندستها المعمارية المذهلة والمحفوظة جيداً مثل: (قوس هادريان ومعبد أرتميس والمسرح الجنوبي)، ويعد مهرجان جرش حدثاً ثقافياً سنوياً يُعرض من خلاله الموسيقى والرقص والعروض المسرحية على خلفية المدينة القديمة ويسلط الضوء على تراث المدينة التاريخي والثقافي الغني. وهناك العديد والعديد من المواقع السياحية والتارخية الجذابة في الأردن أيضاً، مثل: عمّان عاصمة الأردن التي تقدم مزيجاً من مناطق الجذب القديمة والحديثة، وتوفر قلعة عمّان بمسرحها الروماني القديم والقصر الأموي إطلالات بانورامية على المدينة. وتتميز منطقة وسط المدينة المعروفة باسم (البلد أو السوق) بالصخب وبكثرة المحال التجارية والحركة وهي مملوءة بالأسواق والمطاعم والمقاهي والمعالم التاريخية، والبحر الميت أيضاً وهو عبارة عن بحيرة مياه مالحة معروفة بمحتواها العالي من الملح وطفوها الفريد ما يسمح للزوار بالطفو على سطحها دون عناء، ويُعتقد أن الطين الغني بالمعادن الموجود في المنطقة له خصائص علاجية. ويعد البحر الميت مكاناً شهيراً لمنتجعات العافية والمنتجعات الصحية أيضاً، وهناك منطقة (مادبا) وتشتهر مادبا بفسيفساء العهد الأموي والبيزنطي وأهم ما يميزها (خريطة مادبا الشهيرة) وهي خريطة فسيفساء من القرن السادس للأراضي المقدسة معروضة في كنيسة القديس جورج للروم الأرثوذكس، وتعد المدينة موطناً للكنائس القديمة والمواقع الأثرية الأخرى، ويوجد كذلك قلعة عجلون وهي قلعة إسلامية من القرن الثاني عشر تقع في شمال الأردن وتوفر إطلالات بانورامية على المناطق الريفية المحيطة، وتقدم نظرة ثاقبة للعمارة العسكرية العربية في العصور الوسطى، ومحمية ضانا وهي محمية طبيعية تعطي لمحيطها الحيوية وتضم مجموعة متنوعة من المناظر الطبيعية من الجبال الوعرة إلى الأخاديد العميقة.

فهي موطن لأنواع نباتية وحيوانية مختلفة يتمتع زائرها بمسارات للمشي لعشاق الطبيعة لمسافات طويلة جهزت لممارسة هذه الرياضة المحببة، ومدينة العقبة وهي مدينة ساحلية تقع على البحر الأحمر تمتلك شاطئاً جميلاً يمنح مرتاديه فرصاً للغوص والغطس وتشتهر شعابها المرجانية بالتنوع البيولوجي والحياة البحرية النابضة بالتنوع، ومدينة العقبة تشكل نقطة اتصال للوصول إلى صحراء وادي رم القريبة منها. وهذه المناطق والمدن كلها ليست سوى عدد قليل من الأماكن السياحية العديدة التي تجعل من الأردن وجهة رائعة من المناظر الطبيعية والتنوع التاريخي والتراثي للمنطقة وكرم الضيافة لخلق تجربة سفر فريدة من نوعها ■

* كاتب مصري

إعداد: نايلة الأحبابي

في كل «فرعا» نايف

سعيد بن راشد بن عتيق الهاملي

فـــي كـــل "فرعـــا" نايـــف
اتحـــــــرّاني رقـــــــيت
والزيـــــن عـــــني طايـــف
عليـــــه مـــا بـــــــدّيت
يـــــا مسمّـــر العكايـــــف
رحّبـــت بـــــك حـــــيت
ترحـــــيب ركـــب طايـــف
ليلـــــة مـــــزار البـــــيت
يـــــوم انويـــت النكايـــــف
واختـــــرت امّـــــا بغـــــيت
مـــن تابعـــــت الخفـــايف
عنـــك الوصـــــل كفّـــيت
شـــلّك مـــــــوي الوزايـــف
كـــل مـــن خطفـــت ارفـــيت
عقبـــك مانـــــا بمسايـــف
فـــي كـــــل براذريـــــت

القصيدة للشاعر سعيد بن راشد بن عتيق الهاملي، ولد في منطقة الظفرة في أبوظبي عام 1300 للهجرة، وكان شاعراً جزلاً متميزاً بالبحور الشعرية العريقة وبالفنون المحلية كالطارق والونة. يقول الشاعر في هذه القصيدة أن كل ما ارتفع عن الأرض من قمة جبل يسعى للوصول إليها ويشرف منها، وقد يكون مجازاً في أنه يقول كلما اعتقدتُ أني وصلت إلى غايتي بلقاء من يسموبي محبة وقدراً إلا أنه ليس كما ظننت. فالشاعر مجازاً شبه الوصول للغاية بالصعود إلى القمة وهذا ما يميز شعره بعمق المعنى وترادف الأفكاروتجانسها حتى توافق المعنى واللفظ في النظم للقصيدة.

ثم يقول وفي أثناء ذلك يمرّه الزين يقصد هنا محبوبته الذي يصفها بالجمال والحسن والتي يجعلها دائماً في الأولوية قدراً وتعاملاً، ثم يرحب بها ويصفها فيقول «يا مسمر العكايف» أي يا صاحبة الشعر الطويل الأسمر أهلاً وسهلاً وترحيباً يليق بمقامك، كترحيبنا بركب الحجيج العائدين من مكة المكرمة، وقد زاروا البيت الحرام تحية فيها من الشوق والابتهاج والاحتفاء بهم، ثم يعاتبها على الرغم من أنه خيّرها واختارت ما تبتغيه، وكان مغدقاً عليها بالعطاء، حتى بدر منها ما جعله يبتعد عنها لمجالستها مع من لا يودّ منها مجالستهم؛ فابتعد عنها ولم يصلها بتة، ثم يدعو معاتباً بقوله شلك الموج لأنك كل ما مريت علي رفيت جروحي وأصلحت حالي وسعدت برؤيتك، فما زالت مكانتك وقدرك رغم الابتعاد تورث النفس جروحاً لا تبرأ، وبعدك لن أسايف ما بي وأمسكه، بل سأذري وأرمي ما فيني من دموع أوشجن أوعتاب. ويبقى أن نقول، تمتازهذه القصيدة بجزالة المعنى ووضوح اللفظ وعمق المغزى وقوّة البيان، وفيها من المحسنات البديعية والمجازية ما يجعلها خصبة المعنى العميق والمفردة المحلية العريقة.

المفردات:

فرعا: المكان المرتفع. نايف: قمة الجبل. إتحراني: أظن بأني. رقيت: صعدت. ما بدّيت: أي أنت صاحب الأولوية فليس قبلك أحد. مسمّر العكايف: صاحب الجدايل السمر الطويلة. ركب: قوافل الحجيج. مزار البيت: يذهب للحج. النكايف: البُعد. الخفايف: هنا يقصد الجاهل من الناس. كفّيت: كففت وابتعدت. موي الوزايف: الموج القوي. خطفت: مريت. ارفيت: يرفي الشيء يصلحه.

ارتياد الآفاق

من الرحلات العربية إلى تركيا

رحلة أعيان اليمن إلى إسطنبول 1907م

محمد عبد العزيز السقا

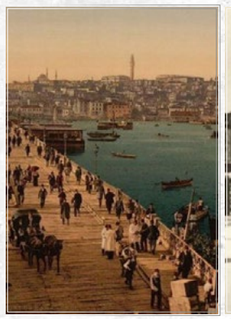

من الرحلات العربية إلى تركيا

رحلة أعيان اليمن إلى إسطنبول 1907م

محمد عبد العزيز السقا

في عام 1872 صدرت أوامر الأستانة إلى أحمد مختارباشا، القائد التركي في الحديدة، بالتوجه إلى صنعاء على رأس قوة عثمانية، وبعد بسط سيطرتهم على المناطق اليمنية استشرى الفساد ما أشعل نيران الثورات التي وصلت أخبارها إلى الباب العالي فأراد السلطان عبد الحميد أن يستطلع حقيقة الأوضاع في اليمن فأرسل نامق بك في عام 1892م/ 1310هـ بهدف التعرف على أسباب الثورة، وقد أقام المبعوث السلطاني مدة في اليمن واستمع إلى شكاوى اليمنيين من ظلم الولاة وبطشهم، لكن هذه المحاولة لم تُجْدِ وعاد الوالي أحمد فيضي إلى ظلمه، فأعادت الدولة العثمانية المحاولة في العام نفسه، وأرسلت أربعة عشر رجلاً للتفتيش على الوالي والمأمورين الأتراك في اليمن، وأقام هذا الوفد مدة وعاد بالأخبار عن الفساد والقحط والجدب إلى الأستانة، وبعد ذلك عُزل أحمد فيضي ووُلِيَ بدلاً منه حسين حلمي باشا فاستبشر اليمنيون بحكمه خيراً، وقام بأعمال كثيرة لصالح الأهالي، فمنع الرشوة ورد المظالم، وقد أغضبت تصرفات حسين باشا الموظفين الأتراك بسبب تقلص نفوذهم فتآمروا عليه وتم عزله وتسلم بدلاً منه الوالي عبد الله باشا، لكن اليمنيين لم ينعموا بالأمن والسلام في عهده، واستشرى الظلم والفساد، واشتد الجدب وارتفعت الأسعار، وفي هذه الأثناء توفي الإمام اليمني المغفور له محمد بن يحيى حميد الدين وذلك عام 1904م/ 1322هـ، وتولى ابنه يحيى الإمامة وبدأت بذلك مرحلة جديدة من العلاقات بين اليمنيين والعثمانيين حيث نشب نزاع دام فترة بين الجانبين، فدعا الإمام يحيى إلى الجهاد ضد العثمانيين.

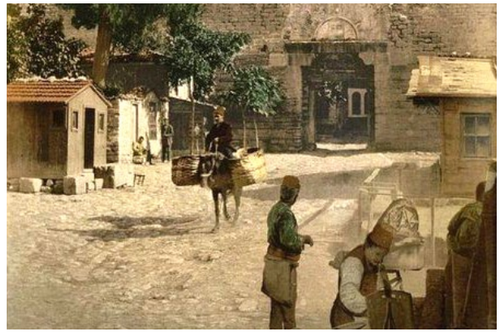

وقد حاولت الدولة العثمانية السيطرة على الأوضاع في اليمن فأرسلت فيضي باشا لإعادة الأمور إلى نصابها، لكنه لم يتمكن من ذلك وأُنهكت قواته، فعادت الدولة العثمانية للمفاوضات مجدداً من أجل التوصل إلى اتفاق صلح مع الإمام يحيى لكنه فرض شروطاً كثيرة لم تقبل بها الدولة العثمانية، وقامت بإرسال الوفود لاستطلاع الأوضاع في اليمن، وكان من هذه الوفود وفداً من كبار علماء مكة في منتصف عام 1907م/ 1325هـ، من أجل حث الإمام يحيى على وقف قتال الأتراك، وعقد صلح مع الدولة العثمانية، وإثر ذلك قامت الدولة العثمانية باستبدال الوالي فيضي باشا وأرسلت بدلاً عنه حسين تحسين باشا، وقد صلحت في أيامه أحوال اليمن، وعندما رأى السلطان العثماني النجاح النسبي لسياسة التهدئة التي انتهجها الوالي حسين تحسين باشا حاول تحقيق التفاهم التام مع اليمنيين فطلب السلطان عبد الحميد وفداً من كبار رجال اليمن من العلماء والأعيان للسفر إلى الأستانة ليتباحثوا فيما يصلح أحوال اليمن، فكان تشكيل هذا الوفد الذي سافر إلى الأستانه عام 1907م/ 1325هـ، ومن ضمن الوفد العلامة محمد بن حسين بن علي بن الحسين بن يحيى غمضان، الذي دوّن مراحل الرحلة التي بين أيدينا اليوم.

مؤلف الرحلة:

هو محمد بن حسين الكبسي، الملقب غمضان، ولد في جمادى الأولى عام 1277هـ، وأخذ العلم عن والده، وعن رئيس العلماء السيد أحمد الكبسي، وجماعة من علماء زمانه، تحقق في الفقه، وكان عالماً كريم الأخلاق، جميل الصوت، تولى نظارة الأوقاف أيام الحكم العثماني لليمن، وعيّنه الإمام يحيى حاكماً بقضاء ذمار، ثم في ريمة، وفي عام 1343هـ، تم تعيينه حاكماً للواء الحديدة، ثم لحكومة سنحان، وقد توفي في ذي القعدة عام 1358هـ، ورثاه القاضي عبد الكريم بن أحمد مطهر بقصيدة مطلعها:

هـــــي المنايـــا إذا جـــاءت فعقبـــان
تَصِيْـــد والصَّيـــد أحباب وخِـــلاَّن
يا حـــادث الدهـــر قد أوجعـت أفئـــدة
وصِلْتَ صَـــوْلةِ قِـــرْن وهو غضبـــان

الرحلة:

توجه الوفد من صنعاء عن طريق متنة ومناخة إلى الحديدة للاستعداد للذهاب إلى تركيا عن طريق البحر، وكان ذلك يوم 6 من شهر ربيع الآخر 1325هـ/ 1907م، وتستمر به المراحل متتابعة حتى يصل إلى الحديدة، وفي الحديدة يستقر الركب، ويجتمع الوفد الكبير مع والي الحديدة وينزل بضيافته، وبعد أيام يقلهم المركب البخاري إلى عاصمة الخلافة العثمانية، حيث توجه أولاً إلى السويس، وكانت الرحلة سهلة ومواتية كما يصفها رحالتنا، وتمر بهم السفينة من ميناء إلى ميناء حتى وصلوا إلى موضع يسمى «شنق» وهناك مكثت السفينة بهم برهة حتى يصلهم فيها تجار من اليهود للبيع والشراء ويقوم بعض أعضاء الوفد بشراء القماش والأجواخ منهم.

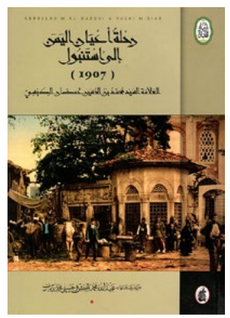

الوصول إلى إسطنبول

وما إن يصل رحالتنا إلى إسطنبول، التي يسميها دار السعادة، حتى تبهره أضواء المدينة بهرجها

الحضاري وكأنه دخل عالماً ليس له عهد به من قبل، ويصف الفندق الذي نزل فيه الوفد وما لاقوه من حفاوة الاستقبال إذ جعلوا لكل واحد منهم نزلاً خاصاً به بجميع ما يحتاجه، وقد احتفت بهم الدولة العثمانية، وجعلت بين أيديهم جماعة من الخدم يلبون طلباتهم، وقد وصف رحالتنا كل ما شاهده باندهاش وكأنه طفل صغير بهره ما رآه.

زار الوفد «دار المصَّورين» التي تعني المتحف العسكري، وكذلك زاروا نُزهاً وفُرجاً عدة في إسطنبول ومن ذاك موضع يسمى «ظلة بعجة»، حيث شاهدوا فيه أنواع العجائب من المفروشات والقناديل المصنوعة من البلور والفضة وجميع المصورات في جدران هذا الموضع وهي مطلية بالذهب.

وتكتمل الدهشة ويبلغ التعجب منتهاه عندما يقف رحالتنا على بعض مستحدثات العصر الحديث من مصانع ومستشفيات وقد أخذهم المكلفون بصحبتهم لمشاهدة بعض معالم إسطنبول الحضارية، والأسطول الحربي فيقف صاحبنا منبهراً مما شاهده، وفي نزهة أخرى يذهب الوفد اليمني لمشاهدة المصانع ويتأمل في آلاتها ومعداتها.

أما حديقة الحيوان فله معها وقفة طويلة تحدّث عنها بإسهاب، ثم يخرج لزيارة المتاحف وأغلبها مما يؤرخ لعظمة الدولة العثمانية وأبهتها، ويدخل المتحف العثماني ويقف على صور وتماثيل ملوك آل عثمان، ويدخل كذلك موضع التحف القديمة.

كل ذلك تنقله لنا سطور رحلة العلامة محمد بن غمضان مع وفد أعيان اليمن بدهشة مفتوحة، وانبهار لا ينقطع مما شاهده وجرّبه في رحلته المثيرة، التي لا تدوّن مشاهدات الرحلة فقط، بل تدوّن في الأصل انطباع العين الطريفة والإنسان اليمني بفطرته البسيطة وانفعالاته عندما يرى الغريب والمبهر في مقاربة تشبه

أحدث التقنيات في السينما البصرية اليوم.

من الرحلة:

وصل وفد السلطان التركي إلى اليمن ليطلب انتخاب وفد اليمن الذي سيسافر إلى إسطنبول، وقد وثقت الرحلة لنا جانباً من خطاب السلطان وجانباً من ترتيبات الاختيار ومنها:

«.... فها قد وصلنا إلى صنعاء لإيفاء هذه الوظيفة المهمة، وأجرينا التبليغات اللازمة إلى من يلزم ونشعر إليكم من حضرة مولانا السلطان الأعظم بأن تنتخبوا منكم من تعتمدون عليه وترسلوه إلى طرفنا، وحيث أنتم ... ندعوكم من طرف مولانا السلطان الأعظم بوصولكم إلى طرفنا سريعاً للسفر إلى دار السعادة مع الذوات المومى إليهم، وبعد هذه المذاكرات اللازمة تعودون إلى محلاتكم، والسلام...».

وبالفعل جرى انتخاب أعضاء الوفد اليمني للسفر إلى إسطنبول تقول الرحلة:

«... ثم في خلال ذلك وقع انتخاب ذوات معلومين من مركز الولاية، ومن لواء صنعاء للدخول صحبتهم إلى دار السعادة فالمنتخبين

من صنعاء»، ثم يقول: ومن بعد الانتخاب لهؤلاء أعطونا إكرامية كفاية لبيوتنا ومصروف طريقنا إلى الحديدة فقط، وأما من الحديدة إلى دار السعادة فالكفاية التامة من حضرة السلطان حفظه الله.

وبعد ذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الأول عزموا مع الهيئات المشار إليهم: محمود أسعد أفندي، والفريقان المذكوران، والقائم مقام عثمان بك والكاتب إلى لواء الشعر لانتخاب الذَّوات الذين من ذمار ويريم، ورداع، ولواء تعز وبقي برفقتنا الميرالاي السيد أحمد الخباني، والقول غاسي فيضي أفندي، وأمروا بأن نبقى بعدهم نحو ثمانية أو عشرة أيام ونتوجه إلى الحديدة لنتلاقى معهم هناك.

بداية الرحلة والخروج من صنعاء

«.... فبقينا في صنعاء إلى يوم الجمعة 5 ربيع الآخر، وعزمنا من صنعاء يوم السبت 6 شهر ربيع الآخر مصحوبين بالصحة والسلامة. وخرج لوداعنا الأصدقاء والأحباب، وكثير من ذوات

صنعاء إلى نقيل عصراً، ورجعوا، ونحن توجَّهنا حتى وصلنا متنة...».

إلى مصر: «.. وشَمَّر البابور نحو السويس في الساعة الخامسة من ليلة الرّبوع، لعله 25 شهر ربيع آخر، وبقينا في البابور قبال السويس إلى الساعة الخامسة من ليلة الجمعة، وشَمّر البابور، ودخلنا «الكنار» حتى وصلنا بورت سعيد....

في إسطنبول: .... ويوم الجمعة (الثالث) من شهر جمادى الأولى، صدرت الإرادة بأن نُصَلّي صلاة الجمعة في الجامع الحميدي في حضور مولانا السلطان الأعظم، وبعد أداء الصلاة ورجوع السلطان إلى سرايته المملوكانية والتفرج على العساكر الشاهنامية والخيول الكثيرة، أمر حضرته بركوبنا فوق العربيات، وعزمنا للتفرج على جامع السلطان أحمد.

مرقد الصحابي أبو أيوب الأنصاري

«.... فقلنا مرادنا زيارة مشهد أبي أيوب الأنصاري ورؤية جامع أيا صوفيا، وغير ذلك فأمروا بعزمنا فوق العربيّات لزيارة قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فعزمنا إلى هناك وهو في طرف

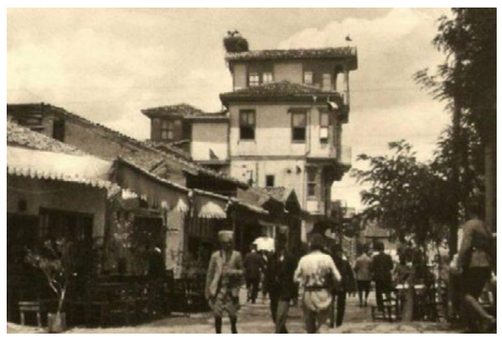

مدينة إسطنبول من الجهة الغربية، ورجعنا إلى دار الضيافة.

السرايا:

«.... ورأينا في السرايا المذكورة أنواع العجائب من المفروشات حتى إن جميع آلاتها وقناديلها من البلور والفضة، ورأينا المصورات كلها في جدرانها مطلية بالذهب من الحيوان والأوادم، وفيها صورة السلطان عبد العزيز وهو راكب على فرس، وصورة السلطان عبد الحميد، وبالجملة فإنها مما تبهر العقول لرؤيتها حتى من الجملة رأينا في ساحتها شذروان يطلع في الهواء مقدار الصومعة وينزل ماؤه كأنه اللؤلؤ بكمال الإحكام والانتظام، ولا ندري كيف صنَعوه، ولعله بالماكينات والآلات المحكمة.

زيارة الخستخانة (مستشفى متطور لعلاج الاطفال) وماكينة عجيبة!

«..... وفي يوم الثلوث 14 جمادى الأولى أخذنا استراحة، ويوم الرّبوع 15 جمادى الأولى ذهبنا إلى «خستخانة» الأطفال واستقبلنا جميع الحكماء والأطبّاء الذين فيها بالترحيب والإكرام وعرضوا علينا آلاتها وعجائبها الغريبة التي من جملتها ماكينة تكشف حقيقة داخل الإنسان بجميع ما في وسطه من العظام والعروق وغيرها...».

في المتحف: «.... رأينا الكرسي الذي غنمه السلطان مراد من ملك العجم مكللاً بالدر والياقوت ومنقوشاً باللؤلؤ وأصله هو والأول من الفضة الخالصة وهو مطلي بالذهب وفوقه قطعة زمرد معلَّقة مثل الخيارة الكبيرة، ورأينا أنواع السلاح من البنادق والسيوف القديمة المكللة بالدّر والياقوت والجواهر، ورأينا جميع السكَّة من الذهب والفضّة من أيّام بني أمية إلى الآن كلّها مرصوفة في الصفوف المعدة لها داخل تخت عليه المرايا الزجاجية بحيث يمكن قراءة ما عليها من نقش الكتابة ومن أي ضربة وأي زمان من الأموية والعباسية وغيرهم من الدول الماضية وحتى سكة السلاطين من آل عثمان المتقدمين والمتأخرين إلى الآن.

ثم نُقلنا إلى مكان واسع فيه سلاطين آل عثمان من أولهم إلى عند السلطان عبد المجيد وهم قائمون على هيئة الرجل القائم بأقدامه من غير تصوير لوجوههم، ولكن كل واحد منهم لابس ملابسه التي لا توجد في زماننا، والعجيب أنها باقية إلى الآن لا تغيرت ولا عثثت وفي أوساطهم سكاكين ممنطقين بها مرصعة بالماس والدر والياقوت وغيرها، وأصل هذه السكاكين حليتهن من الذهب الخالص، وعلى رأس كل واحد من السلاطين العمائم وفيها التاج من الذهب والفضة مكلل بالدر والماس والياقوت وغيره من أنواع الزينة من ابتداء السلاطين إلى عند السلطان محمود وهم بالعمائم، وأما السلطان محمود ففوقه الطربوش لكن مركوز فيه التاج على صفة من قبله من السلاطين العظام.

ثم نقلنا إلى مكان آخر فيه أنواع المجوهرات والأسلحة وغيرها وكلها معلقة، وفي جوانب هذا المكان صور خلفاء بني العباس منقوشة في الورق، ولكن كأنهم سينطقون وهم بهيئاتهم وألبستهم

وعمائمهم من عند السفاح إلى آخرهم، وأحسن من رأيت من الصور صورة المهدي فيه الجمال المفرط والوجه الصبيح المليح.

ثم خرجنا ونقلنا محل الخرقة الشريفة والأمانات فدخلنا إلى قبة فيها جانبان عليهما الزجاج ومن داخل الزجاج جميع الكتب مرصوفة من القاع إلى السقف بحيث يقرأ الإنسان عنوان كل كتاب، ومنها كتب في الفقه والحديث والنحو والتاريخ والتفسير وغير ذلك، قالوا هذه كتب السلاطين المتقدمين والمتأخرين. وأما مكان الخرقة الشريفة فلم يفتحوها لنا حيث هناك موعد ووقت لفتحها ولا تفتح إلاّ في الـ 15 من شهر رجب.

ثم نقلنا إلى دار طويلة عريضة فيها جميع الأشياء العتيقة حق حِمْيَر ومن بعدهم إلى الآن من المصنوعات القديمة والأخيرة وكل ما صنعته الأيدي والاختراعات حتى من الأشياء التي رأيناها مواقيد وجفين مدر وشميل وغيرها من مصنوعات اليمن ومن آلات الزراعة كالشريم والحَلْي ونحوهما ولعلَّها التي أرسلها حسين حلمي باشا. وكذلك مصنوعات كل البلدان من جميع الأوعية والآلات التي لا تعد ولا تحصى.

... ثم نقلنا إلى طارود طويل وفيه صور مختلفة الأجناس كما قيل مَرْكوزة وممدودة من الأحجار البلق والرخام وغيرها من صور ملوك حِمْيَر وملوك الأعاجم والأتراك والإفرنج، ورأينا تابوت الإسكندر وعليه حجر ممدود كأنه سينطق من إحكام صنعة نحته وحوله صور لتماثيل قائمة الذات صغار كالنساء والأطفال،

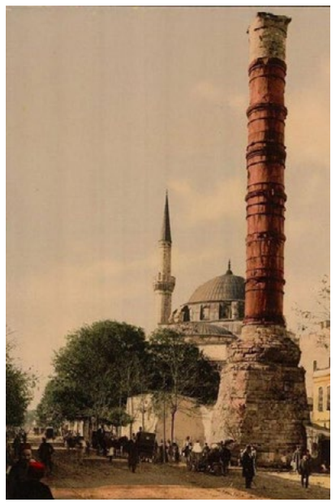

وبعد ذلك خرجنا وركبنا العربات ورجعنا إلى دار الضيافة.

السرايا الخاصة للسلطان: «... أمر السلطان بإرجاعنا إلى بستان سراياه الخاص للتفرج فيه، فرجعنا ودخلناه فرأيناه من جنان الدنيا، الأشجار ملتفة به من كل جانب والبرك الكبار ملآنة بالماء والطيور في الأشجار تُسبّح الملك الغفار، ورأينا فيه الحيوانات المختلفة الألوان، من الجملة: النعام، والكركدن في رأس كل واحد نحو عشرة قرون، والكركدن وهو يشبه البقر، ورأينا الظباء، والغنم، وله ألوان وأشكال، وكذلك جمال الحبشة البخت التي لها سنامين، ورأينا البقر الكبار في وسط جبل كثير، البقرة لو ذبحت لخرج منها ألف رطل لحم لعظم جثتها ومحلها..» ■

* باحث في مجال أدب الرحلة

الهوامش:

1. رحلة أعيان اليمن إلى إسطنبول 1907، تأليف: العلامة السيد محمد بن الحسين غمضان الكبسي، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، وحسني محمد ذياب، من منشورات دار السوبدي 2015.
2. تاريخ اليمن، المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، العلامة الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني، صنعاء: مكتبة اليمن الكبرى، ط2، 1990.
3. معجم الدولة العثمانية،حسين مجيب المصري، القاهرة: مكتبة الإنجلو المصرية، 1989.
4. نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر لمحمد بن يحيى زبارة، تحقيق مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ج2، ص 522.
5. منشورات ارتياد الآفاق- المركز العربي للأدب الجغرافي.

تجربة خلفان بن مصبح الشعرية من منظور نفسي

عادل نيل

إحدى المسلمات التي استقرت في دراساتنا الأدبية والاجتماعية، ومبدأ يثبته الواقع أن نفسية الفرد وأفكاره وانطباعاته عن الوجود الإنساني تتشكل وفق مكونات شاعريته الخارجية، والأصداء التي تكوّن رؤيته الفردية وتجربته الإبداعية، وهو ما يقتضي أن نقف في منطقة محايدة بين الأديب والبحث في بواعث تلك التجربة لنقف على جوهر شخصية المبدع، انطلاقاً من «مُسلَّمة رئيسية مؤداها أن العمل الأدبي يكشف عن جوهر شخصية خالقه»[1]. من هذا المنظور يمكننا أن نقرأ تجربة الشاعر خلفان بن مصبح[2] أحد رواد القصيدة الإماراتية، وثالث ثلاثة جماعة شعراء الحيرة الذين عرفتهم النهضة الأدبية الإماراتية، لكي نقف على الملامح النفسية التي تفسر قسمات تلك التجربة والروافد التي شكلتها، وعمّقت تلك المعاناة الروحية والجسدية التي عكستها تجربة تمتلئ بالوجع الإنساني، وهي تبدأ بمعاناة اليتم، ثم تجربة حب لم يُكتب لها النجاح، ومعاناة مع مرض أنهكه في مستهل شبابه، وألزمه الفراش حتى وفاته في الثالثة والعشرين من عمره لتطوى صفحة تلك المأساة، بعد أن استبد بروحه ملل وسأمة من شقاء خيم على حياته كلها، وجعل الشكوى الملمح الأبرز في تجربته، وهو ملمح يلخص في التعبير عنه حياته كلها[3]:

إلـــى أي شطـــر مـــن حياتـــي أيمّـــمُ
وكـــلُّ الذي فيهـــا ســـمـــومٌ وعلقـــمُ
وما أبتغـــي منهـــا وقِدمـــاً عرفتُهـــا
وقـــد عشـــتُ فيهـــا ناقمـــاً أتـــبرمُ
ومـــا ذقتُ إلا شـــدةَ البؤسِ والبـــلا
فحســـي من دنيـــاي ما كـــنتُ أعلـــمُ

أسئلة تعبّر عن شعور عميق بملازمة مصير حتمي مع المعاناة، تُشكّل معها موقفاً نفسيّاً يأخذ من معجم اليأس مفرداته: (السموم، العلقم، التبرم، النقمة، البؤس، البلا)، ورسمت إجابتُها طريقاً مغلقاً لا يهتدي إلى أي سبيل بعيدة عن ذلك الشقاء الذي أسلمه إلى يأس مطبق لا يعرف خلاصاً منه ولا فكاكاً، حتى استوت لديه الأفراح التي لم يعد ينتظرها والأتراح التي أيقن مع تعاسة حظه أنها مقيمة في ساحته أبد الدهر، فمباهج الدنيا ونوائبها في عينيه سيان، وكأن صخراً يكابد وجعاً أفقده الإحساس بعابر البهجة، بل إن الأشياء استحالت مع تلك المأساة إلى نقيضها[4]:

لو كابـدَ الصخـــرُ ما كابدتُ مـــن كمـــدٍ
لدَكَ مـــن ثقلـــه رضـــوى وثهلانـــا
لو صادفَ المـــاءُ من همّـــي ومن هممـــي
شيئـــاً لأشعـــلَ وســـطَ المـــاءِ نيرانـــا
مهمـــا فعلـــتُ من التبريـــحِ يا زمـــني
أعلـــى وأشـــرف أن أرضـــاكَ مِعوانـــا
يكفـــي زمانـــي بأني فقتُـــه جلَـــدَا
وصلتـــه بجميـــلِ الصـــبرِ ألوانـــا
إنَّ الذي عـــاركَ الأيـــامَ فـــي ثقـــةٍ
ذاك الفـــتى لا الذي أولتـــه إذعانـــا

وربما كانت قوة الشعور بالمكابدة هي المسوّغ لمنح الأشياء نقيض خصائصها، من خلال مفارقة تعبيرية تجسد واقع هذا الفتى الذي يستحيل الماء في معاناته إلى نيران تزيد مأساته احتداماً؛ وهو ما يمنح معنى التجلُّد والثبات في شخصيته عمقاً أكثر، ويكشف عن حدة هذا الصراع النفسي الذي تعانيه الذات. وتزداد تلك العلاقة تأزماً حين تجتمع بواعث أخرى، فلم تكن تباريح المرض وحدها هي العدو الذي أوقد في ذاته مراجل الألم،

وإنما خلقت تجربة الحب الفاشلة مع مرضه ثنائية ألقت على حياته تلك الظلال النفسية الكئيبة، بل إنه «في أكثر من قصيدة يجعل آلامه الجسدية وشكواه جزءاً من معاني عاطفة الحب لديه»[5]، وهي ثنائية جعلته في عداء مع الوجود الذي يرجو الرحيل عنه، فبينما تنهش أنياب المرض جسده الضاوي، تمزق مخالبُ تجربة حب بائسة صدره، فهما لديه صنوان من الوجع والمعاناة:

فيـــا حـــبُ صنـــو السقـــمِ أنت وإنـــني
خلعـــتُ بقائـــي في الوجـــودِ إليكمـــا
حشاشـــةُ روحٍ منكمـــا قد تعذبـــتْ
خذاهـــا فإنني لا أضـــنُّ عليكمـــا
إلى راحةِ البـــاري وغايـــةِ ســـيرِهِ
أحـــنُّ ليشفيـــني خلاصـــي منكمـــا
وأتركَ هـــذا الكـــونَ ينعـــي خرابَـــه
فلستُ عليـــه آسفـــاً متندمـــا

(الديوان، ص47)

وإظهار تلك الصلابة في تحديه وعدم مبالاته بواقع يرجو أن يتركه غير آسف أو نادم عليه، تقف وراءه مواجهة الذات مع هذا الواقع المفروض عليه في مكابدة تركت في النفس ما تركت، ومن ثمَّ فإنه ترتسم في قصائده ظلال من مشاعر السخط والنقمة التي حرّكتها شكوى المرض والحب الفاشل، والإحساس الصارخ بالوحدة، فهو لا يرى في الحياة مغنماً يحوذه أو مأرباً يناله بين ركام هذا الوجع النفسي الذي يحياه، حتى وجد عيشته فيه إرغاماً وإجباراً[6]:

دعيني يا دنيا فما فيـــكِ مأربٌ
يخففُ لي شجوي وما فيكِ مغنما
أنا الناقمُ الزاري عليكِ وإن أكـــن
أعيشُ فإني سوف ألقاكِ مرغمـــا

إن الذات الشاعرة لدى ابن مصبح التي دخلت في تلك العلاقة الجدلية مع واقعه النفسي لم تكن إذاً علاقة غائمة أو ملتبسة، أو تطل على القارئ بمواربة في تقديم المعنى إليه، بل كانت قائمة على المكاشفة والمباشرة، فهو يعلنها صراحة: «أنا الناقم الزاري عليك»، «قد عشت فيها ناقماً أتبرم»، وبالتالي أتت قصائده وثيقة تكشف بوضوح عناصرها التعبيرية عن المضامين الشعورية بالوضوح ذاته. وقد أتى التعبير عن هذه النقمة والروح الساخطة مرتبطاً بمأساته لأنه يعاني قهراً وانهزاماً روحياً أمام المرض الذي تركه لقوة يصعب عليه التخلص منها، وبالتالي هذه السطوة القاهرة للشاعر انتقلت من علاقته بذاته التي شكلت معاناة المرض صورتها القاتمة إلى علاقته بالواقع لتصنع جدلية معقدة، «وهنا تنشأ علاقة الأنا بالآخر وفق قانون نفسي/ اجتماعي/ عقلي، يمكن لأحد طرفي هذه الثنائية من السيطرة على الآخر، أو دفعه نحو سلوك ليس من عاداته أو سلوكه المعتاد، وبالتالي ينشأ نوع من القهر المقنع لا تتجاوزه الأنا إلا إذا وعت نفسها جيدًا»[7]، فالشاعر ينظر إلى الواقع من حوله، يمر عليه الناس في تعاسته، ويتركونه في كآبته وحيداً، ليبقى مقهوراً بأوجاعه، مقيداً بنظرته إلى معاناته[8]:

تســـــيرُ الحيـــــاةُ بأصحابِهـــــا
وتـــــتركُ خلفـــــانَ لأوجاعِـــــهِ
يمـــــرُّ بـــــه النـــــاسُ من بابِهـــــا
وخلفـــــانُ يرنـــــو لمصراعِـــــهِ

اختار الشاعر أن ينقل صراعه الداخلي إلى صراع مع العالم الخارجي، فهو حين يرقب ذاته ومأساتها المقيمة ويرقب واقع الحياة التي تسير بأصحابها وتتركه في عزلة ووحدة فإنه تتشكلُ لديه بواعث احتدام تلك العلاقة بين ذاته والمجتمع، بخطاب كاشف عن هذا الوجع الكامن الذي يجعله مقيماً في الشقاء بين مجتمعه، وهي نظرة تقارن بين حالين متناقضتين تناقضاً يبعث على مزيدٍ من الألم والمعاناة، ولعل معنى التجدد الذي يرتبط بحياة من حوله، ومعنى الإقامة الذي يرتبط بشقائه في شتى بواعثه، من اليتم المبكر، ومن تجربة الحب الفاشلة، ومن ملازمة المرض، هو معنى يعمّق الشعور بالتناقض الصارخ بين ذاته ومجتمعه، ولذلك نجده في إحدى مقطوعاته يؤكد ذلك المعنى بين إقامته في الشقاء، وإقامة غيره في السعادة، فيقول[9]:

تهنـا يا سعيـــــدُ وعـــــشْ سعيـــداً
فغـــــيرُكَ فـــي الشقا أضحى مقيمـــا
ومـــــــا يجـدي الفـتى أدبٌ وعلـــمٌ
إذا مـــا حظُّـــــه أمســـــى عقيمـــا

وهذه الصورة النفسية المتكررة لدى الشاعر ترجمة لصراع مع النفس يُظهر ذلك الإحساس بالفردية والحرمان والوحدة التي أفقدته معنى الحياة، ومن ثمَّ أتى عدم التوافق مع النفس التي تخضع لسطوة المعاناة، والاستسلام لإحساس بهشاشة الحياة وعدم جدواها، كل ذلك كان سبيلاً لمزيد من التأزم، حتى غدت أنسنة الدواب في قصيدته (البق) وسيلة لإزاحة هذا القهر وتلك

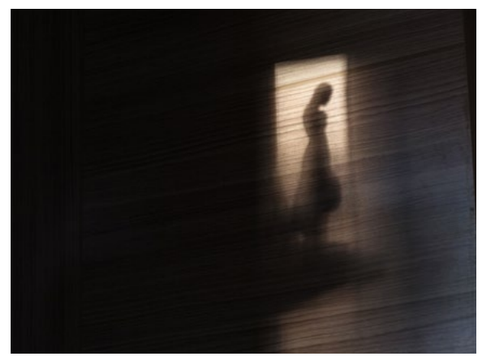

الفردية في الشقاء، لعل البق يغبّر بشرّه وأذاه (المقيم) وجهته بعيداً عن صاحب هذا الشقاء (المقيم) إلى أصحاب النعيم (المقيم)[10]:

أيهـــا الشريـــرُ والشـــرُ المقيـمْ
ما الذي أغـــــراك بالجسـمِ السقيـــمْ
أفـــــلا يممـــــتَ أصحـــــابَ النعيـــمْ
من تربـــوا كالخـــــرافِ النائمـــــات
ذاك من يغنيـكَ عـــــن هـــذي الدمـــا
وهـــــو صـــافٍ لم يكـــــدرْه ظمـــــا
لـــــم يـــــلاقِ العـــيشَ إلا أنعمـــا
فاخـــــترقْ منهـــم جلـودَ السائمـــات

هي مقارنة بينه وبين من حوله، وظفها في إبراز أبعاد مأساته، وهي في الوقت ذاته تفسر لنا الجانب الأبرز من تلك العلاقة الجدلية بين ذاته والمجتمع، وقد أتى معنى (الإقامة) تعميقاً لشعور الاستدامة والملازمة، لتبقى تلك العلاقة في تأزمها مساراً لا ينقطع بما استقر في وجدانه، وانطبع في ذاته[11]:

ترفـــــقْ يـــا فـــؤادُ فـــلا ذمـــامُ
ولا عهـــــدٌ يـــــدومُ ولا ســـــلامُ
لأنّـــي قـد صحـــوتُ وبـــانَ عنـــدي
بأن النـــاسَ أكثرُهـــم لئـــامُ

ولعل هذا الموقف النفسي هو ما جعل حكمه على حالات فردية من الأدواء المجتمعية حكماً على واقع اجتماعي بأكمله، وهي نظرة جعلته يرى الآخر جزءاً من مأساته، ولذلك سنجد أن شكوى المجتمع كثيراً ما تقترن لديه بمأساة المرض، وكأنما غدا الجميع أعواناً لذلك البؤس الذي تسلط عليه[12]:

والـــداءُ يفتـــكُ والحمـــى مسلطـــةٌ
والجســـمُ ملقـــى عليـه البـــؤسُ عنوانُ
يا قلبُ صبـــــراً وإن جلتْ وإن عظمـــتْ
واقطعْ رجـــاءَك فالآمـــالُ بهتـــانُ
إن خانـك الدهـــــرُ لا ترجو مساعـــدةً
فالنـــاسِ للدهـــرِ أتبـــاعٌ وأعـــوانُ
غريـــزةٌ في جميـــعِ الخلقِ قد جُبِلـــتْ
لا يستســـاغُ لهـا في القلـبِ نكـــرانُ

وباستقراء ما سبق من نصوص سنجد أن ابن مصبح في هذا الموقف النفسي لم ينطلق من البحث عن مثالية يجنح إليها بعض الشعراء، فيشعرون في افتقادها باغتراب شعوري يدفعهم إلى اتخاذ موقف نفسي من محيطهم الخارجي، وإنما هي رؤية

ظلامية ذاتية يضيق معها تقبل واقع ذاته المأزوم، فيبحث عن مهرب من شعور الألم الذي يلقاه مع الواقع الذي يحياه ولا يجد منه مهرباً، وفي الوقت ذاته لا يستطيع التوافق أو التكيف معه، إذ إن «الوجه الجوهري بلا ريب الذي يكاد يتركز فيه معنى الحياة هو محاولة الكائن الحي التكيف مع بيئته»[13]، وحين يؤدي افتقاد هذا التكيف إلى خلل في علاقة الفرد بالعالم الخارجي ربما رأى أن كل شيء في الوجود يتآمر عليه[14]:

كـــــم لهـــذا النـــومِ من فضـــلٍ يرى
يبعـــــدُ الإنســـانَ عـــن دنيـــا الورى
تسكـــــنُ النفـــسُ وتنسى مـــا جـــرى
من شقـــاءِ الكـــونِ في هذي الحيـــاة
غـــيرَ أن الدهـــــرَ لا يعطي الأمـــانْ
يبعـــــث الآلام فـــي كـــل مكـــانْ
وإذا مـــا المـــرءُ عـــاداه الزمـــانْ
تعلـــنُ العـدوانُ حتـــى الحشـــرات

يحاول أن يتخذ النوم مهرباً لتسكن روحه في هدأة من هذا الشقاء، غير أن كل شيء غدا في الوجود يستضعف ذاته، ويبعث الألم فيها، حتى الحشرات التي وجدت فيه فريسة ضعيفة تتناهبه، وتعلن عداوته في صراعه مع الواقع. إن أبعاد هذه التجربة في مجملها تفسر بواعث هذه الصورة النفسية، وتجسد ملامحها بوضوح ضعف الإنسان أمام ظروف تقهر فيه قوة الإحساس بالحياة، وتُخضع لها رؤيته لمفردات الوجود من حوله، وإن كنا لا ندري ما كانت ستؤول إليه تلك النظرة الناقمة لو أمهله القدر، وتعددت تجاربه بعيداً عن ألم الشباب وعجزه ■

* كاتب وأكاديمي مصري

الهوامش:

1. السيد يس، التحليل الاجتماعي للأدب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1992م، ص25.
2. خلفان بن مصبح بن خلفان الشويهي (1923 - 1946): من مواليد منطقة الحيرة بإمارة الشارقة، ذاق مرارة اليتم بعد أن رحيل أبيه وهو في الخامسة من عمره، ومن قبلها ذاق تلك المرارة وهو في الثانية من عمره بعد أن انفصل أبوه عن أمه، فانتقلت به إلى بيت جده الذي تكفل برعايته، تلقى تعليمه على يد المطوّع، ثم داوم بعد ذلك على قراءة ما توفر له من كتب التراث وفرائد اللغة والأدب، ألمَّ به داء عضال قبل وفاته بنحو خمس سنوات، وظل يصارعه إلى أن تُوفي عن عمر يناهز الثالثة والعشرين، تاركًا وراءه قصائد تفيض بمرارات الألم والمعاناة. (يُنظر مقدمة الديوان: الشاعر الجامح خلفان بن مصبح، إعداد: شوقي رافع، منشورات اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، ط1، 1990م).
3. الشاعر الجامح خلفان بن مصبح، ص 23.
4. المصدر السابق، ص 35.
5. الاتجاه الوجداني في الشعر العربي بمنطقة الخليج، د. عادل نيل، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ط1، 2016م، ص 83.
6. الشاعر الجامح خلفان بن مصبح، ص 45 (في كلمة مغنم خطأ نحوي؛ حيث نصب ما حقه الرفع).
7. النص الأدبي من منظور اجتماعي، د. مدحت الجيار، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 2001م، ص 135.
8. الشاعر الجامح خلفان بن مصبح، ص 17.
9. المصدر السابق، ص 19.
10. المصدر السابق، ص 58.
11. المصدر السابق، ص 30.
12. المصدر السابق، ص 31.
13. الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، د. مصطفى سويف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1981م، ص 4.
14. الشاعر الجامح خلفان بن مصبح، ص 57.

ديوان الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري

«سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»

موزة عويص علي الدرعي

يسعى قسم الدراسات والبحوث في مركز زايد للدراسات والبحوث التابع لنادي تراث الإمارات، إلى تحقيق أهداف القسم من خلال الاهتمام بالنشر في موضوعات تتعلق بتراث وتاريخ الدولة بشكل خاص ومنطقة الخليج والجزيرة العربية عموماً، وقد ترجم المركز هذا الهدف إلى واقع ملموس، ونجح عبر مسيرته الطويلة في إصدار المئات من الكتب والدراسات في حقول التاريخ عبر مراحلة الزمنية المختلفة، وفي مجالات التراث الثقافي والشعر النبطي والفن والأدب، والتراث المادي والألعاب الشعبية والعمارة التراثية وغيرها، وتأتي هذه السلسلة المنشورة عبر مجلة تراث تحت عنوان «سلسلة نماذج مختارة من إصدارات مركز زايد للدراسات والبحوث»، لتستعرض نماذج من تلك الإصدارات المختلفة بهدف تعريف القارئ بمحتواها، ولإبراز دور المركز الثقافي وجهوده الكبيرة والمميزة في توثيق عناصر التراث الوطني والعربي والإسلامي، وفي الحفاظ على تاريخ وتراث الدولة من الاندثار عبر تلك الإصدارات المهمة التي تعكس رؤية ورسالة وأهداف المركز باعتباره مركزاً وطنياً رائداً في حفظ تراث الوطن وتاريخه.

في هذا العدد تستعرض السلسلة لواحد من الإصدارات الشعرية، التي يسعى مركز زايد للدراسات والبحوث من خلالها لتحقيق رسالة نادي تراث الإمارات في إحياء وحفظ التراث ونشره بين أفراد المجتمع والأجيال، لاسيما في مجال الشعر الشعبي، وذلك إيماناً منه بأهمية هذا الشعر باعتباره أحد مكونات الثقافة العربية والهوية الوطنية ومن أهم المصادر لتأريخ الأحداث والحياة ومعرفة الأنماط الاجتماعية السائدة. وتحقيقاً لذلك جاء إصدار هذا الديوان الشعري في كتاب بعنوان **(ديوان الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري)**.

والجدير بالذكر أن هذا الديوان الشعري قد صدر في طبعتين، الأولى في عام 2004، وقد ضمت لجنة الجمع والتحقيق لتلك الطبعة كل من : الدكتور فايز القيسي والأستاذة شيخة الجابري والأستاذة عذيجة الخيلي والأستاذة فاطمة الظاهري. وكان ذلك الديوان أول ديوان شعري يصدر عن المركز ضمن سلسلة التراث الشعري الشعبي الإماراتي غير المنشور، والذي جاء ممثلاً لشعراً نسائياً بارزا في تاريخ الشعر النبطي النسائي الإماراتي. أما الطبعة الثانية المنقحة التي بين أيدينا والتي صدرت في عام2022، فقد جاءت تحت إعداد وإشراف ومراجعة وتدقيق الباحثة في التراث الشعبي الإماراتي شيخة محمد الجابري .

ومن خلال هذا الإصدار وما سبقه من إصدارات في «سلسلة شعراء من الإمارات»، يمكن القول أن نادي تراث الإمارات ومن خلال مركزه الثقافي نجح في جمع شوارد الشعر النبطي، وإبراز شعراء المنطقة وتكريمهم وتمكين المهتمين والباحثين والمختصين في الشعر الشعبي واللهجة والبيئة المحلية من الرجوع إلى تلك الإصدارات. وإن هذا الهدف مازال مستمراً ضمن أهداف المركز وخطته في النشر للشعراء سواء بالتحقيق وجمع الأشعار في حياتهم، أو بعد وفاتهم أو من خلال الورثة وأبنائهم الذين يسعون لحفظ ذلك الإرث والموروث الأدبي والفكري والشعري لذويهم وحفظه من الضياع، والمساهمة في توثيقه ونشره في دواوين شعرية كالديوان المختار من ضمن إصدارات المركز ضمن هذه الصفحة في هذا العدد من السلسلة المختارة.

نبذة مختصرة عن الديوان وتقسيماته:

الديوان الشعري الذي بين أيدينا يقع في (102) صفحة من القطع المتوسط، وقد تصدرته كلمة للمركز ومقدمة الطبعة الثانية، ثم تلتها مقدمة الطبعة الأولى. وقسم الديوان إلى قسمين، القسم الأول تناول سيرة الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري، أما القسم الثاني فقد خصص لقصائد الشاعرة.

قراءة شعرية مختصرة في الديوان ومحتواه:

كما سبق الإشارة أعلاه، أن هذا الديوان الشعري يتكون من قسمين:

القسم الأول جاء بعنوان : سيرة الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري، وفيه تم التطرق إلى مجموعة من المحاور الهامة في سيرة ومسيرة الشاعرة الحياتية والشعرية. فالشاعرة موزة بنت جمعة بن هندي المهيري ولدت في سنة 1900 على وجه التقريب، في حين تشير رواية أخرى إلى أنها ولدت في عام 1895، وتوفيت في عام 2012 في مدينة العين عن عمر يناهز 120 عاماً. ولها خمسة من الأخوة وهم حمد وعلي وغدير وعتيق وخميس والد الشاعر المعروف محمد بن خميس بن هندي، ولها أختين أيضاً. وعاشت الشاعرة مع أهلها في عدة مناطق منها: منطقة (براق) التي تقع على الحدود بين إماراتي أبوظبي ودبي. كما عاشت في منطقة المغنى في مدينة العين ومنطقة (أبو هرمه) وكذلك مناطق (الظلّيما) و(لخُصوب)، وفي الصيف كانت تحضر إلى العين في نخيل والداها في منطقة المعترض. وتزوجت المهيري من حارب بن سيف العميمي، وأنجبت منه ابنين وأربع بنات. وقد توفي زوجها العميمي في إحدى رحلات الغوص إذ أنه كان يعمل في مهنة الغوص التي كانت مزدهرة في منطقة الإمارات في النصف الأول من القرن العشرين، وكان لوفاته الأثر النفسي الكبير على الشاعرة وأسرتها، ولكن المهيري استطاعت بفضل الله سبحانه وتعالى، ومن ثم بحكمتها وتدبرها وقدرتها على أن تتجاوز الصعاب التي مرت فيها.

أما عن التجربة الشعرية للشاعرة والتي أُفرد لها محوراً خاصاً بها في الديوان، فقد بدأت تلك التجربة في مرحلة مبكرة من حياتها، ولم تكن بشيء القليل، إذ قدمت نتاجاً شعرياً عزيراً، ولكن ضاع أغلبها لعدة أسباب منها: غياب تدوين الشعر الشعبي وتوثيقة في فترة نُضوج موهبتها وانتشار شعرها بين الناس، كما أن أغلب الرواة والحفظة لشعرها قد انتقلوا إلى رحمة الله تعالى. وكانت أشعار الشاعرة موزة تحظي باهتمام وتقدير من الناس وكانت تنتشر بينهم ويتناقلونه في مجالس السمر، لما امتازت به من السهولة والصدق وبعد عن التكلف والصنعة المعقدة، وإنما كانت تصدر أشعارها أحياناً عن البديهة والارتجال، إذ أن الشاعرة كانت ترى أن الشعر تعبير فني عن المعاناة الذاتية والتجربة الشعورية، وأن العملية الإبداعية صعبة ولا تأتي في كل الأوقات. ولذلك فإن دوافع نظم الشعر عند الشاعرة كانت متعددة وهذا ما تكشفه قصائدها المجموعة في هذ الديوان الشعري.

كما خُصص في هذا القسم من القراءة الشعرية، لتسليط الضوء على مجمل المحاور الشعرية التي كانت تدور حولها قصائد الشاعرة الراحلة موزة بنت جمعة، والتي صُنفت كالتالي:

- **الوجدانيات:**

وفيها كانت تعبر الشاعرة عن مشاعرها الذاتية وعواطفها النفسية وعرض معاناتها الشخصية كالحنين إلى الماضي وأيام الصبا والتحسر على ذهابها، وأيضاً شكواها للمرض وتقدم سنها، ولوعة الفراق والحزن لفقدان الأهل والأحبة والبعد عن الاصدقاء والمعارف. والقارئ لقصائدها يتبين لديه مدى حب الشاعرة الخير للناس واحترام الجار والمحافظة على قيم الصداقة الأصيلة، ومن ذلك فقد شكلت الإخوانيات جزءاً مهماً في قصائدها التي كانت تُعبر فيها عن المودة التي تجمع بينها وبين صديقاتها.

- **المجتمع الإماراتي وأحواله:**

وجاءت قصائد المهيري في هذا المحور لتتمحور حول مجتمعها وبئتها التي عاشت فيها، فالمجتمع الإماراتي له عاداته وتقاليده وأعرافه وقيمه الأصيلة والمتوارثة التي يعتز بها فضلاً عن مكارم

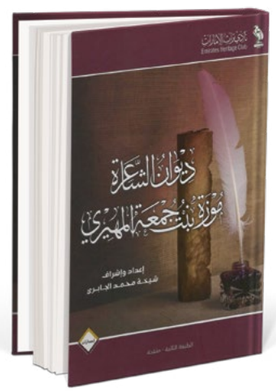

الأخلاق الحميدة التي يمتاز بها كإكرام الضيف والشجاعة والفروسية وغيرها. ومن ذلك حرصت الشاعرة على إظهار المضمون السامي المؤثر في حياة أبناء المجتمع، فعبرت كثيراً عن مظاهر الحياة في المجتمع البدوي القائم على الترحال والتنقل والمقيظ في الواحات ومزارع النخيل وقت اشتداد الحر، كما فاضت نصوصها الشعرية عن العادات والتقاليد الاجتماعية المصاحبة لتلك الحياة من خلال حب فعل الخير كوضع علامات على الطرق ليستدل الناس عليها في رحلاتهم، وحفر الآبار وبناء الأمكنة التي يستفيد منها المسافرين وسائر الحيوانات، وغيرها من أعمال الخير والبر. ومن جانب أخر جاءت قصائد الشاعرة لتعبر وتوثق للعديد من المناسبات الإجتماعية والاحتفالات التي يُحيها المجمتع الإماراتي ويتفاعل معها كالزواج والأعياد وسباقات الهجن.

• البيئة الطبيعية الإماراتية:

كان للطبيعية وحيها أثر كبير في تكوين الشاعرة النفسي، وفي تجربتها الشعرية، لا سيما طبيعة مدينة العين التي تكثر فيها الخضرة والأفلاج والطويان (الأبار) وتحيط بها العيون من جهاتها المختلفة، فكانت المناظر الطبيعية والبيئية حاضرة في الكثير من قصائد شاعرتنا وشكلت مكوناتها مكانة رفيعة في شعرها، كمناظر المطر والربيع وأشجاره ونباتاته والطيور والأبل والحمام، وكذلك شجرة الغاف التي تكشف قصائد الشاعرة عن تعلقها الكبير بها. وإلى جانب ذلك فقد بينت وكشفت هذه الدراسة من الديوان إلى إرتباط الشاعرة الوثيق بالمكان الإماراتي وتعلقها بمظاهر الجمال فيه، مما يجعلها تتفاعل معه ومافيه من عناصر الجمال.

اما القسم الثاني من هذا الديوان، جاء بعنوان: القصائد، وفيه تم استعراض مجموعة من الروائع الشعرية للشاعرة موزة المهيري والتي جمعت في هذا الديوان، والتي بلغت (58) قصيدة تناولت في موضوعاتها تلك الجوانب المختلفة من المحاور المذكورة أعلاه والاغراض الشعرية المتعددة. وفيما يلي نماذج مختارة من تلك الأشعار:

عندما بلغ إلى مسامع الشاعرة موزة خبرونبأ وفاة زوجها، نضمت قصيدة شعرية مخاطبة فيها إحدى بناتها، وتقول فيها:

يازيـــــن يـــاحلـــو الدّلايـــل
خـــبرٍ لفانـــا عـــوف لامـــاه
نهـــارمايتنـــا الخبايـــــر
جِمْـــتْ الصـــبروأجَـــنْت باللـــه
الرّيـــلْ باتـــت فـــي مِلايـــل
والقلـــب علـــى نـــارمـــوزّاه
الراس سَويّتَـــــــه ديايـــل
والعـــين جِطّـــت فوقهـــا غْطـــاه
والعـــين لـــي ســـوّت مخايـــل
ومْـــن ألعـــبرمـــا وقّـــفْ ابْجـــاه
يـــــازم رجوعـــه مِ المحايـــل
وعليْـــه يامـــا طِـــوْل فرقـــاه

وعبرت الشاعرة في قصيدة لها أيضاً عن معاناتها، بعد أن أحست بتقدم العمر والكبر في السن،واشتعل رأسها شيباً، مما رأت فيه نذيراً بقرب حلول أجلها، فنظمت قصيدة خاطبت فيها الكبر والشيب طالبة من الله سبحانة وتعالى أن يمد في عمرها سنة لتزور أصدقائها ومعارفها لتنعم برؤيتهم قبل أن يتقدم بها العمر ويقعدها ويضعفها، فقالت:

يـــا الكـــبرچـــان باتيبـــك أمْســـالْ
يَنّـــب ولا لـــي فيـــك مصـــروف
لا مـــاكْ خلّتـــني علـــى الحـــال
وأشـــوف ملـــحج قلبي حســـوف
چـــن بحشايـــه ضَـــوتنهـــال
والراس جَنّـــه ضِـــرْب بسيـــوف

وجانـــك معـــزَّم بـــي عَ كـــل حـــال
باللـــــه عليـــك بْحالِيّـــه روف
خلنـــي ســـنـــة بافَـــرّي البـــال
وجـــدوى البطانـــة ودي أَلـــوف
نـــاسٍ كرامتهـــم بالأفعـــال
وغـــير الصّيانـــي يرّوا سُفـــوف
اقنادهـــم م الشّامـــي وُهـــال
وعزامهـــم للضيـــف مرضـــوف
يعـــل السحـــب لـــي بـــات هَمَّـــال
يَسْجـــي البطـــاح وتـــازم تْـــزوف

وأيضاً هاجت الذكريات السارة، وأيام الصبا الجميلة أشجان الشاعرة، في ظل معانتها وما ألما بها من آلام المرض وداء المفاصل الذي حال دون تواصلها مع الناس، فقالت بنت جمعة:

لَـــوّلْ أســـير أقصّـــر الدوب
صـــوب العـــرب لـــي عنـــدي احشـــام
وألحـــين تشكـــي الرّيـــلْ مَعتـــوب
ســـوّت سواعـــيرٍ فِي لِعظـــام
ثَـــر الكـــبريـــاخذنـــي بْـــدوبْ
عقـــب الصغـــربـــا يمســـك الـــزّامْ
فـــي الحفـــظ ياغالـــي يا محبـــوب
آزمـــت شـــروى رَوْيْ الأحـــلام

كان للشاعرة عدة مساجلات شعرية مع عدد من الشعراء، ومن ذلك أن إحدى صديقات الشاعرة وهي الشاعرة عائشة كليبوه الكتبي، قد قامت بزيارة سريعة للشاعرة موزة، وحاولت بنت جمعة أن تقنع صديقتها بالمكوث والبقاء عندها أكثر، الإ أن عائشة الكتبي اعتذرت وغادرت، فجادت قريحة الشاعرة وعبرت في قصيدة لها عن ذلك الموقف وحبها لصديقتها،فقالت:

يوم اخْطفـــوا عَيْلـــن الأحبـــاب
لا يَـــتْ بهـــم حلفـــة ولا عُـــزام
خلّونيَـــه واقـــف علـــى البـــاب
شـــروات يللـــي ماســـك الـــزام
نـــاسٍ يثنّـــون التّرحّـــاب
لـــي عنديَـــهْ غالـــين واحشـــام
عســـى عليـــهم يَسْجـــي صبَّـــاب
بَـــرْقْ ورعْـــدْ ومْـــزون لَغْمـــام

فردت بنت كليبوة على القصيدة السابقة وعبرت لصديقتها عن مشاعر الود التي تكنها لها ومقدمة إعتذارها منها وتطلب منها المسامحة على ما بدر، فقالت:

مرحبـــا حـــي اللـــه الخـــط
يللـــي لفانـــي عنـــد الأنجـــاب
اعـــداد مانســـاس قـــد هـــب
واعـــداد نـــبتٍ ثَـــارْ عَ تْـــراب
فرحـــت مـــن يانـــي مْعَـــرَّب
ووقِفـــت وأثْنيـــت الترحَّـــاب
عسنّـــه الوسمـــي يْيَـــوَّد
ياخـــذ سْبوعـــينٍ بالحســـاب
تِسْـــمن بـــه الهـــزلا وترتـــد
وتبني شحـــم لـــي شامخـــةْ نـــاب
حتـــى العـــرب للبـــر تظهـــر
يتولّفـــون بسكـــن الأحبـــاب
وارجو السموحـــة منـــك يـــا مُحـــب
في خاتمـــة شعـــري ولخطـــاب

سبق القول، أن لشجرة الغاف مكانة وحضوراً في قصائد الشاعرة موزة، ومن ذلك أن الشاعر راشد بن سيف بالحايمة

أراد إثارة عواطف الشاعرة موزة ودفعها لنظم الشعر، فأخبرها أن الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة والسيول الجارفة اقتلعت شجر العود «شجر الغاف» الذي كانت تعزه، فقالت:

راح وينه عود لِمْجيله
لي مديم وبارد ظلاله
ياه ريحٍ شلّه بسيله
وآزمت لِعيون همَّاله
قلت أنا روحي بَرَوّيلَه
جاد ينقض عود م الهاله
سِرت صوب الوَرْقْ بشكيله
قال اشوف الحال لا تساله
غيربانزرع تماثيله
جان بانعتاض ف أبداله
كم لي حلوه ميادیله
لي جِسين وزين لِجباله
وكم غرّ جابع بشيله
قد ليا وانزح في ظلاله
وكم لي مرّوا معاديله
زاهيات برقم واعداله
جان رب العرش ياويله
بالسحب وبروق شعَّاله

وفي أثناء رحلة قامت بها الشاعرة إلى قرية غمّض في مدينة العين، كان حفيدها «جمعة» قد أعد فيها بئر ماء «طوي»؛ وكانت الشاعرة محبة لفعل الخير، ففرحت بذلك العمل الذي يستفيد منه كل من يمر به، فقالت:

جمعة مْسوّي عِدْ ماثور
حق الذي بَيْسير كشَّات
بينا وسوّينَالْه أنشور
وعليه عَدَّلنا بنيّات
يالله عن تسقيه لِمْطُور
ويعل امْطره في كل ساعات
يالين يظهر نبته زهور
ويحيا الهشيم اللي بعد مات
واليحير ويازم چنه ابحور
وعلى الطُّوَيَّه كيّل وبات
من الظّهر ليـن ابْتَسَّم ألنور
وينوب يوده لي الشّبحات
دار الذي بالعِزْ مذكور
اللي زرع فيها علامات

كانت تلك نماذج مختارة من قصائد الشاعرة موزة، التي شكلت بالفعل علامة مضية وفارقة في تاريخ الشعر الشعبي الإماراتي. وأُطلق على المهيري تسمية أو لقب عميدة شاعرات العين، ويُعد شعرها بمثابة أرشيف للحياة وبما تراه الشاعرة في حلها وترحالها رغم عدم إلمامها بالقراءة والكتابة. وقد حازت شاعرتنا - رحمها لله- الوجاهة التي تستحقها والجاذبية التي صنعت لها كاريزما شعرية متوهجة، من خلال قصائدها المتنوعة.

وبذلك يمكن القول أن هذا الديوان الشعري يشكل صورة صادقة للبيئة التي تنتمي إليها الشاعرة، ويوثق لأحوال ومشاعر الشاعرة الخاصة وما يطرأ على نفسها من تقلبات وعواطف متباينة ومواقف متعددة جسدتها الشاعرة في قصائد شملت تلك الموضوعات المتعددة. والتي من خلالها ظهر واضحاً وصفها للحياة البدوية وطبيعتها وعناصرها، ومتضمنة العديد من المعاني والحكمة والقيم الأخلاقية.

وامتازت قصائد الديوان بجميل اللفظ وقوة العبارة وحسن الوصف وعمق الحضور، كما كانت تضج بالأفعال والحركة التي تمنح النصوص الشعرية نبضاً حقيقيًا. وبرز عند الشاعرة الجانب التوثيقي للأمكنة واستعادة ملامح الماضي وتناولتها بطريقة تعبر عن سعة خيالها في الوصف، ودقة ملاحظتها في رصد التفاصيل البيئية والمناخية. مما يجعل هذه المادة الشعرية مجالاً لتمكين الباحثين في الشعر الشعبي واللهجة والبيئة المحلية من الرجوع إليها والإستفادة منها في إعداد الدراسات والأبحاث التراثية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الجوانب ■

* مركز زايد للدراسات والبحوث

أن ترى ذاتك الآن

حمزة قناوي
شاعر مصري

منذ أن يأتي الإنسان إلى العالم، يلتقي كثيراً من البشر، ويواجه الكثير من العوامل، والظروف، وتقلبات الأحوال التي تدفعه دفعاً إلى أن يتحول إلى الصورة التي يصبح عليها وفق كل هذه العناصر.

ومن المعروف أن وعي الإنسان أول ما يتشكل يتم ذلك من خلال معرفته بذاته، وشعوره بصفاته وطبيعته وخصائصه النفسية والذاتية التي يتعرف من خلالها إلى ميوله وأفكاره واهتماماته؛ وهو ما يشكل لاحقاً علاقته بالعالم، كما قال المعلم الأول سقراط: «اعرف نفسك».

غير أن تقلبات الحياة، ومدافعة الأيام، والاختبارات التي توقف الحياة الإنسان عندها على محك المفترقات، دافعاً ثمن قناعاته واختياراته، ومبصراً في نفسه حقيقته، ومستبصراً ذاته العميقة التي يؤمن بتمثلها في روحه، وما تضعه الأيام في طريقه من عقباتٍ ومصاعب، تستثير في نفسه الأمل والألم وتحرك قيم الصبر والجلد والمواجهة، أو الاستسلام والسباحة في تيار الحياة وقد غُلب على أمره؛ هذه العوامل والمتغيرات كلها هي التي تُشكّل شخصية الإنسان وطبيعته وتكوينه النفسي وخصوصية هذه الشخصية.

من هنا.. لو تأمل كل منا - في لحظةِ تأملٍ وصدقٍ عميقةٍ مع الذات - تأثيرات الحياة ومشاقها واختباراتها واختياراتها، فيما وصلت إليه شخصيته، لاندهش مما كانه، أو ما أمِلَ أن يكونهُ، وما وصل إليه فعلياً وشكّلَهُ ونَحَت شخصيته، كأنه يتأمل سيرة حياة شخصٍ آخر وشخصيةٍ أخرى!

لا يوجد إنسانٌ يعيش منعزلاً عن الحياة وعواملها، وتحدياتها ومصاعبها، ومسارات أسئلتها، إنما تتداخل كل هذه الأسباب في تشكيل وجدانه وعقله ووعيه الفكري وخبراته النفسية، وهو ما يُشكّل بالضرورة شخصيته، ومن الصعب - إن لم يكن من المستحيل - ألا يتأثر إنسانٌ بالعوامل المحيطة به وبالأفكار التي توجه الوعي العام الذي ينتمي إليه وتنتمي له جماعته الإنسانية، من القضايا الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية ومستوى التعليم والاهتمامات الفكرية، فجميعها يؤثر في شخصيته وتكوينه.

ماذا لو استطاع الإنسان أن يتأمل ذاته التي تطلّع إلى أن يكونها، لو نظر في مرآة حقيقته بصدقٍ وأمل، وتساءل بشفافيةٍ وتجرُّد: كيف يمكنني أن أكون الشخص الذي تمنيته، الإنسان الآخر، الذي بدأ نقياً من المنابع البعيدة، طامحاً، تائقاً إلى الأحلام وتحقيق الذات ومدافعة الأيام وصولاً إلى ما أملته لا ما أصبحت عليه؟ قد تبدو الإجابة صعبةً، غير أن طرح السؤال هو الأصعب، ففي تيار الحياة الجارف ونهر الأيام المتسارع، من النادر أن يقف الإنسان ليلتفت إلى واقعه ويطرح سؤال الكينونة والمصير والمأمول.

لكن هل يبدو الأمر مستحيلاً؟

ليس هناك مستحيلٌ بالكامل، وكل ما يصبح عرضةً للسؤال وموضعاً للتأمل وإعادة التفكير قابل للفعل والتجاوز والتحقق، لا مستحيل هناكَ سوى للمستسلمين ومن لا ينظرون في مرآة حقيقتهم وذواتهم ولو لمرةٍ في العُمر.

إن الإنسان يستطيع أن يتجاوزَ صيغةَ الأمر الواقع، والاستسلام، والعوامل التي أسهمت في تشكيل شخصيته بمجرد أن يبدأ التفكير فقط، ويطرح على نفسه سؤالاً واحداً: هل هذه حقيقتي أم إن الحياة نحتتها بإزميلها وهي تضعني على هذا المحك وذلك المفترق وهذا الموقف وهذه الاختيارات؟

لو حاول كل منا أن يبصر ذاته البعيدة في أعماقه، وما أمِل أن يكونه منذ اللحظة التي أدرك فيها وعيه تفاصيل العالم وطبيعته وعلاقته به، لو استطاع أن يتخلص من عُقدٍ كثيرةٍ حاصره بها العالم ولم يكن له يدٌ بالكامل في ترسيخها في شخصيته، ولو استطاع أن يتأمل «الصورة العليا» للآخر الذي يراه في ذاته، الصورة المثال للإنسان الأقرب إلى تمثل القيم والخير وحب الآخر والانفتاح على الصدق والجمال في صوره كافة، فهذا كله يعني أن ترى ذاتك الحقيقية التي يحاول العالم بشتى السبل أن يحجبها عنك. أن ترى ذاتك الآن، أي أن تكون نفسك وحقيقتك ■

ذكريات زمن البدايات (15)

مدينة العين

خليل عيلبوني

قبل افتتاح طريق أبوظبي . دبي، كان عزاؤنا الوحيد نحن المقيمين في مدينة أبوظبي هو السفر إلى مدينة العين. كانت الطريق معبدة، ولم يكن السفر يشكل أي خطورة على المسافر، كما كانت الحال في الطرق الرملية التي تحتاج إلى سيارات الدفع الرباعي للسير عليها، وتجاوز الصبخة اللينة التي كانت بمنزلة مصيدة حتى للسيارات القوية التي لا يجيد سائقوها التحكم فيها. كانت مدينة العين تشكل بالنسبة إلينا مدينة سياحية من الطراز الأول: فهي غنية بالحدائق، وبغطها اللون الأخضر، وفيها «فندق هيلتون» حيث كان في ذلك الوقت يُعد قمة في الفخامة والضخامة.

لكننا لم نكن نقيم في ذلك الفندق إلا خلال المهام الرسمية، أما في الإجازات فكانت بيوت الأصدقاء مفتوحة لنا كما كانت بيوتنا في أبوظبي مفتوحة لهم كذلك. كان أمراً عادياً أن ننزل في بيوت أصدقائنا، أنا شخصياً كنت أنزل في بيت الصديق فهمي بيدس، ووجيه بيدس. كان الأخ فهمي بيدس يقيم في شقة في عمارة قريبة من دوار الساعة، ودوار الساعة كان أهم معالم العين، وعنواناً لا يضيع عنه أحد؛ لأنك لا بد من أن تمر به وأنت تدخل المدينة، ولم يكن هناك شارع آخر يتفرع منه ويسبب لك الضياع.

أما بيت الأخ وليد بيدس، فكان أشبه بالبيوت السورية القديمة؛ إذ كانت هناك ساحة الدار، ومنها تدخل إلى غرف النوم أو الصالون أو المطبخ. وفي ساحة الدار، كنا نسهر فيما يشبه الاحتفال حيث تتجمع أربع أو خمس أُسَر.. وذلك في يوم الخميس، يوم وصولنا لقضاء الإجازة الأسبوعية. ويقدم جهاز التسجيل الأغاني المعروفة في ذلك الزمن، ثم بعد ذلك تنطلق أصواتنا بالغناء، ودون موسيقى ما عدا الإيقاع المتمثل بالتصفيق الموائم للحن الأغنية.

كان كافياً لمن يتجرأ على الغناء أن يكون حافظاً لبعض كلمات الأغنية وللحن شبيه بلحنها حتى يعدّ مطرباً كبيراً، وتنهال عليه كلمات الثناء من كل حدب وصوب، وترتفع أصوات الاستحسان مثل: الله، يا سلام.. وتنتهي السهرة عادة بوضع طعام العشاء الذي يجمع بين المشويات، والمزات اللبنانية، والمكبوس أو البرياني الخليجي. كان لا يمكن لأي فندق في ذلك الزمن أن يشعرنا بتلك السعادة التي كنا نشعر بها في بيوت الأصدقاء.

غداء في البريمي

أما في اليوم التالي (الجمعة)، فكنا نخرج من الصباح الباكر لنذهب إلى واحة البريمي. مازلت أذكر كيف كنا ندخل إلى مكان مملوء بالشجر ومزروع بأنواع الخضراوات، وفيه ما يشبه النهر الصغير، قالوا لنا: إنه فلج، وكانت مدينة العين ملأى بهذه الأفلاج التي كان أطفالنا يمارسون السباحة فيها. وفي ظلال الأشجار، وبالقرب من الفلج، كنا نفرش الحصير أو البطانيات، ونضع الوسائد، ونجلس بارتياح لنتجاذب أطراف الحديث، ونتناقل أخبار مجتمعنا الصغير والبريء في ذلك الزمن الجميل. وبعد أن يقوم أحدنا بإشعال النار، ووضع بعض الأعواد فيها، يتم وضع إبريق الشاي أو غلاية القهوة، على النار لنحتسي أطيب كؤوس الشاي وفناجين القهوة. أما الغداء، فكان دائماً جاهزاً، ويتم طبخه في الصباح الباكر في بيت المضيف، ولا يحتاج إلا إلى التسخين فوق تلك النار التي أشعلناها في المكان. وكان ذلك الغداء لا يتغير في كل أسبوع، لا لسهولته أو بخل من يحضّره ويجهزه، بل لأنه مطلوب، وله قيمة خاصة عند الجميع، وكان عبارة عن حلة ضخمة من محشي ورق العنب والكوسا والباذنجان، وإلى جانبه السلطة الخضراء والتبولة المصنوعة من خضراوات العين المشهورة، وأهمها: البقدونس، والبصل، والطماطم أو كما تسمى أيضاً (البندورة).

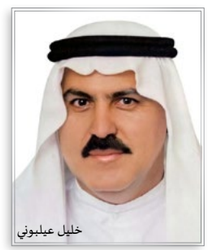
خليل عيلبوني

بعد الغداء وشرب الشاي والقهوة، يتم جمع الأغراض، وتتجه كل أسرة إلى سيارتها فيعود أهل العين إلى العين، وأهل أبوظبي إلى أبوظبي. لم تكن واحة البريمي هي المكان الوحيد الذي نقضي فيه إجازة يوم الجمعة في مدينة العين، بل كنا نذهب إلى عين الفايضة حيث نستمتع بتلك البحيرة الصغيرة التي يتصاعد منها البخار أيضاً، والتي أقيم بالقرب منها بعض الغرف لإقامة الزوار.

أما جبل حفيت، فلم نكن في ذلك الزمن، وبسياراتنا الصالون العادية نستطيع أن نصل إليه. كان اللون الأخضر يميز مدينة العين، وكنا نسميها في ذلك الزمن حديقة الإمارات الخضراء. كان في مدينة العين أيضاً، حديقة الحيوان، وكانت تلك الحديقة مركز جذب سياحي خصوصاً لأولادنا وبناتنا. ومن البيوت التي اعتدت زيارتها مع أسرتي الصغيرة في ذلك الزمان الجميل، بيت المرحوم خلفان السويدي الذي جمعتني به وبأسرته منذ البدايات علاقات الصداقة والإخوة. كان بيت المرحوم خلفان السويدي في العين كبيراً، يمتد على مساحة واسعة من الأرض، وكنا نجد فيه كل أنواع الكرم العربي الأصيل. حتى المرحوم السويدي كان يذهب إلى العين كل أسبوع لقضاء الإجازة؛ لأن مقر عمله كمدير للجوازات والهجرة والجنسية كان في أبوظبي، وكانت له فيلا يقيم فيها هناك، ولكن تمسك المرحوم خلفان أن تظل أسرته في العين، على أساس أنها الوطن الصغير. حينما أزور مدينة العين الآن، أجد صعوبة في الوصول إلى أي مكان قديم فيها، كل شيء تغير: الشوارع، العمارات، البيوت.. الشيء الوحيد الذي ظل كما كان، بل زاد ونما هو اللون الأخضر.

وكما زاد العمران واتسع، كبرت الزراعة، وانتشرت المزارع، وأصبحت العين حديقة غناء لا تمل العين من النظر إلى أشجارها وزهورها ونباتاتها المتنوعة.

كانت العين بالنسبة إلينا تمثل واحة جميلة في صحراء مترامية الأطراف، حتى الطريق إليها كانت لا تمر بقرى أو محطات استراحة إلا قبل الوصول إليها بقليل.

مدينة العلم والعمل

الآن أصبحت مدينة العين شبه متصلة بمدينة أبوظبي من خلال تعدد المحطات والقرى المنتشرة على امتداد تلك الطريق. كذلك كانت مدينة العين تتمتع باهتمام المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، الذي كان الحاكم فيها على عهد أخيه الشيخ شخبوط بن سلطان، رحمه الله. لقد حرص الشيخ زايد، وولي عهده في ذلك الوقت صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان على إعطاء تلك المدينة أهمية خاصة سواء في مشروعات التنمية أو مشاريع البناء والعمران. وفي تلك المدينة قامت أهم مؤسسة تعليمية في الدولة ألا وهي جامعة الإمارات

التي يتخرج فيها كل عام مئات بل آلاف الطلبة والطالبات. كما انتشرت حول المدينة المزارع المنتجة، وتطاولت فيها أشجار النخيل، وقامت المصانع، وتنامت الحركة التجارية، وتكاثرت الفنادق، وشمخت العمارات حتى أصبحت المدينة مكان استقرار سكاني، ومركز جذب سياحي. ومنذ وصولي إلى أبوظبي في يناير 1971 لا أنقطع عن زيارة تلك المدينة الجميلة والاستمتاع بطقسها الجاف الخالي من الرطوبة وجوها المعتدل صيفاً وشتاءً. ولقد أدركت لماذا كانت تلك المدينة مصيفاً لأبناء الإمارات في الزمن الذي سبق اكتشاف البترول، وفهمت تلك الأبيات التي نظمها الشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة في ديوانه «المسيرة» عن مدينة العين حيث قال:

فإذا لاحت مروج من بعيـــد في خميلـــه
وربوع العـــين بانت ودعـــا خلّ خَليلـــه
سالت الأفلاج فيهـــا مثـــل أنهار جميلـــه
وجد القوم دواء الجسم والنفس العليلـه
في ربوع العين تصفو كل ساعات الزمـــان
ترد الماء صباحاً خلســـة غيد حســـان
أهو حلم أم خيال.. أم ترى حور الجنـــان
نزلت للأرض من عليائـــها قبـــل الأوان

ومازالت تشدني إلى تلك المدينة الرائعة ذكريات زمن البدايات حيث كنت ألتقي فيها بالأحبة والأصدقاء، وفي مقدمهم سمو الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان، ممثل الحاكم في المنطقة الشرقية، الذي أعطى زهرة شبابه لتلك المدينة الجميلة، وما زال يعطيها من جهده واهتمامه الكثير. وكان سموه خير ممثل لقيادتها الرشيدة، وأوفى الأبناء لمن كانت ولا تزال أم الرجال مدينة العين، وعين مدائن الإمارات ■

* أديب وشاعر

بثينة سالم سعيد القبيسي:

أبحاث التراث الغاية منها تحقيق تواصل الأجيال

هشام أزكيض

الأستاذة بثينة سالم سعيد سالم ياعد القبيسي، من أبرز الباحثات في تاريخ إمارة أبوظبي وتراثها، حصلت على بكالوريوس المسار البيئي كأول خريجة لهذا المسار، ثم على ماجستير علوم البيئة من جامعة الإمارات العربية المتحدة، وتسعى من خلال بحوثها وكتاباتها إلى تعبئة الفراغات من التاريخ المنسي وغير المكشوف، وتتميز كتاباتها بالعمق وزخم المعلومات، وتناول قضايا لم يتم التطرق إليها من قِبل الباحثين، ويتميز أسلوبها بالبساطة سعياً للوصول إلى أهدافها غير البعيدة عن خدمة التاريخ، والتراث، والهوية، لذا فهي تسعى إلى مخاطبة فئة الشباب، حتى يتحقق الربط المتين بين الماضي والحاضر لبناء المستقبل.

للباحثة بثينة القبيسي العديد من الكتابات في الدوريات التراثية والثقافية والسياحية، إضافة إلى مجموعة من المقالات البيئية التاريخية المنشورة في جريدة «الاتحاد»، ومن مؤلفاتها: «دلما إطلالة على الماضي»2017، و«ملابس وحلي سكان إمارة أبوظبي - قبائل حلف بني ياس (1850 - 1950)» 2019م، و«دلما قلب بنك اللؤلؤ النابض» 2022م، ومن مؤلفاتها تحت الطبع: -«ClothesandJeweleryAbuDhabiEmiratesCitizezn2023» -Dalma Island The Heart Of The Beating Pearl Bank»2023«

للتعرف إلى الباحثة بثينة سالم القبيسي أجرينا معها الحوار التالي:

- بداية لو أردنا أن نتعرف على مسارك الدراسي والجامعي فمن أين كانت البداية، وهل كنت مشغولة بشؤون البيئة منذ طفولتك؟

بدايتي كانت من مدرسة المشرف الإبتدائية وحتى الثانوية في مدرسة عائشة أم المؤمنين تخصص علمي، ثم انتقلت للمرحلة الجامعية في جامعة الإمارات، وكما تعلم أن الإنسان ابن بيئته، ولا شك أن التعلق بالبيئة يبدأ من أولى المشاهدات واللمسات والخطوات على هذه الأرض، فهذا الشيء فطري غريزي في الإنسان لكن مع النمو، وتفتح الذهن تتحقق بلورة الأفكار والاهتمامات.

- بمعنى أنك راضية بهذا الطريق العلمي الذي اخترته؟

أكيد.. كما أسلفت علاقة الإنسان بالبيئة علاقة فطرية، وبالتالي ساعدني هذا الشيء كثيراً في مساري وخياراتي العلمية.

- ننتقل الآن إلى مرحلة موالية أي قبل حصولك على شهادة الثانوية العامة (البكالوريا) ما الأمور البحثية أو العلمية التي لا تفارق مخيلتك؟

بشكل عام، منذ خوضي غمار البحث، وجدت أن شؤون التوثيق لا تفارق مخيلتي، وأعتني بالخريطة البحثية التي من خلالها أرتب الكثير من الموضوعات في مقابلاتي مع المصادر الشفاهية، وعندما أحصل على مادة علمية من خلال التفريغات، أطرحها على صفحتي لتنال متابعة من قِبل المتلقي، حتى يتحقق التواصل بالشكل المطلوب أي المعرفة بالموروث وحيثياته.. وهكذا تستمر عملية البحث والتواصل.

- في هذا السياق ما دواعي اختيارك لمادة علوم البيئة بجامعة الإمارات العربية المتحدة؟ وهل ترينها مهمة في حياتنا؟

بالدرجة الأولى كان لما أشاهده، وأسمعه في محيطي قدر كبير من تعلقي بالبيئة، ثم الانخراط في دراستها لاحقاً، ولا شك هي مهمة جداً في تفسير الظواهر البيئية، ثم كيفية استخدام العلم، والدراسات والتقنيات الحديثة في المحافظة على البيئة، واستثمارها بالشكل الأمثل.

- تقدمين نفسك في هذه المرحلة بأنك باحثة في تاريخ وتراث إمارة أبوظبي، فماذا تقصدين بالتراث أولاً والتراث الإماراتي ثانياً.

التراث بمفهومه العام الشامل هو كل ما خلفه الأجداد للأبناء، وأقصد بالتراث الإماراتي ما ورثته الأجيال الحالية عن السالفة من العادات والتقاليد والآداب والقيم والمعارف الشعبية والثقافية والمادية مع مراعاة خصوصية كل منطقة في دولة الإمارات، وما تنفرد به من خصائص حسب البيئة والثقافة، وهنا يبرز التأثير البيئي والجغرافي في تنوع مصادر التراث، وثرائه بين البيئات البرية والبحرية والجبلية.

- هل المجتمع الإماراتي بحاجة إلى تراثه اليوم؟

الاهتمام بالتراث يعود بالدرجة الأولى للقيم والعادات الأصيلة المتوارثة في مجتمعاتنا العربية بشكل عام، واعتزازها بماضيها، وشخصياً دوماً أضع نصب عيني كلمة والدنا الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - مؤسس الاتحاد وباني دولتنا المباركة؛ حيث قال: «من ليس له ماضٍ ليس له حاضر ولا مستقبل»، وأنا أعتبرها منهجَ تفكيرٍ، ومرشدَ عملٍ في منطلقاتي، وأهدافي في أبحاثي.

- الملاحظ أن خطابك عن التراث لصيق بالحديث عن فئة الشباب فلماذا هذا التوجيه بالذات؟

خطابي موجه إلى هذه الفئة العمرية.. أي الشباب ببساطة لأنهم يمثلون ثروة الأمة، وعماد الوطن وزاده وعدته وعتاده، والملاحظ أن في عالم اليوم المملوء بالتوجهات والأفكار المختلفة، هناك ارتباط الشباب بتراثهم بما فيه من قيم وعادات جميلة، وهذا من أكبر عوامل تثبيت الهوية الوطنية، وتعزيز الانتماء وترسيخ الولاء لهذا الوطن وقادته وشعبه وتاريخه. وكل هذا سيضمن استمرارية حضارة الإنسان في هذه البقعة الجغرافية.

- فهل هذا يعني أن فئة الأطفال والكبار مقصية من هذا الخطاب أي خطاب الحفاظ على التراث؟

لا أبداً .. كما ذكرت أبحاث التراث الغاية منها تحقيق تواصل الأجيال، وضمان انتقال سلس للمفاهيم والأفكار عبر منظومة قيم، وعادات تغرس منذ الطفولة، وتنتقل من الكبار للصغار.

- إذن خطابك يهدف إلى الحفاظ على هوية المجتمع الإماراتي؟

بالطبع هذا هو الهدف الأهم والغاية الأسمى في دراسة تراث الدولة، والذي من خلاله نسهم في بلورة سمات المجتمع الإماراتي وخصائصه، وهذا بدوره يقودنا إلى تحديد وسائل وآليات الحفاظ على الهوية الوطنية.

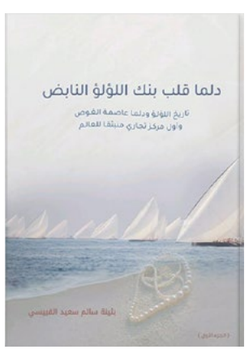

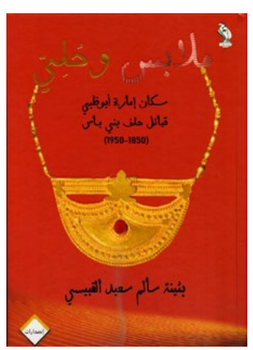

- اهتمامك ينصب على إثارة الأمور التراثية المنسية في التاريخ الإماراتي، فهل نجحت في تحقيق ذلك؟ بطبيعة الحال أنا أستحضر العراقيل التي تحول دون تحقيق ذلك، وإذا كان بالإمكان الوقوف عند بعضها؟

علينا أن نؤمن بأفكارنا، وقناعاتنا ونسعى للعمل دون كلل أياً كانت النتائج، نبذر البذرة ونغرس الزرع، ويسعدنا أن تجني الأجيال ثمار عملنا، ومهما كانت العراقيل والعوائق يجب على كلٍ منا القيام بدوره على أكمل وجه، وترك بصمته في خدمة وطنه، ومجتمعه حتى لو اقتصر جهده على فتح الباب، وإلقاء الحجر في مياهٍ راكدة.

- حضور دلما في مؤلفاتك يثير العديد من التساؤلات، فما دواعي هذا الاختيار؟

لدلما مكانة خاصة في قلبي، كونها منطقة أجدادي كما لمدينة أبوظبي التي ولدت، وترعرت فيها، لهما أعظم الأثر في أعماق روحي، وتلمس خطواتي الأولى في درب المعرفة، والتعلق بالتاريخ والتراث والبيئة، هذا التعلق يبحر من شواطئ أبوظبي متحدياً الأمواج المتلاطمة، والأخطار المحدقة ليرسو على سواحل جزيرة دلما، فالأمر شعور وجداني بالدرجة الأولى، وثانياً لما كان لدلما من مكانة تاريخية وحضارية واقتصادية في تاريخ إمارة أبوظبي باعتبارها عاصمة بنك اللؤلؤ، ومركزاً عالمياً لتجارته، وهذا بحد ذاته كفيل بالتخصص في دراستها من جميع النواحي، ولاسيما أن هناك كنوزاً معرفية لم تكتشف بعد في ذلك التاريخ الحافل لدلما.

- هل هناك بحوث أخرى أنجزت عن دلما إضافة إلى كتابك الصادر عام 2017م، والموسوم بـ«دلما إطلالة على الماضي»؟

نعم، تم إصدار كتاب «دلما قلب بنك اللؤلؤ النابض» الجزء الأول في عام 2022 م عن دار البيان العربي للنشر، وهو بحث تاريخي سياسي اقتصادي اجتماعي عن تاريخ اللؤلؤ والغوص، باعتبارها عاصمة بنك اللؤلؤ في العالم في وقتها، وكل الظروف والتحديات التي واجهت هذا المجال إلى ظهور اللؤلؤ الصناعي، وما أعقبه من اكتشاف النفط، واضمحلال الاهتمام بأحد أهم المؤثرات الاقتصادية في تلك الحقبة التاريخية.

- لننتقل الآن إلى أمر آخر يدخل في صلب التراث، ويتعلق بالملابس والحلي بإمارة أبوظبي.. فلِمَ اهتمامك بهذا الجانب؟

طبعاً اهتمام شخصي بالمقام الأول كوني نشأت في بيئة تهتم بهذا الجانب، وتحافظ على ما ورثته خاصة الحلي، وثانياً توضيح هذا الجانب فيه إبراز لثقافة مجتمع وحضارته، وخاصة المساحات المبهرة التي تدعو للفخر والتباهي أمام ثقافات العالم في تغيير للتفكير النمطي المحدود عن إنسان هذه المنطقة.

- هل هناك جوانب أخرى تراثية يمكن الاهتمام بها بإمارة أبوظبي سعياً للحفاظ على الهوية؟

إمارة أبوظبي وضعت الكثير من الإجراءات والقوانين التي تحث على الارتباط بالهوية الوطنية، ولكن التطبيق قد يخون بعضهم أتوقع لو تم تعميم التدقيق على ذلك سيكون أفضل بالذات في الجهات كلها التي تعبّر عن واجهة الإمارة.

- حدثينا عن أهم كتاباتك التي تولي اهتماماً بالتراث الإماراتي، وعن إصداراتك المستقبلية؟

هناك أبحاث، ودراسات متخصصة لن أعلن عنها الآن، فقط ترقبوا المفاجآت السارة.

- كيف تنظرين إلى مستقبل التراث الإماراتي، وعن أبرز الجهود التي تقوم بها الدولة ومؤسساتها من أجل الحفاظ عليه؟

أولت القيادة الرشيدة اهتماماً كبيراً للتراث، وكان من بوادر هذا الاهتمام الكبير تأسيس أول جمعية للتراث الشعبي في أبوظبي، ثم تدشين مهرجان الشيخ زايد التراثي، وتأسيس العديد من المراكز المتخصصة في أرجاء الوطن، والتي تقوم بجهود عظيمة في هذا الجانب، وأخص بالذكر في إمارة أبوظبي نادي تراث الإمارات، ودوره الكبير المبارك في توثيق التراث الوطني وحفظه، لذلك نقول نحن بخير والتراث بخير، ولله الحمد في دولة الإمارات التي تسخّر أكبر الإمكانات في الحفاظ على التراث الأصيل ■

كاتب وقاص مغربي

قراءة في ديوان «همس الأماكن»

للشاعر عبد الله بلحيف النعيمي

د. عبد الحكيم الزبيدي

للأماكن حضور خاص في الشعر منذ القدم، فارتباط الشاعر بالمكان ارتباط قوي، فهو الوطن، وهو الملاذ والمتنفس، وهو المرتبط بالذكريات الجميلة أو المؤلمة. ولذلك نجد للمكان حضوراً لافتاً للانتباه لدى الشعراء منذ العصر الجاهلي حيث يقف الشاعر على أطلال المكان الذي عاش فيه أجمل ذكرياته، ويستعيد لحظات أنسه مع من يحب. كما نجد من الشعراء من تفاعل مع المدن فوصفها أو رثاها. فلا عجب، إذن، أن يخصص الشاعر الإماراتي الدكتور عبد الله بلحيف النعيمي ديوانه للأماكن، يستمع إلى همسها، ويستعيد ذكرياته الجميلة فيها، ويصف بعضها، ويرثي بعضها الآخر. وإذا تصفحنا الديوان، الصادر عن دار ناشرون بدبي، 2023، سنجد أن أول الأمكنة وأكثرها حضوراً هي الأمكنة المرتبطة بالوطن. فالشاعر يرى وطنه جنة الدنيا:

جميـــــــلٌ أنتَ يا وطـــــني جميـلُ
جمعـــــتَ الخلـــقَ والدنيا تُزيـــلُ
وجدتُـــكَ جنّـــةَ الدنيـــا حيـــاةً
فيومـــكَ عيدُنـــا عيـدٌ أصيـــلُ

ويشكل «عشق الإمارات» الهاجس الأكبر للشاعر حيث لا يرضى عنها بديلاً:

فعشقـــكِ - يـا إماراتـي - دفـــينٌ
ولا يرضـــى بديـــلاً عنـــكِ قـــربُ
وعشقـــكِ - يا إماراتـــي - ضيـــاءٌ
كـــأن بقربـــه الأنـوارُ تصبـــو
وعشقـــكِ - يا إماراتـــي - هـــواءٌ
يداعبُ منـــكِ أشواقـــاً تهـــبُّ

وهو يعشق رمالها ويراه كالذهب:

حســنُ الطبيعـةِ والرمـــالُ أخذنـــي
في جنـةٍ فخـــرت بهـــا الجنّـــاتُ
ذهـــبٌ تـــلألأ والريـــاحُ جعلنـــه

كالمـــوجِ إذ عصفـت به الأشتـــاتُ
تلك الإمـــاراتُ التي نزهـــوبـــها
هبـــةُ الإلـــهِ وللإلـــهِ هبـــاتُ

ويفدي وطنه بروحه:

جميـــعُ الشعـــوبِ تحـــبُ الحيـــاة
ونحـــن «نمـــوتُ ليحيـــا الوطنْ»

ويتغنى الشاعر بمدن الدولة وفي مقدمتها «درة العواصم» أبوظبي، وفيها يقول الشاعر:

تجولـــتُ في الدنيـــا وزرتُ عواصمـــاً
وفيـــكِ «أبوظـــبي» تـــذوب العواصـــمُ
وفيـــك «أبوظبي» مـــن الحُلـــمِ مرقـــدٌ
ومنـــكِ يهـــاب القـــربَ ظلـــمٌ وظالـــمُ
وأنـــتِ «أبوظـــبي» مـــلاذٌ وقبلـــةٌ
يحجُ إليـــكِ الوقـــتُ والوقـــتُ حـــازمُ

فأبوظبي هي موطن الأمان والتسامح وقبلة القاصدين. وبعد العاصمة أبوظبي تأتي مدن إمارة الشارقة بجمالها وتنوعها، فنجد قصائد عن الشارقة «خير المدن»، عاصمة الثقافة والعلم:

مســـاؤكِ علـــمٌ يـــدور هنـــا
وشارقـــةُ النـــورِ تُعلـــي السُـــننْ

وعن كلبا «درة الساحل»:

«كلبـــاءُ» قافيـــة الجمـــالِ معطـــراً
في وجههـــا تتبســـمُ الأضـــواءُ

وعن «الذيد»:

رأيتُ في «الذيـــدِ» روحـــاً زيَّنـــتَ وطنـــاً
وأبدعـــت في جمـــالٍ زيَّـــن «الذيـــدا»

وكلها تزهو بأيادي صاحب السمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى للاتحاد، حاكم الشارقة، حفظه

عبد الله بلحيف النعيمي

الله، الذي لم يألُ جهداً في سبيل تطويرها وتزيينها، وفيه يقول الشاعر:

أبدعتَ صُنعـاً حمـاكَ الرَّبُّ «سلطانـا»
وجـدتَ فـي الصنـعِ إبداعـاً وألوانـا
لبيَّـتَ «للخـورِ» أحلامـاً تُردِّدهـا
فـي كـلِّ شـبرٍ يرى الإنسـانُ برهانـا
ملكـتَ قلـبَ الورى طوعـاً ومكرمـةً
الكـلُّ منـا يرى فـي الشيـخ عنوانـا

وبعد الوطن الصغير الإمارات، يأتي الوطن الأكبر وهو الخليج والجزيرة العربية ثم الوطن العربي الكبير، فنجد الشاعر يتغنى بدول ومدن دول مجلس التعاون الخليجي واليمن وبقية دول الوطن العربي، يقول عن المملكة العربية السعودية:

سعـــــــوديٌّ بمـــــلءِ فمـــي
أردِّدهـــــا عنـــاوينـــــا
رعـاكَ اللـــــه يـا وطنـــاً
بعزمـــكِ ننصـــرُ الدينـــا

ويقول عن «البحرين»:

قد هزّني الشوق «للبحـرينِ» يـا شوقـاً
وعطّـــر الفجـــرُ عيـــداً زادني عشقـــا
يـــا ديـــرةَ الخُلـــدِ يا أرضَ الخُلـــودِ ويـــا
بشـــائرَ الخـــيرِ قد زانت بـــكَ النُّطقـــا

ويقول عن «الكويت»:

أرضُ «الكويـــــتِ» وكم لهـــا نشتـــاقُ
ونرى بهـــــا مجـــدَ الزمـــانِ يُســـاقُ
يـــا ديـــرةَ الأحبـــابِ جئتُـــكِ حامـــلاً
مـــن دار «زايـــدَ» فرحـــةً تنســـاقُ

ويقول عن عُمان، ويخص منها «ظفار»:

إنهـــا أرضُ لُبـــانٍ زان كـــل الأثريـــاءْ
«لظفارٍ» دارفكري حـــيث لم يلقَ العنـــاءْ

ولا ينس مدن اليمن، فيقول عن «صنعاء»:

لقد طـاب جُرحـي واستطـاب مقامـي
وعانقـــتُ في «صنعـــاءَ» عذبَ منـــامي
وعانقتُ في «صنعـــاءَ» حضنَ سلامـــتي
وأمـــني بأوطـــانٍ يفيـــضُ سلامـــي

ثم ينطلق الشاعر إلى الوطن العربي الكبير:

نســـيرُ لمجـــدكَ يـــا موطنـــاً
حمـــاه الجـــدودُ لعـــزِّ العـــربْ
بـــلادُ العروبـــةِ ملحمـــةٌ
لمستقبـــلٍ مشـــرقٍ مرتقـــبْ

ويقول عن «مصر»:

إليـكِ «مصـــرُ» قـادني الأمـانُ
والسعـــــدُ فيـــكِ زان بـــالأذانِ
فكـــم نهيـــم فيـــكِ «مصرُ» حبـــاً
وكـــم يجـــود الشعـــرُ بالأغانـــي
يـــا «مصـــرُ» أنـــتِ دُرَّةُ القوافـــي
الوقـــتُ يمـــضي فيـــكِ كالثوانـــي

وعن «المغرب» يقول:

يا أهـــل «مغربنـــا» أسعدتـــم العَرَبـــا
من بعـــدِ حُزنٍ نمـــا في صدرهـــم وربـــا
يا مغربَ الحُســـنِ قد زيَّنـــت مجمعَنـــا
أعلامُنـــا رُفعـــت تستهـــضُ الحقبـــا

ويقول عن «بغداد»:

مهـــدُ الحضـــاراتِ يا «بغـــدادُ» أناتـــي
فـــي موكـــبٍ ســـار من أرضِ الإمـــاراتِ

ويتعاطف الشاعر مع المدن المنكوبة التي تعاني الحروب والصراعات، فيقول عن «القدس»:

قولـــي لمـــن يبكيـــكِ يـــا «قـــدسُ»
قـــد مسّـــني مـــن صمتكـــم رجـــسُ
وأصابـــني مـــن جهلكـــم خـــورٌ
وألـــمّ بـــي مـــن جبنكـــم مـــسُّ
قولـــي لمـــن تبكـــين يـــا «قـــدسُ»
قـــد نالـــني مـــن مكرهـــم دسُّ

ويرثي مدينة «بيروت» ويأسى لما حلّ بها من دمار:

بُعـــادي عنـــكِ يا «بـــيروتُ» نـــارُ
فليـــس لعالـــم النسيـــانِ جـــارُ
فإنـــكِ للعروبـــةِ خـــيرقلـــبٍ
وإنـــكِ للحيـــاةِ سمـــاً ودارُ
حصدنـــا منـــكِ أفراحـــاً ونـــوراً
وهذا اليـــوم ينتشـــرُ الدمـــارُ
بـــلادُ الأرزِ أشقتهـــا الليالـــي
ومـــن يدهـــا لقـــد خـــرج النهـــارُ
بـــلادُ الحـــبِّ أضحـــت دون حُـــبٍّ
بهـــا عبـــث المقامـــرُ والقُمـــارُ

ولا يقتصر رثاؤه للمدن العربية، بل يمتد إلى مدن العالم، فالهم الإنساني واحد، يقول الشاعر راثياً «بلد الضباب»:

إني أرى «بلـــد الضبـــابِ» حزينـــةً
تبكـــي الفراقَ ودمعهـــا قـــد ســـالا
قد كـــنتِ يا «بلـــدَ الضبـــابِ» رحيمـــةً
والنـــاس كـــم قالـــت بكِ الأقـــوالا
واليـــوم زال مـــن الحيـــاة بريقُهـــا
سبحـــان مـــن قـــد غـــيّر الأحـــوالا

«بلـــدُ الضبـــابِ» فأين أين شموسُهـــا
تاريخُهـــا فـــي لحظـــةٍ قـــد زالا

ويصف بعض البلدان التي زارها وأعجبته طبيعتها الخلابة، خاصة سويسرا والبرتغال، يقول عن «بادن»:

أراكِ جميلـــةً يـــا أرضَ «بـــادنْ»
جبـــالٌ زيّنـــت أرضَ الجنـــوبِ
جمـــالٌ للطبيعـــةِ فـــي تـــلالٍ
كساهـــا الربُّ جنـــاتِ الطُّيـــوبِ
مناظـــرُ تُسحـــرُ الألبـــابَ سحـــراً
وتسكـــبُ كـــل حســـنٍ فـــي القلـــوبِ

ويقول عن «مونتروه»:

أيقونـــةُ الأنـــسِ للدُّنيـــا بأكملِهـــا
وراحةُ البـــالِ والأشـــواقُ والمـــرحُ
سبحـــان ربـــي وفي «مونـــتروه» ذاكـــرةٌ
فليـــس يُنسى مكـــانٌ جـــوّه سَمِـــحُ

وعن «ماديرا - البرتغال» يقول:

جنـــةٌ فـــي الأرض يهواهـــا الجمـــالْ
ليراهـــا النـــاسُ والحُســـنُ يُطـــالْ
إن «ماديـــرا» عـــروسٌ فـــي بهـــاءٍ
زانهـــا بـــين المحيطـــاتِ الكمـــالْ
فلـــتزوروا منبـــعَ الحســـنِ فيوضـــاً
وإليهـــا وحدهـــا شـــدوا الرحـــالْ

ولا ينسى الشاعر وهو يستمتع بجمال المدن وقصورها، لا ينسى مجد أمته وتاريخها، يقول عن «قصر بينا - البرتغال»:

فيـــكِ يـــا «سنـــترا» جمـــالٌ
زانـــه قصـــرٌ تعلّـــى
ذاك مـــيراثُ جـــدودٍ
لزمـــانٍ قـــد تجلّـــى
فـــي زمـــانٍ كـــان فيـــه
كـــان للإســـلامِ أهـــلا

وهكذا تجولنا في ديوان الشاعر عبد الله بلحيف النعيمي واستمعنا إلى «همس الأماكن»، واستمتعنا بوصفه للمدن التي ارتبط بها و«فرضت نفسها عليه»، كما عبّر في مقدمته ■

* شاعر وباحث إماراتي

الصحة النفسية في الأمثال الشعبية الإماراتية

عبد المنعم همت
كاتب وباحث سوداني

الإنسان يبحث عن السعادة والاستقرارين النفسي والاجتماعي وفي سبيل تحقيق ذلك يمر بمراحل وتجارب مختلفة تلعب دوراً مهماً في تشكيل وعيه وترتيب دواخله، حيث يسعى إلى الوصول للثبات النسبي المتوافق نفسياً مع ذاته ومحيطه الاجتماعي مستشعراً قيمته وقدراته ما يمكنه من القيام بالدور الإيجابي في الحياة. عرّفت منظمة الصحة العالمية الصحة النفسية بأنها «ليست مجرد غياب الاضطرابات النفسية، بل هي حالة من العافية يستطيع فيها كل فرد إدراك إمكاناته الخاصة والتكيّف مع حالات التوتّر العادية والعمل بشكل منتج ومفيد والإسهام في مجتمعه المحلي».

يقول - رحمه الله تعالى - الشيخ زايد: «الإنسان السوي إذا لم يستخدم طاقاته الفكرية والعقلية، ويعمل على تسخيرها في كل ما أمرنا الخالق سبحانه وتعالى فإنه لن يحصد إلا الأمراض والمتاعب النفسية والاجتماعية». بكل تأكيد إن استخدام الطاقات بشكل مدروس مستدعين أن كل إنسان ميسر لما خلق له سيحقق نجاحات كبيرة على مستوى الفرد والجماعة. كما لا ينبغي للشخص أن ينجرف إلى الأهواء ويميل حيث تتجه الريح، وهنا نشير إلى المثل «على دق الطبل ترقص المينونة» المينونة: المجنونة. يريد الشيخ زايد - رحمه الله تعالى وطيّب ثراه - أن يؤكد ارتباط الصحة النفسية والاستقرار الاجتماعي بالإيجابية في الحياة ولذلك تحدث عن استخدام الطاقات الكامنة في الإنسان بشكلها الصحيح؛ لأن الصحة النفسية تهدف إلى البناء المتكامل للشخصية من الناحية النفسية ليكون فاعلاً في المجالات كافة، كما أن الصحة النفسية تدرس المشكلات الاجتماعية المتعلقة بنمو الشخصية وتكوينها وتسعى إلى التقويم والتوجيه السلوكي للشخص. بلا شك، الأمثال الشعبية لها دور مقدر في صياغة السلوك وتقويمه بما تملكه من إيجاز ومباشرة في توصيل المعلومة وإصابة الهدف ولذلك نحاول استجلاء مكامن ومواضع الصحة النفسية في الأمثال الشعبية الإماراتية، فمن المعلوم، كلما ترسخت جذور التراث ومرت بمراحل التمحيص والتجارب الناضجة ازدادت تأثيراً في المستويين الفردي والجماعي؛ لأن الشعوب تختزن الحكمة في تراثها وتطور ذاتها للوصول إلى تحقيق غاياتها. لتعزيز الصحة النفسية هناك أشياء يجب اتباعها مثل المحافظة على صحة البدن والنفس، والقيام بأدوار اجتماعية فاعلة، مثل: الابتسام، والتفاؤل، والمرونة النفسية، والتفكير السليم، والمحافظة على النعم. في هذا المقال نحاول إعطاء نماذج للأمثال الشعبية الإماراتية المعززة للصحة النفسية.

يقول المثل الاماراتي: «حلي لسانك تلقا الناس خلانك»، ومعنى المثل الابتعاد عن لفظ المنفر من القول واستخدام الألفاظ الجميلة المستساغة. وفي جانب تطييب الخواطر «الزبيبة ما تشبع لكنها تطيب الخاطر» والمثل معناه بمقدور الإنسان إسعاد الآخرين بالقليل؛ لأن رفع الروح المعنوية والوقوف مع الناس في الأوقات كلها ولو بالقليل يخفف الآلام والضيق.

لتعزيز الصحة النفسية لابد من تحديد الأهداف حتى تصبح الحياة ذات قيمة. ينبغي أن نحدد الهدف بناءً على الظرف الذاتي والموضوعي وليس على الرغبات وفي ذلك يقول المثل: «لي ما يقيس قبل لا يغوص، ما ينفعه الغوص عقب الغرق».

ليعيش الإنسان سعيداً عليه تقدير ذاته والابتعاد عن الشهات حتى لا يصبح مادة اجتماعية تتناقلها الألسن بالسوء فيؤثر ذلك سلباً في الجانب النفسي فيقول المثل «من خلّا نفسه سبوس، لعبت به الدياي» السبوس: قشرة الرز، والدياي: الدجاج. وهناك مقاربة مهمة بين هذا المثل الإماراتي وقول المتنبي:

مَن يَهُن يسهُـل الهوانُ عليـه ما لجُرحٍ بميتٍ إيـــلام

يسعى الإنسان جاهداً للعيش في محيط اجتماعي مستقر ويتأتى ذلك بحسن الصحبة واختيار البيئة الإيجابية التي تُخرج الطاقة الإيجابية داخل الانسان، حيث يقول المثل «تابع المساعيد تسعد». إن المحافظة على العلاقات الاجتماعية والتواصل والتراحم له تأثير إيجابي على الفرد والمجتمع بالإضافة إلى التماسك المجتمعي. فهي تريح النفس وهنا نذكر هذا المثل «الريل تمشي سالكة وين القلوب تود» يعني المثل أن الإنسان يذهب بأريحية إلى المكان الذي يجد فيه راحته النفسية. أما في جانب التواصل الاجتماعي وبر الوالدين حتى بعد وفاتهم فيقول المثل: «ربيع أبوك لا تجافيه». الشخصية ذات الجاذبية الاجتماعية يلتف الناس حولها ويستبشرون بقدومها للخصال الحميدة المودعة فيها، دائماً ما يجد الإنسان نفسه منجذباً لزيارة الأشخاص الذين يستقبلونك بترحاب وطيب خاطر، تسبقهم ابتسامتهم وهذا ما جاء في المثل «البيت ما يندخل من بابه، يندخل من أحبابه» وهذا المثل قريب في معناه من المثل الشعبي السوداني «بليلية مباشر ولا ضبيحة مكاشر» مباشر: مستبشر ومسرور، مكاشر: غير مسرور ومتضايق. والمثل يعني أن الإكرام بالقليل وأنت مسرور خير من الذبيحة مع إظهار عدم الرضا. تظل الإيجابية صفة يبحث عنها الناس في المجتمعات كلها باعتبارها رافعة مهمة، فأصحاب الهمم العالية عادة ما يتميزون بالسلوك الإيجابي والمبادرة ويطردون الكسل والإحباط من دائرة حياتهم الخاصة والعامة. يقول المثل: «لا في الجفير شيء ولا شاه كلت شيء قالوها حوه وطلعت». الجفير: سلة مصنوعة من سعف النخيل، حوه: لفظ يستخدم لزجر الماعز، يضرب المثل للشخص الذي يقوم بأعمال لا تأثير إيجابي لها وعندما يتم طرده من المكان ينتهي كل شيء ولا يترك أثراً.

المجتمع الإيجابي لا يحب الكسل ويشجع الناس على العمل بهمة عالية ونورد هذا المثل «لي عطن السريح سرح طنزا» يقال المثل للشخص الكسول الذي لا يسعى للرزق، ومن الأمثال التي تشجع العمل «تراب العمل ولا زعفران البطالة».

للبيئة أثر كبير على الإنسان والمثل الإماراتي يستدعي البيئة ومنها البحر «اللي سهر الليل كل طري، واللي رقد كل مالح»، يوضح المثل أن الشخص المجتهد في عمله يأكل سمكاً طازجاً، أما الكسول الذي ينام فيأكل السمك اليابس المملح، وفي المعنى ذاته «اللي راح الحداق لقى إدامه، واللي يَلَس في البيت لقى الندامه»، الحداق: صيد السمك، يلس: جلس. يقول المثل بأن اللهو والجد لا يجتمعان «ما يستوي شوق ورعاية نوق»، وأن عاقبة الكسل النبذ من المجتمع «الشيره اللي ما منها ظل قطعها أولى» الشيرة: الشجرة.

يحارب المثل الشعبي الإماراتي اليأس والإحباط ويدعو الناس إلى التفاؤل «ياوش ولا تخيب عسى المياوش يوم يصيب» ياوش: اسعى وابحث ولذلك التوكل المرتبط بالسعي مطلوب، «قط الخيط وعلى الله الصيد»، قط: ارمي، الخيط: سنارة الصيد.

يصاب بعض الناس بالإحباط نتيجة لإقدامهم على أعمال لا تتناسب مع مقدراتهم ظناً منهم أنها تحقق أحلامهم مما يتسبب في إحباطهم، تناول المثل هذه المشكلة فقال: «قبل ما تحط ريلك قايس»، ريلك: رجلك. قايس: تأكد من قياس موضع الرجل حيث لا بد من اختيار الوضع المناسب لذلك. وقولهم «الكحال في العمى ضايع» أكد المثل أهمية تبادل المعارف بين أفراد المجتمع ونقل الخبرات أيضاً حتى لا يستبد الإنسان برأيه فيقع في الندامة والإحباط. فيقول «إفلان يسبح على قرعته» ينصح المثل بضرورة الأخذ برأي العقلاء من الناس، ولكن لا يحرم المثل من الاعتداد بالرأي فيقول «اربط صبعك وكل بينعت لك دوا» يشجع المثل الشخص الذي يرى صواب رأيه واليقين من القرار الذي اتخذه أن ينفذ دون تردد.

لم يهمل المثل جانب الثقة بالنفس فلقد أدرك الحس الشعبي أن هناك من يعمل على محاربة النجاح والتقليل من شأن الآخر فقال: «اللي ما يدانيك يخرب معانيك». المثل يعني أن الشخص الذي يبغضك يبحث عن تشويه سمعتك والتقليل من شأنك. كما يقول المثل: «اربط الحصان عند الحمار ولا علمه الشهيق ولا النهيق» يقال المثل في أصحاب المشاكل والذين يعملون على نشر الشر والتحذير من قرين السوء.

هناك ضرورة ملحة لوجود مجتمع متجانس يؤدي واجباته وفقاً للتأثير الاجتماعي وذلك لتحقيق الانصياع الطوعي للموجهات العامة للقيم المجتمعية ومنها تأتي أهمية التنشئة الاجتماعية السليمة وصياغة الوجدان الاجتماعي الواعي. لبناء مجتمع متماسك لابد من التجانس وهنا لابد من وجود السلام الاجتماعي الذي يرسخ الاستقرار عبر تأسيس منظومة قيم نافذة وفاعلة تنظم حياة الناس في المجتمع الواحد وتحدد شكل العلاقة مع الآخر أيضاً، وبذلك يسود السلام الاجتماعي الذي يؤثر إيجابياً على الصحة النفسية ■

ريشة «ماعت»

وقوانينها في الحضارة الفرعونية

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

مصر القديمة أولى الحضارات التي عرفت وحدانية الإله، وتقدس اسمه في كل شيء في الطبيعة، فصُنعت رموز من وحي العقل تعبّر عن إله محتجب، أُطلق عليهم «آلهة»، لم تكن الآلهة تُعبد لدى المصريين، ولكنهم كانوا يجلونها، لاعتقادهم أن روحها تحوي القوة الخارقة للإله الأعظم. ظهرت تعاليم الحكمة والأخلاق في مصر القديمة عام 3000 قبل الميلاد. ويعد كتاب «الخروج إلى النهار» كتاب الموتى الذي يضم عدداً من القوانين، من أقدم النصوص الفلسفية والرحانية في العالم. دونت تلك القوانين على أوراق البُردى وعلى جدران المعابد، وعلى اللوحات والتماثيل والتوابيت والمسلات المصرية القديمة.

حرص المصري القديم على القيام بممارسات ترفع من الوعي المعرفي الذي يقود إلى الحكمة، وعرفت تلك الممارسات باسم (سما - تاوي) ولها ما يقابلها في الفلسفة الهندية والمعروفة بتعاليم اليوغا والهدف من (سما - تاوي) إعادة وصل الإنسان بالوعي الكوني، ومن أهم المدارس الروحانية في مصر القديمة (يوغا الحكمة، ويوغا الحب الإلهي، ويوغا الجسد، ويوغا التانترا، ويوغا الفعل). تعمل هذه الممارسات الروحية على تطهير العقل والجسد والروح معاً، وبذلك يعي الإنسان الجوهر الروحي الكامن فيه وفي كل شيء في الكون، وهي في مجملها تدريبات عقلية وجسدية ورحانية تقود الإنسان لاكتشاف ذاته وحقيقة الكون.

أحد أهم ممارسات يوغا الفعل هي مراقبة الأفعال والتحكم فيها وتعرف باسم «يوغا ماعت» أو «يوغا الكارما» (كما عرفت في الهند) وهي مرتبطة بالفعل ورد الفعل اتجاه الأشياء والأحداث من حولنا وتحتاج منا إلى مراقبة دائمة للسلوك والمشاعر والكلمات قبل أن نصدرها. «الكارما» قانون كوني يعرف باسم السبب والنتيجة أو قانون الزرع والحصاد، تزرع خيراً حتما ستحصده والعكس صحيح، ومن خلال تأمل يوغا الفعل ترتقي روح الإنسان وتحدث له ولادة جديدة. جاء في كتاب الخروج إلى النهار ما يلي: «هأنذا أتيت إليك إلهي.. لقد طرحتُ عني الجسد القديم، واكتسيت هئية جديدة...» إشارة إلى الولادة الروحية بفعل تأمل الذات وأفعالها ومحاسبتها قبل أن تدخل مرحلة الحساب «ماعت»، وأحد الأمثال القديمة (أقم الماعت، كما تتنفس)، (من أقام الماعت، طال عمره). فما هي «ماعت» في الفلسفة المصرية القديمة؟

صوّر الفنان المصري القديم «ماعت» في هيئة امرأة شابة تعلو رأسها ريشة النعام، ورمز الريشه ربما مرتبط بعلو الشأن وله ارتباط بعالم السماء الكوني؛ وربما تعبر عن الصفاء والطهارة. ذُكر في «كتاب الموتى»، «أن ماعت تظهر عند الموت وقت الحساب في العالم السفلي (عالم الموتى). جاء في كتاب «الخروج إلى النهار»: «أن ضمير الإنسان (قلبه) هو دليله ومرشده إلى الإله»؛ لذلك يوزن قلب الإنسان الذي يمثل الوعي المعرفي في ميزان الحق (ليست الأعمال ولكن الرغبات والأفكار المادية والمشاعر المختزلة فيه) مقابل ريشة الماعت التي تمثل الوعي والتناغم الكوني في كل شيء. الإنسان هو الذي يحدد مصيره يوم الحساب، حسب درجة وعيه وما اكتسبه من حكمة. يشرف على وزن القلب كائنات إلهية «أنوبيس» إله الميزان، و«تحوتي» الذي يقوم بدور الشاهد الذي يدوّن وقائع المحاكمة بحضور 42 قاضياً ويطلق عليهم «قضاة ماعت». في يوم الحساب يوضع قلب الميت على الميزان في كفة وتوضع ريشة ماعت في الكفة الأخرى. إذا كان الإنسان يحيا في تناغم مع النظام الكوني، فسيكون قلبه متزناً مع ريشة ماعت وسيمنح الخلود الأبدي، أما إذا ثقلت كفة القلب في الميزان (مثقلاً بالرغبات المادية والمشاعر السلبية) سيواجه مصيراً غير معلوم، ويلتهم قلبه حيوان خرافي عرف هذا الحيوان باسم «عامت»، رأسه رأس التمساح وجسمه جسم الأسد وله ذيل فرس النهر. يرمز إلى المصير المجهول الذي ينتظر القلب غير الطاهر. وأن العذاب الذي يتلقاه ربما «الندم» على ما فات في الحياة الدنيا. تدخل قوانين الماعت الـ42 ضمن نصوص الحكمة ودوّنت في كتاب «الخروج إلى النهار»، ويُحاسب جميع الموتى على قوانين ماعت ومن يخالفها، يُسجل آثماً في الحياة الأبدية. هذه القوانين كلها تدور حول يوغا الفعل أي كيف يضبط الإنسان أفعاله في الحياة الدنيا لتكون متوازنة مع النظام الكوني بحيث يخرج من دنياه بقلب طاهر ويستعد للمحاسبة أمام «ميزان ماعت» ومن ضمن قوانين «ماعت»:

- أنا لم أرتكب خطيئة
- أنا لم أقتل
- أنا لم أسرق
- أنا لم أكذب
- أنا لم ألعن
- أنا لم أزنِ
- أن لم اعتدِ على أحد قولاً وفعلاً
- أنا لم تصدر مني أفكار شريرة
- أنا لم أغوِ زوجة
- أنا لم أهدد السلام
- أنا لم ألوث ماء النيل،... إلخ.

كان مفهوم «الماعت» بمثابة النظام المضبوط لكل شيء، وكان لزاماً على الملوك أن تقر «الماعت» أثناء حكمها، ويظهر ذلك بتقديم الملك لقربان «الماعت» أي إن القربان تعبيررمزي لإتمام المهمة المسؤول عنها الملك، فقد ذكرت نصوص التوابيت أن الأرباب تحيا على «ماعت» وسجلت مشاهد منقوشة على جدران أغلب المعابد المصرية، تقديم الملوك قرابين الـ«ماعت».

فلسفة «ماعت» و «شو»

كان التأمل جزءاً من الوعي الجمعي لسكان الحضارات القديمة، فقد كانوا يمارسون التأمل أثناء ممارسة أنشطة الحياة اليومية، بممارسات التأمل في العصر الحالي مختلفة كلياً عنه في الحضارات القديمة، كانت العلوم الباطنية جزءاً من حياة الناس اليومية. فقد كان وعي الإنسان في الحضارات القديمة مشغولة طوال الوقت بالبحث عن الألوهية في كل شيء من حوله سواء أثناء الزراعة أو الأعمال اليدوية أو بالأنشطة الفنية كالموسيقى والرقص والغناء. فكانوا يملكون العقل المتأمل. وأعطت الفلسفة المصرية قدسية لكل شيء في الوجود ومنها «الهواء» الذي عرف باسم آلة «شو»، «شو» يعكس أهمية التنفس في الفلسفة المصرية القديمة، حيث ربط المصري القديم بين مفهوم «ماعت» و«شو» أي بين الاتزان وعملية التنفس، حيث جاء في متون التوابيت، أن «شو» لديه القدرة على ضبط الطاقة الحيوية في جسم الإنسان أي عن طريق التنفس السليم، جاء على لسان الإله «شو»: «أنا الساكن في ملايين المخلوقات.. أنا الذي يُسمع صوتي في ملايين الكلمات «المقصود قدرة الله تسكن فينا من خلال عملية التنفس»، التنفس السليم يعمل على إعادة ضبط الإنسان لعقله وهو أول الطرق لتحقيق السلام الداخلي والتناغم الكوني، التنفس السليم يعمل على ارتخاء الجسد وهدوء العقل وارتقاء الروح ويستطيع الوصول إلى حقيقة ذاته الموصولة بالواحد الأحد؛ لكي يصل الإنسان إلى حالة من الاتزان والسكينة التي تعرف باسم «حتب»، «Hetep» في الفلسفة المصرية القديمة يجب عليه أولاً التحكم في الأفعال والأقوال لكي يصل إلى السلام الداخلي في رحلة «التأمل والصمت» ■

الهوامش:

1. https://www.albawabhnews.com/4009196
ياسر الغبيري، آلهة مصر القديمة، أخبار البوابة، 7 مايو 2020.
2. د. مواتا آشبي، اليوغا المصرية: فلسفة التنوير، الجزء الأول، الناشر معهد سيما، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2005.
3. د. مواتا آشبي، الديانة المصرية: علوم طيبة الإلهية: خلاصة الحكمة وأسرار آمون، الجزء الثاني، الناشر معهد سيما، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2005.

المعضلة الإبداعية لتقنيات الذكاء الاصطناعي

شريف مصطفى محمد
كاتب وقاص مصري

في الفترة الأخيرة تسارعت تطورات تقنيات الذكاء الاصطناعي بصورة كبيرة جداً. قد لا تستطيع بعض العقول استيعاب هذا التطور المذهل والمربك معاً، فهو تطور مذهل في سرعته وتحولاته ومربك في قدراته التي تؤثر في نظرتنا لمستقبل الإنسانية في ظل المتوقع أن يحدث على مدار السنوات المقبلة. يجب أن نتعامل مع هذا الارتباك الذي يسقط فيه العقل الواعي، وأن نتخلص من لحظات عمى الإبهار المؤقت سريعاً، ونبدأ في التفكير في التفاصيل التي تختبئ وراء هذا التطور والتحول الذي يبدو أنه قد يخرج عن السيطرة في لحظة ما من المستقبل.

ظهر في الآونة الأخيرة تطبيق Chat GPT متزامناً مع بعض التطبيقات المشابهة، التي أصبحت قادرة على التفاعل الكامل في الحوار مع الإنسان بقدرات مرنة ومتفاعلة وحيوية، ومضاف إليها قدرات تقنية بحثية تعمل على سهولة وسرعة وعمق الوصول إلى مصادر المعلومات والمعرفة داخل شبكة الإنترنت. وأصبحت هذه التطبيقات قادرة على بناء نصوص أدبية ففي عام 2021 أُعلن عن نشر رواية «العالم منذ الآن فصاعداً» باللغة الإنجليزية التي أُلفت من قبل برنامج الذكاء الاصطناعي (بيرامبونج) الذي طُوّر من قِبل شركة (دابومدا) الكورية الجنوبية، حيث قام المؤلف وخبير علوم الحاسوب (كيم تيه يون) ببرمجة برنامج الذكاء الاصطناعي لتأليف الرواية من خلال عمليات التعلم العميق، بعد أن حدد موضوع الرواية وخلفيتها وشخصياتها ونماذج أخرى حول العالم. وفي حالة أخرى استخدم مبرمج أمريكي برامج الذكاء الاصطناعي ليكتب ويصمم قصة للأطفال تحمل اسم (Alice and Sparkle) نشرت في يناير 2023 على موقع أمازون لتتصدر قوائم كتب الأطفال على الموقع، ونوهت أمازون في معلوماتها عن القصة أنها أُنشئت باستخدام أدوات الذكاء الاصطناعي وحصلت القصة على تقييم (3.2 من 5) من المشترين. وفي محاولة لإعادة التراث الفني إلى الساحة نشر الملحن المصري عمرو مصطفى، مؤخراً، إعلاناً ترويجياً لأغنية بعنوان (أفتكرلك إيه) بمحاكاة لصوت أم كلثوم وقد لاقى الإعلان عن التجربة تبايناً حاداً بين مؤيد ومعارض، وبين متَّهم بأن ذلك سيؤدي إلى العبث بالتراث الإبداعي للثقافات وقد يُحدث انهياراً للقيمة التراثية للفنون بمختلف أنواعها.

أصبحت برامج الذكاء الاصطناعي قادرة على كتابة أبحاث علمية ومقالات ورسم لوحات فنية ودخل العالم في سباق على تطوير برامج الذكاء الاصطناعي التفاعلية والإبداعية. السؤال الذي مازال العالم غير ملتفت إليه بما يكفي وسط وهج هذا التطور هل يمكن أن تتغير البنية الثقافية للبشرية بصورة جذرية؟ وهل يمكن أن ينهار التراث الفني والإبداعي؟ وهل تتجه البشرية إلى إعادة لهيكلة قواعدها الإبداعية وقيمها الأخلاقية؟

تبدأ المعضلة الأخلاقية مع رؤية العالم لما بعد الذكاء الاصطناعي ومستقبل الإنسان المهني تجاه تغوّل تقنياته في مجالات العمل كافة، فمنذ زمن ليس بالبعيد خلقت ثورة الروبوتات وتقنياتها في المصانع معضلة فقد العمالة اليدوية لأعمالها وتسريح آلاف العمال وما نتج عن ذلك من تداعيات اجتماعية ولكن استطاعت البشرية احتواء تلك المعضلة. لكن الآن نحن نقف أمام مفترق

طرق أكثر وعورة وهو المستقبل المهني للبشرية بكل أنواعه اليدوية والمعرفية والإبداعية والابتكارية. فأصبحت كتابة عمل أدبي لا تتطلب موهبة، بل تتطلب مجموعة معلومات وتصور حول قصة ما فقط، ويتم تغذية البرنامج بها، وهو سيتولى عملية خلق السرد والرواية. بالإضافة إلى الفنون التشكيلية وحتى الأبحاث العلمية، ورويداً ستنهار فكرة الموهبة وتطويرها، ويدخل العقل الإنساني في حالة سُبات إبداعي قاتل، قد يصل بالبشرية إلى أن نتحول إلى مجرد كائنات غبية لا تجيد إلا البرمجة الإلكترونية وتفتقر إلى الحس الجمالي في الفنون والإبداع، وبهاء الاختلاف، وروعة التغير المستمر. وتدخل في نفق من التبلد الشعوري تجاه تقلبات النفس الإنسانية وتحويلها إلى فنون وإبداعات يكمن جمالها في توترها الإنساني.

ويبقى التساؤل هل يمكن أن تشعر في النصوص الإبداعية أو غيرها من الأعمال الإبداعية المنتجة بتقنية الذكاء الاصطناعي بتلك الروح الإنسانية التي تسكن النصوص أو الإبداعات الفنية المنتجة بالعقل البشري المتوتر والمضطرب والمهموم بالإبداع والجمال والفن والأخلاق؟

إن القدرات المتسارعة في النمو لتلك البرامج والتقنيات تجعلها مسيطرة على كل العالم، وملتجأ لكل إنسان مهما كانت ثقافته وقدراته الإبداعية. وتلك البرمجيات ستنتج عنها سيطرة ثقافات أصحاب رؤوس الأموال المنتجة لها فهم حتما سينحازون إلى ثقافتهم في تصميمها، وهذا سيؤدي إلى أن تكون كل الأعمال المنتجة عبر هذه التقنيات متكئة على خلفية ثقافية واحدة تقريباً، ما سيؤدي مع التراكم الزمني والتطور إلى إلغاء التعددية الثقافية وانزواء التراث لكل الثقافات الإنسانية وامتزاجها داخل عباءة ثقافة منتجي تلك التقنيات فتفقد البشرية واحدة من أهم قدراتها المميزة لها عن بقية عُمّار الكرة الأرضية وهي التباين والتنوع الثقافي والإبداع المشبع بتوتر النفس الإنسانية.

نحن أمام الكثير من المعضلات الأخلاقية والثقافية التي تتطلب منا التوقف والنظر في الاتجاه المعاكس قليلاً حتى لا تُكرر البشرية خطيئتها التي ارتكبتها مع بداية الثورة الصناعية وما تلاها فلم تنظر البشرية في الاتجاه المعاكس وتدرك أثر هذه الثورة الصناعية على البيئة والتغير المناخي فوصلنا إلى ما نحن فيه من مخاطر بيئية ومناخية مهدِّدة للوجود الإنساني. الآن نحن عند مفترق طرق مشابه كشف الغطاء عنه هذا التصاعد المستمر لسيطرة تطبيقات وبرامج الذكاء الاصطناعي المنتجة للنصوص (إبداعية أو علمية أو فكرية،... إلخ) نحتاج إلى الإبطاء قليلًا كما دعا بعض العلماء والمهتمين بقدرات الذكاء الاصطناعي بل وصنّاعه أيضاً.

عجلة التطور تدور ولا تتوقف وعلينا أن ندرك المستقبل بحس متكامل الزوايا وليس من زاوية التطور التكنولوجي والعلمي فقط، فهناك زوايا الوجود البشري والتماسك المجتمعي والحس الإنساني والجمال والأخلاق والإبداع.

ومازال المشهد المستقبلي ضبابياً إلى حد كبير ■

الكاتبة الإماراتية مريم جمعة فرج التي سكنت أسئلة المواجع ثم رحلت

أحمد حسين حميدان

قبل فترة ليست بالطويلة رحلت القاصة الإماراتية مريم جمعة فرج، ولا أريد في هذه المقاربة لها أن أتحدث عن دماثتها التي تبدت حين التقيتها غير مرة خلال عملها في جريدة «البيان» في دبي؛ سأترك ذلك. رغم أهميته. إلى مقاربة أخرى.. ورغم ما كتبته عن قصصها في كتابي (أنثى الكلام)[1] الذي صدر عن دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة، قررت التوقف عندها مجدداً في كتاباتي التي قررت أن أتناول عبرها الإصدارات الجديدة للقصة الإماراتية القصيرة، وذلك بعدما استرعى انتباهي الأسئلة الموجعة التي سكنت في أرق تلك القاصة - رحمها الله - وخصوصاً سؤالها وهي تتأمل الألوان: لماذا اللون الأسود بقي على مر العصور رمزاً للدونية؟!.

ولماذا بقي هذا اللون إلى أيامنا من دلالات الشؤم ومفردات الحزن والأسى؟!.. وقبل ذلك، حين ضاقت اليابسة على أسئلتها ولم تعثر في فضاء رمالها على جواب، نقلت جمر مواجعها إلى البحر وجعلت من الراوي في كلتا مجموعتها (فيروز) و(ماء)[2] وريثاً لها، وقام بالنيابة عنها وخاطب بطلها المحوري فيروز بلسان مبين: (التمعت عيناك بالفرح كشيئين يفتّشان عن شيء مفقود في الماء، وترجع: أين ياسمينة؟.. ياسمينة قال الشيخ نصفك المفقود في الماء جنية تقيم مع المردة هناك.. صوتها تردد أمامك فاستسلمت للأغنية واستسلمت للصوت وبكيت بكيت وعلى سطح الماء رأيت وجهاً كبيراً ظلّ يناديك..)[3].. هكذا، وعبر هذا الفحوى تؤكد مريم جمعة فرج - بما يومئ إليه راويها - أن كينونة اليابسة ناقصة من دون البحر، وهي في تجسيد ذلك تمضي إلى التشكيل وتأخذ عبر التخييل الواقع من صورته التسجيلية إلى صورته النصية التي تمثلها أشكال الخطاب الحديثة، لتتحول بها من سرد الحقائق إلى التشكيل الفني كما يذكر الدكتور نبيل راغب[4]، كاشفة من خلال ذلك سر ملازمة بطل قصتها (فيروز) للماء وسرّ حبّه للبحر، وهاجسه المائي الذي لا براء منه ولا فكاك بعدما تحوّل مكاناً حاضناً للحبيبة - الحلم الذي أحالته الكاتبة إلى استحالة التحقيق والإنجاز ضمن أجواء مثيولوجية، مستندة إلى الذاكرة الشعبية التي جاء منها فيروز، ووقع جرّاءها بين مستحيل حلمه البعيد المنال ومستحيل بُعده عن الماء الذي بات يمثّل بالنسبة إليه كل جهات حياته، فتنكسر ساعة عقله بمطرقة هذين المستحيلين وإذا كان كل ما يلمسه ميدياس يتحوّل إلى ذهب بما في ذلك الماء فيموت عطشاً كما تحكي الأسطورة، فإنّ بطل مريم جمعة فرج (فيروز) ينقلب كل شيء في حياته إلى ماء حتى هو تغيّر وانقلب إلى مجنون ماء، وحين سأله الذين يعيشون حوله عن معجزة الخروج من هذا الجنون يجيبهم: (إذا خرجت من الماء أقول لكم).. لكنه لا يخرج ويبقى حبيساً في الماء أسيراً لأمواجها إلى النهاية، وحتى يأتيه النداء مستنكراً موقفه وسائلاً له: (ماذا دهاك تجمّد رأسك حتى لم تعد قادراً على النطق فمن يستطلع لك نصفك، تربتك، امرأتك..) وهو ما وقع به بطل قصة (عبار)[5] في بحثه عن (نرجس) كبحث فيروز عن (ياسمينة) دون أن يهتدي أي منهما على ضالته، وبذلك تبلغ الكاتبة مرادها في الختام المفتوح على السؤال الذي يشغلها على الدوام كما يشغل أبطال قصصها، والذي على الغالب يأخذ بسياقها السردي إلى النهاية المفتوحة أو النهاية غير الصريحة كما تسميها جوليا كريستيفا. وما يحسب لصالح هذه النهايات غير المغلقة في قصص الكاتبة الراحلة مريم جمعة فرج، هو عدم اقتصار بُعدها الدلالي على الفضاء المحلي؛ ففي كلتا مجموعتها اللتين صدرتا في منتصف الثمانينيات وبدايات التسعينيات من القرن الماضي لم يفتها أن تدوّن في العديد من قصصهما المآسي العربية التي وقعت خلال تلك الفترة الزمنية، ولم يقوَ البُعد الجغرافي على حجب وجدانها عن الآثار المفجعة التي نجمت آنئذٍ عن الخلافات والنزاعات الداخلية العربية - العربية، وكان من مؤداها نشوب المعارك بين الأفرقاء من أبناء الوطن الواحد، فجرى الاقتتال اليمني اليمني، واللبناني اللبناني.. وقامت مريم جمعة فرج في قصتها (أعداء في بيت واحد) برصد نتائجه المدمرة مصورة إياها قد أصابت الجميع ولم توفر أحداً أياً كان موقعه. واعتمدت

في تجسيد ذلك الأسلوب الرمزي، واتخذت من النخلة فضاءً رحباً لهذا الرمز بعدما أخذتها من جذورها المحلية ودفعت بها إلى بُعدها القومي جاعلة إياها بوصلة ومقياساً تمضي على هديها راوية الحدث وهي تقول: (وضعت جدّتي يدها في صفيحة التمر.. قالت لي: راقبي النخلة، عندما يذبل النخيل تبدأ الحرب.. مشكلة أن نكون أعداء في بيت واحد.. نصبنا صواريخنا على الحدود، نصبوا صواريخهم، منعنا سياراتهم من اجتياز حدودنا، منعوا سياراتنا من اجتياز حدودهم.. وضعنا أيدينا على أفواهنا، صرخنا: ماء.. ردّدوا كالصدى: ماء، ماء.. تعبنا.. تعبوا..)[6].

بهذا المشهد تخرج القاصة مريم جمعة فرج من رصد حالة الضياع والتشتت بصورتها الفردية، إلى رصد حالة المأساة بصورتها الجمعية التي تتعدى نتائجها وآثارها مكان وقوع الحدث، لذلك أخذت في سياق السرد عندها سمتها العربية وبقيت حاضرة بما نجم عنها في بنيته التعبيرية، رغم أنها من الناحية الزمنية تنتمي إلى مرحلة تاريخية آفلة دون أن تأفل معها رغبة الانعتاق من تبعات مخلفاتها المأساوية التي أشرنا إليها، والتي احتفظت بها مريم جمعة فرج وجهرت بها بطل قصتها (وجوه) قائلاً: (أشرب نخب ضياعنا.. أهرب إلى البحر.. لا أشعر برغبة في العبور إلى الجانب الآخر.. وجه أبي مات.. وجه أمّي لا أعرف عنه شيئاً.. وجوه إخوتي، ضاعت، اقتسموها..)[7]. هكذا يبقي الفقد ماثلاً في منتهى سيرة مريم جمعة فرج القصصية كما يبقى ماثلاً في المبتدى ليحيل إلى السؤال والبحث الذي سكنته مع مختلف شخصياتها. وقبل أن يحين موعد تلبية دعوة قطار الرحيل أبقت لرحلة البناء الإماراتية والعربية شجرتين صحراويتين صامدتين لا تستسلمان للجفاف، فتركت شجرة الغاف لوطنها الصغير الإمارات، وشجرة النخيل لوطنها العربي الكبير، وتركت الكثير من أسئلة المواجع تسكن أعمالها القصصية والعديد من مقالاتها، ومن ثم غادرتنا وتركت دنيانا راحلة إلى بارئها وتركت كذلك أبطال قصصها يواصلون من بعدها رحلة البحث في البر والبحر عن الغائبين من أحبائها وأحبائهم، ويواصلون دأبهم للعثور على إجابات للأسئلة الموجعة التي سكنت دواخلهم مثلما سكنت دواخلها بلا انتهاء!.. ■

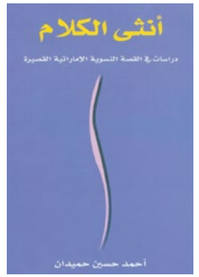

* كاتب وأديب سوري

الهوامش:

1. «أنثى الكلام»، دراسات في القصة النسوية الإماراتية القصيرة، أحمد حسين حميدان دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة 2004م.
2. مجموعة قصص «فيروز» لمريم جمعة فرج، إصدار اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات عام 1988م.
3. المرجع السابق، قصة «فيروز»، ص ص 9 - 11.
4. دليل الناقد الأدبي، د. نبيل راغب، مكتبة غريب، القاهرة 1981.
5. مجموعة قصص «فيروز» لمريم جمعة فرج، قصة «فيروز»، ص 15.
6. مجموعة قصص «ماء» لمريم جمعة فرج، إصدار دار الجديد، بيروت ط1، 1994م.
قصة «ماء» ص 21، وقصة «أعداء في بيت واحد»، ص 11.
7. مجموعة قصص «فيروز» لمريم جمعة فرج، قصة «وجوه»، ص 83.

قراءة في كتاب «منّي بونعامة»

«المؤرخون الشناقطة وكتابة التاريخ».. هوية وانتماء وتعريف

خالد عمر بن ققه

يأتي ذكر موريتانيا - الأرض والسكان - مُحمَّلاً دائماً بنوع من المساءلة التاريخية لأهلها، وللعرب أيضاً، لجهة الكشف عن جذور الظهور، والعطاء الثقافي، والتراكم المعرفي، والجمع التراثي، كما يطرح إشكاليَّة تعميق البحث على مستوى «المفاهيم» بهدف إدراك التسجيل التاريخي للأحداث والوقائع، وللفعل البشري بما تحمله حركة الإقامة والظعن، أو في صيرورة الحل والترحال، حيث التاريخ الشفاهي الناتج عن بداوة مكرسة للوجود من جهة، وحاملة للقيم من جهة ثانية، على النحو الذي ذكره «الأمير عبد القادر الجزائري» في قصيدته» يا عاذراً لامرئ قد هام في الحضر»[1].

من ناحية أخرى، فإن الحديث عن موريتانيا في وقتنا الحاضر من منطلق الدور الذي تقوم به نُخبُها على مستوى الإسهام الثقافي والحضاري يقودنا بالضرورة إلى استحضار التاريخ بهدف الفهم والتركيز، ولن يتأتَّى لنا ذلك إلا بقراءة المنتج الكتابي للموريتانيين حول تاريخهم وعلمائهم وبلادهم، وفي ذلك تكمن أهميَّة قراءة كتاب «المؤرخون الشناقطة وكتابة التاريخ.. دراسة في قضايا الوعي والمنهج»، للمؤرخ والباحث الدكتور» منّي بونعامة».

من البداية يُحيلنا مني بونعامة إلى اختيار مقصود وهادف، يتناغم مع عنوان كتابه، وحين نتجاوب معه، ونتفاعل مع دراسته، تتلبَّسُنا حالة من الجاذبية نحو أرض شنقيط، ويُظهر لنا أهلها في تاريخهم الشفاهي جزءاً من ذاكرة محيطهم، بل والعالم كله، حيث المحافظة - بغض النظر عن طرق النقل هنا - عن التراث الإنساني، حتى لو كان خارج بيئتهم المحلية ومحيطهم الجغرافي.

هنا تتبدّى لنا شنقيط عامرةً وزاخرةً بموروثها الشفاهي، وفي التجسيد نراها بالبصيرة مقبلةً من مكان بعيد، وعائدة ومعها أرواح عهود غابرة بينها وبين أهلها المعاصرين أمد بعيد، حتى إذا ما حان وقت الكتابة، وجدوا ما يَرْوون ويُسجلون سواء بمشاركة تراكمية للتاريخ الإسلامي والعربي والأفريقي والمغاربي في البدايات، أو في مرحلة لاحقة لجهة الحديث عن التاريخ الخاص.

من ناحية أخرى، فإن بونعامة يقربنا من صوت المكان في رحلة الزمن، ويبدو - من أول سطر في الكتاب - منتصراً لشنقيط، ليس كونها اسماً له دلالة تعمّق بالوجود والفعل عبر الزمن فقط، وإنما لأنه يجمع بين صفات السكان وطبيعة المكان أيضاً، أي في طرح مماثل أو هو أقرب إلى تعريف الحضارة لدى المفكر «مالك بن نبي»[2]، وفي ذلك تجلٍ مبكر للهدف من الدراسة.

«كوبلاني».. وموريتانيا

ومثل كثير من المثقفين الموريتانيين يميل بونعامة ميلاً عظيماً لاسم شنقيط، أي التأكيد على الاسم من بعد ظهورها محليّاً مغاربيّاً، ثم الاعتماد والتحيز له مشرقيّاً، فيُبْعدنا بذلك عن الجدل التاريخي لجهة القول: إن «مور»[3] اسم أطلقه الأوروبيون على سكان المغرب العربي والأندلس والأمازيغ، وأن «مورو» اسم أطلقه الفينيقيون على قبائل بدوية أمازيغية تقطن في الصحراء. وتبعاً لذلك فإن اسم «موريتانيا»[4] يرجع إلى العصر القرطاجي والروماني[5]، وقد أطلق هذا الاسم على منطقة شمال أفريقيا كلها، وعندما برز المشروع الاستعماري الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر بُعث هذا الاسم من جديد حيث اختاره قائد الحملة الفرنسية «كزافييه كابولاني»[6] Coppolani Xavier على شنقيط، وبذلك أعاد إحياء اسم موريتانيا. في هذا الكتاب يعمل بونعامة على توضيح مسألة أساسية، هي: علاقة المؤلفين

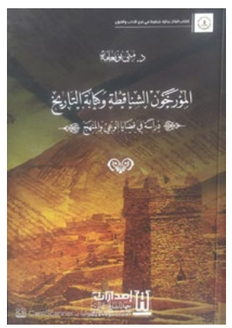

الشناقطة - المؤرخون تحديداً- بكتابة التاريخ، من خلال الفكر وقضايا الوعي والمنهج، وهو بذلك يتناول صناعة الفكر الشنقيطي في شقه الإبداعي في سياق زمن محدد، يُظهر لنا الفعل الثقافي في موريتانيا المعاصرة.

في هذا السياق، يقدم لنا - بناء على دراسة جادة وواعية وموثقة - حكماً شبه قطعي يخص الرعيل الأول من المؤلفين الشناقطة لجهة كتابتهم للتاريخ من حيث الاعتراف بوجودهم، لكن دون نيلها الحظ الأوفر من الاهتمام، وقد أرجع ذلك «لأسباب منها ما هو منهجي أو موضوعي، ومنها أسباب أخرى تتعلق بالواقع، الذي نشأ المؤرخ الموريتاني في كنفه من أهوال ومخاوف، في بيئة كانت مرتعاً خصباً للصراعات والحروب..»[7].

لاشك أن الحالة التي نشأ فيها المؤرخ الموريتاني تأتي - رغم خصوصيتها - في سياق حالة مغاربيَّة، لم تول اهتماماً للمسألة الثقافة والمعرفية ومنها التاريخ في سياقها المحلي والجواري، بقدر اهتمامها بالبُعدين العربي والإسلامي، وهي في الجارة الجزائر أكثر وضوحاً، حيث نجد على سبيل المثال: «حركة عبد الحميد بن باديس، التي ركزت على الجانب الثقافي من النهضة الوطنية، لم تعتنِ في مدارسها بتاريخ الجزائر الثقافي بقدر ما اعتنت بتاريخ العرب والإسلام عموماً..»[8]، وذاك ما ظهر في كتابات المؤرخين الشناقطة على النحو الذي ذكره بونعامة في كتابه هذا أيضاً.

فترة القرنين.. والتعرّب الرّسمي

يرى بونعامة أن فكرة التاريخ ظلت غائبة حيناً من الدهر نظراً لانعدام الدوافع والجرأة الكافية لكتابة التارخ، إلى أن أذنت الخطوب التوالي بتغير النظرة وتبلور الفكرة، عندها انكب القوم على التأليف، وعليه قسّم كتابه إلى فصلين، استعرض الأول

نشأة الكتابات التاريخية وسياقها، وأبرز نصوصها وموضوعاتها وخصائصها، وتناول الفصل الثاني المؤرخين ونصوصهم مع تقديم تعريف شامل يفيد في فهم مسيرة كل واحد منهم ونتاجه، ومدى علاقته بممكنات عصره. حمل الفصل الأول عنوان: «المدونة التاريخية الشنقيطية وسياق إنتاجها.. فترة القرنين 12 - 14هـ / 18 - 20م)، وفيه ركّز الكاتب على الأوضاع الثقافية والفكرية في بلاد شنقيط، ورآها في سياقها الزمنى ملتقى قرنين، حيث تجلّى «التّعرّب الرسمي»، و«اعتماد الذاكرة». وتندرج القضايا بعد ذلك في تتابع معرفي ومنهجي، ومصحوبة بإشكاليات انتهت إلى إجابات مثلت أرحاماً لتكوين الوعي عبر تساؤلات، حتى إذا خرجت إلى فضاء الوجود المعرفي أرتْنا ما كنَّا نبْغي من فعل ثقافي للمؤرخين الشناقطة، وقد تضمَّنتْها عناوين معبرة وكاشفة، منها: الرواية الشفاهية وإشكالية التدوين، وظهور التأليف والمحلي، والمجالات الفكرية.

كما تناول الفصل الأول أيضاً نشأة الكتابة التاريخية وتطورها، ومن خلالها كشف المؤلف عن عوائق الكتابة التاريخية، وتبلور الفكرة التاريخية، وبواكير الإنتاج التاريخي وتطوره، وأنواع الكتابة التاريخية، وخصائصها.

وحمل القسم الثالث من الفصل الأول عنوان: «الكتابة التاريخية في بلاد شنقيط خلال القرن العشرين»، وقد تناول فيه جملة من القضايا حملت العناوين الآتية: الملامح العامة، وظهور نصوص جديدة، واهتمام الفرنسيين بتاريخ البلاد، وجهود الدولة الموريتانية.

وفي الفصل الثاني، الذي حمل عنوان «المؤرخون ونصوصهم» أورد الكاتب عدداً من المؤرخين، وأعطاهم أوصافاً، وأسبق نصوصهم بسير ذاتيَّة كاشفة ودالَّة عنهم، مراعياً في ذلك زمانهم، ومكانتهم، وأهمية ما كتبوه، منهم: «محمد اليدالي (مؤرخ السير

والمناقب)، والطالب محمد البرتلي (المؤرخ التراجمي)، وجدو بن الطالب الصغير البرتلي (المؤرخ المحقق)، وسيدي محمد الخليفة الكنتي (مؤرخ المناقب)، والطالب أحمد بن اطوير الجنة (المؤرخ الملتزم)، وصالح بن عبد الوهاب (مؤرخ الأنساب)، والمختار بن حامد (المؤرخ الموسوعي)».

«فتح الشكور».. و«حياة موريتانيا»

لقد انتهى بونعامة في كتابه إلى نتيجة مهمة تعني المؤرخين والباحثين «تتعلق بنشأة الكتابة التاريخية في موريتانيا الأمس، لجهة ارتباطها بمسألة الهوية والانتماء والتعريف بالذات سواء كان ذلك ردّاً على قلق داخلي أو صدّاً لتوهم وتشويه خارجي»[9]، وقد تجلّى فيها الدفاع عن الانتماء العربي.

بجانب ذلك هناك جملة من الاستنتاجات والخلاصات توصل إليها الكاتب من خلال دراسته، نذكرها هنا مختصرة على النحو الآتي:

أولاً - ارتباط الكتابة التاريخية في موريتانيا الأمس ارتباطاً وثيقاً بمفهوم الخبر عند المؤرخين المسلمين القدماء.

ثانياً - مرور الكتابة التاريخية في موريتانيا خلال القرنين (12 - 14هـ / 18 - 20م) بثلاث مراحل، اتّسمت كل منها بميزات فارقة، حيث كانت الأولى محتشمة وخجولة، وقد تميزت الكتابة التاريخية بندرة الإنتاج وشحّ المعلومات، ومع ذلك فقد عرفت ظهور أول معجم تراجمي موسوعي (فتح الشكور)، وتغطي هذه المرحلة من الناحية الزمنية القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وتعدُّ المرحلة الثانية أزهى مراحل الكتابة التاريخية، لأنها تميزت بغزارة الإنتاج التاريخي، ووضوح المادة المدونة، وهي المرحلة التي دُبّجت فيها أبرز النصوص التاريخية الشنقيطية (كتب الحوليات، والأنساب، والتراجم... إلخ)، كما ظهر فيها جيل من المؤرخين الموسوعيّين، وتغطي من الناحية التاريخية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

واتّسمت المرحلة الثالثة بتنوع المادة التاريخية وشموليتها، بحيث لم تعد محصورة في المواضيع التقليدية، وتمثل هذه المرحلة أوج التدوين التاريخي من حيث استيعاب المضمون العام، وعمق الوعي التاريخي، ولكنها أقل انتاجاً بكثير مقارنة بالمرحلة السابقة (الثانية)، كما تراجعت خلالها إلى حدّ كبير الكتابات الأنسابية والتراجمية، وتمثل موسوعة «حياة موريتانيا» أهم عمل تاريخي فيها، وتغطي هذه المرحلة القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي.

ثالثاً - تركيز الكتابة التاريخية الموريتانية في البداية على النمط الحولي والمناقبي والأنسابي والتراجمي، في ظل بعض المواضيع الأخرى خلوّاً من التدوين، كالتاريخ السياسي مثلاً.

رابعاً - ظهور أهمية النصوص المدونة، رغم ما اعترى بعضها من هفوات وهنات، وقيمتها في التأسيس لكتابة التاريخ بعد التنقيح والتمحيص والمقارنة.

خامساً - إسهام نمط الكتابة التاريخية في تمايز «مدارس لكتابة التاريخ»، من ذلك اعتماد مؤرخو المناطق الشرقية والوسط من البلاد التدوين الحولي من خلال سرد الأحداث والوقائع، بينما سلك مؤرخو الجنوب والجنوب الغربي طريقة النظم بحساب الجمل لتدوين الأحداث وضبط الوقائع.

سادساً - اعتبار الموسوعة التاريخية «حياة موريتانيا» أول عمل تاريخي ينشد الشمول والاستقصاء/ رغم ما اعتورها من نقص وتشويه وتحريف وتزييف في بعض أجزائها، لكنها تبقى مع ذلك العمل التاريخي الموسوعي الوحيد، الذي فاق كل النماذج السابقة له.

العرب.. والزّاد الموريتاني

الاستنتاجات السابقة تنير لنا دروب المعرفة الخاصَّة بالكاتبة لدى المؤرخين الشناقطة، وتسلك بنا سبل تكريس وعي عربي قد يمدُّ أهله جسوراً من المركز إلى الأطراف، حيث المواجهة الدائمة والصراع لأجل تثبيت الانتماء، وهو ما كشف عنه الدكتور مني بونعامة تأسيساً وتعريفاً وتحليلاً من خلال هذه الدراسة، فأجْلسَنا عن قرب من المؤرخين الموريتانيين، وأسكننا فضاءهم المعرفي. وخُلاصة القول: لقد حقّق الدكتور مني بونعامة ما أشار إليه في مقدمة كتابة حين قال: «سعيْنا في هذا العمل إلى تعريف القارئ العربي بسِيَر أولئك المؤرخين الأعلام، والذي يكاد

يجهل أين تقع بلاد شنقيط (موريتانيا حالياً)، من باب أحرى أن يطلع على ثقافتها وأعلامها، باستثناء بعض النخب المثقفة، وقليل مهم»[10]. لذلك كلّه، حقَّ له أن يحصل كتابه على جائزة، «جائزة شنقيط في مجال الدراسة الإسلامية والآداب»[11] - فرع الآداب والفنون - لعام 2021م، وقبلها وبعدها نيل ثقة الباحثين والقراء، وهو أهل لذلك لأنه جعل من تاريخ موريتانيا زاداً معرفيّاً لنا جميعاً، ودفعنا - عن بُعد وفي الغياب - لنصبح جُلساء مع مؤرّخيها وكتاباتهم ■

* كاتب وصحفي. الجزائر

الهوامش:

1 - يقول الأمير عبد القادر الجزائري في قصيدته: «يا عاذراً لامرئ قد هام في الحضر»:

مـــا في البـــداوة من عـــيب تـــذمّ بـــه
إلّا المـــــــروءة والإحســـــان بالبـــــدرِ
وصحّـــــة الجســـم فيهـــا غـــير خافيـــةٍ
والعـــيب والداء مقصـــــورٌ علـــى الحضَـــر
من لم يمـت عندنـا بالطعـــن عـــاش مـــدى
فنحـــن أطـــــول خلـــق اللّه فـــي العمـــر

للاطلاع على القصيدة كاملة، يمكن العودة إلى موقع «الديوان».. الرابط:
https://www.aldiwan.net/poem47689.html

2 - الحضارة عند مالك بن نبي هي ناتج تركيب لعناصر ثلاثة «إنسان + تراب + وقت».

3 - تتحدث بعض المراجع التاريخية على أن «مور» كلمة موريتانية، وأن معنى كلمة موريتانيا هو: أرض الرجال السمر.

4 - كانت موريتانيا من قبل معروفة عند الرحالة العرب أهل المشرق بأسماء منها: بلاد شنقيط، وكذلك صحراء الملثمين، وبلاد لمتونة، ومن أقدم التسميات التي وردت لدى الجغرافيين العرب «بلاد أنبية»، أما عامة سكان البلاد فكانوا يسمونها «أرض البيضان» في مقابل أرض السودان الواقعة جنوبها.

5 - كانت هناك دولتان قديمتان في شمال أفريقيا تحملان هذا الاسم، هما: موريتانيا القيصرية، وموريتانيا الطنجية.

6 - كزافييه كبلاني (1866 - 1905م) فرنسي من مواليد كورسيكا، انتقل إلى الجزائر عام 1889م، وفي عام 1895م صار ملحقاً في الحكومة العامة بالجزائر (الجهاز السياسي والعسكري الفرنسي الحاكم بالجزائر في فترة الاستعمار)، تم تكليفه في عامي 1899-1898م بمهمة في مالي، وقد تعرف في مهمته الاستطلاعية على قادة بعض القبائل الموريتانية الشرقية، واستطاع بفضل احتكاكه المباشر مع البيضان خلال هاتين السنتين وبفضل معرفته السابقة للمجتمعات الإسلامية أن يطور معرفته بالمجتمع الموريتاني وأن يتفهم عقليته أكثر، وقدم تقريراً مفصلاً ودقيقاً عن مجتمع البيضان وعن الطرق الملائمة لدخول فرنسا إلى البلاد الشنقيطية، رُفّع إلى وزير المستعمرات الفرنسية الذي أعجب يومئذ بتقرير الشاب الكورسيكي؛ وقدمه في ديسمبر 1899م باسم «مشروع موريتانيا الغربية»، وعلى خلفية تقريره تمكّنت فرنسا من استعمار موريتانيا، واغتيل كبلاني عام 1905م على يد سيدي ولد مولاي الزين وبعض معاونيه.

7 .مني بونعامة، المؤرخون الشناقطة.. دراسة في قضايا الوعي والمنهج، (معهد الشارقة للتراث، الشارقة، 2022م)، ص 15 - 16.

8 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول (1500 - 1830)، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م)، ص 13.

9 - مني بونعامة، المؤرخون الشناقطة.. دراسة في قضايا الوعي والمنهج، مرجع سابق، ص 246، بتصرف.

10 - المرجع السابق نفسه، ص 22.

11 - «جائزة شنقيط».. جائزة سنوية تمنحها الحكومة الموريتانية للمتميزين في ثلاثة مجالات، هي: الدراسات الإسلامية، والعلوم والتقنيات، والآداب والفنون، وتُعتبر أرفع جائزة موريتانية على الإطلاق، وقد وُزّعت للمرة الأولى عام 2001م، وقد حصل عليها الدكتور بونعامة في دورة عام 2021م.

التراث الغنائي في بوليوود

الأغنية المدخل الأساسي لولوج قلوب الجماهير في سينمات بوليوود

نوزاد جعدان

تُشكّل الأغنية في السينما الهندية كياناً أساسياً من بنية الفيلم، وطَبقاً لا يفارق مائدتها المتنوعة، والمفعمة بالتوابل، وسياقاً جمالياً، ووظيفياً، وترفيهياً هاماً، كما تُعتبر نمطاً ثابتا يستخدم في معظمها، إذ أنها تعتبر بالمعنى المجازي؛ متعة الفقراء، وخبز حياتهم اليومي، ولعلّ الدارج في السينما الهندية إذا نجحت أغاني الفيلم؛ فمن المؤكد سيحطّم شبّاك التذاكر. هذه الموسيقى النابضة بالحياة، والأصوات المرنة، سيّما الصوت النسائي على مستوى المساحة الصوتية التي تمتاز بها أصوات السينما الهندية من أدنى القرار إلى أقصى الجواب، وسلامة الانتقال، والتلوين، والتحكم بالطبقات، شكّلت لنا، على الرغم من عدم فهمنا للغتها، تعبيراً أصيلاً عن مزاجنا، وحالاتنا الشعورية، ندندنها حين نعشق، أو ننتصر، ولا غروّ إن قلنا في حالات الحزن، واليأس أيضاً.

هؤلاء الجنود المجهولين من موسيقيين، ومطربين، يقفون بقوة وراء نجاح السينمات الهندية، فلا يمكن تصوّر الممثل راج كابور دون الصوت الوقور، والهادئ للمطرب موكيش بمكانة القرار، أو النجم ديليب كومار غير مقرونٍ بصوت محمد رافع العريق الضارب في جذور الراجا، ولا حتى الممثلة نرجس مرتبطة بصوت لاتا مانغيشكار بحنجرتها السوبرانية، أو الحسناء زينات أمان بصوت أشا بهسول الذي يخفي وراءه مزيجاً يجمع النبرة الطفوليّة في المرح، والأنوثة بالقفز عالياً عبر طبقات صوتها، على النقيض من الصوت الرجولي الوقور، والهادئ؛ فصوتها تلوين مدهش بين مرح، وشقاوة الطفولة، ورقة الأنوثة.

وتكمن الوصفة السحرية في اقتران صوت المطرب بالممثل بطريقة يصعب تميزها، ويكون ذلك عبر تدريبات صارمة، ورحلة بحث، وتقصٍ طويلة يتحرى المخرج من خلالها المطرب المناسب بالتعاون مع مؤلف الموسيقى ليتآلف مع الدبلاج الغنائي، ثم يقوم المغني بمزامنة الشفاه والتسجيل المسبق لعملية الدبلاج

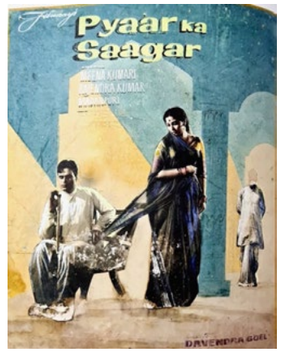

الغنائي عبر فترة من الزمن حيث يقوم بمراقبة حركة شفاه الممثل، ويصدر طبقة صوتية تناسب حركة شفاهه، وحتى بنيته الجسمانية، وهذا الأمر كان نهجاً متبعاً في الخمسينيّات، والستينيّات، ومارسه عدد من المخرجين الناجحين لاحقاً منهم راج كابور، مانموهان ديساي، ماهيش بهات، راج كانوار، وغيرهم؛ لتحقق أغاني أفلامهم نجاحاً باهراً.

مرحلة التأسيس :

وبالرجوع إلى تاريخ الأغنية في بوليوود، نجدها بدأت مع بزوغ فجر السينما الناطقة بالهند ومع أول فيلم هندي ناطق تحت عنوان «زينة الدنيا أو عالم أرا» عام 1931، من إخراج أردشير إيراني واحتوى الفيلم على سبع أغانٍ من ألحان الموسيقارين فيروز شاه مستري و بي إيراني وبصوت وزير محمد شاه -الذي يعتبر أول مغنٍ على الشاشة الفضية في بوليوود - والممثلة المغنية زبيدة، وانصرفتْ الأغاني فيه إلى المتعة الصرفة و الاستناد على التراث الديني، موسيقى حيّة وممثلون يغنون بشكل مباشر دون مونتاج، وكانت الفرقة الموسيقية كثيراً ما تقف خارج الكادر أو تختبئ أحيانا بين أكمة الأشجار كي لا تظهر في الشاشة.

في عام 1932، أطلقت بوليوود فيلمها «Indrasabha» وهو فيلم غنائي أوبرالي من تأليف الكاتب المسرحي آغا حسن أمانت وإخراج جمشيد فرام مادان، ووضع موسيقى الفيلم الذي احتوى على سبعين أغنية الثنائي الموسيقي جادان باي - والدة الممثلة نرجس وأول مؤلفة موسيقى في تاريخ بوليوود - سارسواتي ديفي، وحطّم الفيلم رقما قياسيا بعدد الأغاني التي ضمّها.

مع منتصف الثلاثينيات وبالتزامن مع إطلاق شركة بومباي توكيز أضحت الأغاني تُسجل في الأستوديوهات المخصصة لذلك، وكانت أغلب الآلات المستخدمة في صنع الموسيقى فيها البيانو والكمان والجيتار، وبرزت موجة من أهم تلك الأسماء في تلك الفترة كل من المطربين عندليب الهند كاندال لال سيجال والمطربتين نور جهان وديفيكا راني جنباً إلى جنب مع الموسيقارين بانكاج مولكيك وماستر غلام حيدر و الذي مزج بين الأسلوب الفلكلوري الهندي بالبنجابي والماراثي.

كما جرى التعاقد مع المغني والممثل كاندال لال سيغال الذي كان يكسب ثمانين روبية في الشهر كممثل غنائي بمجموع مئتي روبية في الشهر من قبل مؤلف «المسارح الجديدة» ريتشاند بورال. ثبت أن هذا هو القرار الأكثر ربحية لشركة الفيلم. أحدثت أغاني سايغال ثورة في الذوق الموسيقي في جميع أنحاء البلاد وألهمت الكثير من المستقبلين، وغلب على تلك الفترة طابع الأغاني المنفردة للبطل أو البطلة مع عدد أقل للدويتو الغنائي، كما انتشرت ظاهرة الممثل المغني تماما مع حال كاندال لال سيجال وأشوك كومار وسوريندرا أو الممثلة المطربة كثريا ونور جهان. يُمكن أن نقول أن أبرز الأسماء التي ظهرت في حقبتي الثلاثينيات والأربعينات، كل من مؤلفي الموسيقى رام غانغولي ووجيان دت وريتشاند بورال، وباندیت إندرا تشاندرا، و

سارسواتي ديفي ، و ساتشين ديف بورمان، والموسيقار البنغالي كمال داس غوبتا، وامتازت تلك الفترة بطغيان الطابع والفلكلور الموسيقي البنغالي والنجابي على الموسيقى الهندية، إلى جانبهم وقف كل من الشعراء الغنائيين بهزاد لوكانافي، باندیت ناريندرا شارما و سارسواتي كومار ديباك، وبيتا بورام نقش وارا رام، و دينا ناث مادهوك، وإف دي تاسيير، و تانفير نقفي ، وشيروان رزفي، ووالي سحاب، و قتيل شفاي، وخيمتشاند بركاش، و جي اس كيشاب، و آرزو لوكنوي، و براديب، و جي إس نيبالي.

في عام 1947 أثناء انفصال باكستان عن الهند، ومع رحيل الطرب كاندال لال سيجال المبكر، ومغادرة نور جهان إلى باكستان ورحيل ماستر المبكر تغير المنتج الموسيقي المقدم، وتوقف غلام حيدر عن الإنتاج الموسيقي ، ولكن فسح المجال لإطلاق شهرة المطربتين لاتا و ثريا والشاعر ساحر لدهيانوي والمطرب محمد رافي والموسيقار أومكاربرساد ناريار وأسد بهاوبالي القادمان من لاهور .

المرحلة الذهبية:

في الثلاثينيات سادت ظاهرة استقطاب المطربين إلى السينما، فما إن يلمع اسم مطرب حتى تجد السينما قد تلقفته في محاولة للاستفادة من شهرته في الغناء، وقد جاءت أماكن التصوير وجماليات التكوين، وتوظيف الاضاءة تعبيراً لتضفي زخماً اضافياً للأغاني المقدمة، ولتواصل الاغاني تعبيرها الدرامي في الفيلم لكن بالمقابل ظهرت أغاني بعض الأفلام عبارة عن اسكتشات غير مقنعة قائمة على التهريج والمقدمة على طريقة الفيديو كليب.

مع فيلم أنمول غادي عام 1946 وموسيقى نوشاد جرى إحداث ثورة في تاريخ بوليوود، في تلك الحقبة برزت عدة أسماء لامعة على صعيد الموسيقى الموظفة في الأفلام، لكن الثورة الحقيقية على الموسيقى التقليدية، جاءت مع الموسيقى النشطة لشانكر جيكيشان وكلمات الشاعرين شيلندرا وحسرت جابوري أيقونات نشطة بقيت راسخة في ذهن الجماهير لحقب طويلة.

كانت تلك الفترة انتقالية في كل شيء، ليس في الموسيقى فقط، ولا في المجال الفني فقط، بل كانت إعادة تشكيل للوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للجمهورية، بعد الوضع الاقتصادي، بالعكس، كانت انتفاضة الخبز مقابلة لسياسة الانفتاح.

على مدار ثلاثة عقود حققت هذه الأسماء انقلابا جذريا في السينما الهندية عبر الأغنية التي تبقى خالدة كثلاثي المغنين

محمد رافي وموكيش وكيشور كومار مع المغنيتين لاتا مانغيشكار وأشا بهسول والموسيقاريين : الثنائيان الموسيقاريين شانكار جيكيشان ولاكشيمكانت بياريلا ورافي ومادان موهان و إس دي بورمان و ونوشاد وروشان و سليل تشودري وأنيل بيسواس إلى جانب الشعراء شاكيل باديانوي وحسرت جيبوري وشيلندرا وماجروح سلطانبوري وأناند باكشي وغولزار وقمر جلال الدين آبادي.

إلى جانب تلك الأسماء برزت أسماء لكن بشكل أقل مما سبق من أبرز شعراء تلك العقود مخدوم محي الدين وعزيز كشميري وكافي براديب و راجنيدرا كريشان وبريم دهاوان وبهارت فياس ونيراج وفيرما مالك، بصبحة كل من مؤلفي الموسيقى إقبال قريشي وحسن بهجت رام وإقبال قريشي وغلام محمد وداترام وادكر وخيام وسانتوش أناند وغولشان كومار مهتا وفيتالبهاي باتيل وحشمت وبريتي ساغر وباندیت ناريندرا شارما وبهارت فياس وغولشان باروارا و أوم كار برساد نايار و بريم دهوان ورام تشاندرا وغلام محمد وجيديف والثنائي الموسسيقي كليناجي أنانجي ومع أصوات كل من المطربين سي أتش أتما وهيمانت كومار والممثل المغني طلعت محمود و ماما دي و هيمانت كومار والممثل المغني

أرون كومار- والد الممثل غوفيندا - وتبعهم لاحقا ماهيندرا كابور وجاغيت سينغ و بهوبيندر ومنير حسين وسوبير سين وغلام علي ويسوديس وجاينتا هازاركا والمطربات شاردا وغيتا دت وبورنيما.ومينو بورشيتام وسومان كالينبور وبريتا ساغار وأوشا مانجيشكاروهيمالتا و شوبها غورتو وأوشا أوثوب وشامشاد بيجام.

عقد الثمانينات :

من أفلامٍ هادئة، ومستوحاة مع ألحانٍ رقيقة، إلى أفلام الحركة على خلفية موسيقى راقصة قريبة من الديسكو الغربية .. وأضيفت الطبول التقليدية (الطبلة، السيتار، والطنبورة..) إلى الفرق الأوركسترالية السيمفونية مع آلات الكمان المُرتخية الفاترة، القيثارات الكهربائية، والبانغو (آلةٌ موسيقيةٌ وترية تشبه القيثارة)، أو الأكورديون، ساد في تلك الحقبة من التاريخ موسيقى الديسكو بالإضافة إلى تأثر بوليوود بسينما الجنوب لاسيما سينما كيرالا عبر المبالغة في الأداء والرقصات والألوان الفاقعة والأحان المستوحاة من الموسيقى الغربية ولعلها كانت أسوأ مرحلة بعد الفترة الذهبية وخاصة بعد رحيل المغنيين كيشور كومار وموكيش ومحمد رافع، ولعل نجما تلك المرحلة كانا مؤلفو الموسيقى بابي لا هيري وأنو ملك إلى جانب راجيش روشان ورافيندرا جين وأوتام سينغ ورافيندرا جين وتشاند باورديسي وراج كمال مع الفرق الثنائية الموسيقية أمثال شيف هاري ورام لاكشمان مع كل من الشعراء آنجان وإنديفار وإس أتش بهاري و عزيز قيسي و أسد بهاوبالي جان نصار أختار وأمير قزلباشي وبركاش ميهرا وكمال حسن وجافيد أختر

أما على صعيد المطربين فقد كان الاكتشاف الأبرز للمطربين محمد عزيز وشابير كومار اللذان سيطرا على معظم الأغاني في تلك الحقبة إلى جانب أنور وشيلندرا سنغ ونيتن موكيش وأميت كومار وسوديش بهسول وسوريش وادكر والشقيقين بانكاج أدهس ومانهار أدهس وإس بي بالاسوبرهمانيام وطلعت عزيز و فيجاي بيدكيت الذي اشتهر بأداء أغاني الديسكو والمطربات كافيتا كريشنمورتي وأليشا وسابنا موخرجي وسادهنا سارغام وسلمى آغا وتشيترا وأنورادها بادوال وأليشا تشيناي وكانشان وفاني جيرام ونازية حسن وتشاندراني موخرجي.

التسعينات :

يرتبط عقد التسعينات بأسماء محدودة نجومها كل من المطربين كومار سانو وأدت ناريان مع المغنية ألكا ياغنيك إلى جوار مؤلفي الموسيقى أناند ميلند ونديم شارفان والشاعر سمير.

كما برز في تلك الحقبة كلا من المطربين أبهجيت وسوخفيندر وسونو نجم وهاري هاران وروب كومار راثود وشقيقه فينود راثود وهاري هاران ولوكي على ابن الممثل محمود وعدنان سامي وبابول سوباريو ونصرت فاتح خان وكمال حسن وشان وياسبندر يارولا، غنّوا لكل من الشعراء فيض أنور ونداء فاضل ومحبوب مع مؤلفي الموسيقى رام لاكشمان وهردیناث مانجيشكار وأنو مالك و فيجو شاه و كل من الثنائي الموسيقي جاتين لاليت ونيكيل فيناي.

الألفية الجديدة:

لعل الألفية الجديدة كانت أسوأ مرحلة في تاريخ الأغنية الهندية برأيي الشخصي مع موسيقى هيمش رشيميا والثلاثي الموسيقي شنكر إحسان لؤي، بدت الأغنية مبتورة عن ماضيها إضافة إلى دخول الأغنية الغربية الغربية والدخيلة على الثقافة الهندية، ولعل ما يبرر ذلك استعادة كلمات الشعراء القدامى أمثال أناند باكشي وجافيد أختار وغولزار وسمير.

بالمقابل يبقى الأمل بشعراء الأغاني أمثال براسون جوشي والمطربين ويوبين ناتيوال وراحات فاتح علي خان وأرجيت سنغ وعاطف أسلم وشان ■

شاعر وكاتب سوري

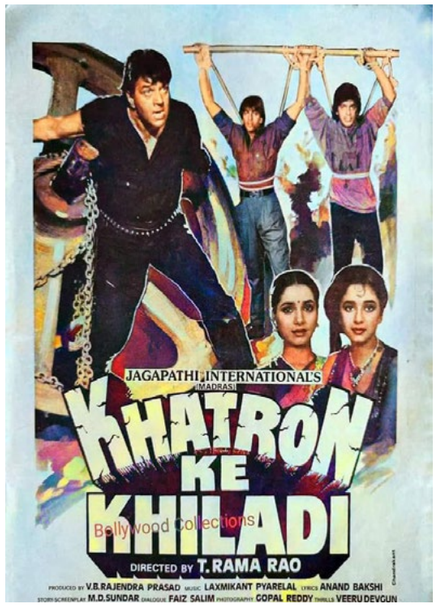

شاهد من إشبيلية.. رحلة روائية تكشف تناقضات النفس والعالم

منى التميمي تمزج بين الواقعية والفانتازيا لاستجلاء أسرار النفس الإنسانية

نشوة أحمد

دائماً ما تفرض الجغرافيا سطوتها على السرد الأدبي، فالكاتب ابن بيئته البار، ونصه دوماً مرآة صادقة تعكس مفردات المكان، وخصوصيته. والكاتبة الإماراتية منى التميمي واحدة من الكتّاب الذين جعلوا من المكان موضوعاً رئيسياً في مشروعها السردي لا سيما في روايتها الأحدث «شاهد من إشبيلية» الصادرة عن الدار العربية للعلوم ناشرون - بيروت. اختارت الكاتبة نسقاً أفقياً تدفقت عبره الأحداث إلى الأمام، واعتمدت ضمير المتكلم أسلوباً للسرد، الذي انساب على لسان بطل الرواية «مالك بن غدير الإشبيلي»، ولعب المكان بطولة موازية عبررحلة الراوي التي بدأت من مكة، مروراً بنجد، الكوفة، بغداد، الموصل، دمشق، الإسكندرية، صقلية، إشبيلية، سرقسطة، حتى بلغت محطتها الأخيرة في قرطبة. وشت بداية الأحداث بانتهاج الكاتبة تقنية الحذف، التي أرادت عبرها تسريع السرد، إذ تجاوزت الرحلة إلى مكة وانطلقت من وصول الراوي ورفيقه «نجم الدين» إليها، قادمين من إشبيلية، لرعاية عمة «مالك»، وصيانة أموالها التي ورثتها عن زوجها. ثم تتبعت «التميمي» الرحلة العكسية التي سلكها الراوي عائداً إلى بلاد الأندلس. وعبر هذه الرحلة التي تخللتها مدنٌ وصحارى؛ رصدت العديد من تناقضات النفس والعالم، فعمدت لإبراز التقابل بين طبيعة تقسو على الصحراء، بينما تحنو على بقاع أخرى فتهبها الماء والزروع، وكذا أبرزت تناقضات النفس الإنسانية، التي تتأرجح بين الشجاعة والخوف، الإقدام والإحجام، فبينما انتفض «مالك الإشبيلي» في وجه اللصوص والمتجبرين على الضعفاء «في مكة»، نضح بالخوف في طريق عودته إلى بلاده، خشية الأشباح والقتلة وقطاع الطريق.

انقسام وصراع

كانت التناقضات والثنائيات المتقابلة التي رصدتها الكاتبة نواةً للصراع، الذي اشتعل على مستويات عدة، من بينها الصراع

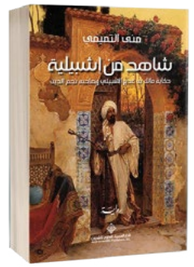

الداخلي الذي احتدم في عوالم البطل الداخلية، بين الشجاعة والخوف، التحلي بالقوة والتخلي عنها، الاعتراف بالحب وإنكاره، الرغبة في المواجهة والتراجع تحت وطأة الهشاشة والضعف. ولم يتوقف الصراع عند حدود العوالم الداخلية للنفس الإنسانية، وإنما تجاوزها إلى خارجها، فاشتعل بين الشخصية المحورية «مالك» وخائن الأمانة «زياد»، بين مالك وصفوان، بين رجال يحمون القافلة ولصوص يحاولون السطو عليها، بين مالك والشيطان ابن مزينة الذي ظل يطارده ويكيد له طوال الرحلة. وفي مرحلة أخرى من السرد كان البدوي «قصي العامري» طرفاً في صراع آخر، اشتعل بينه وبين القتلة على ظهر السفينة، في طريقهم من الإسكندرية إلى صقلية. كما بدا شكلٌ آخر من أشكال الصراع الخارجي، ذاك الذي احتدم بين الشخوص وطبيعة قاسية، تهدد تارة بشح الماء، وتارة بالعواصف والسيول، وأحياناً بالمرض. «علا الصراخ، وبدأت أشعر بأننا على شفير وادٍ عميق. توقف المطر فجأة، وهدأت الريح قليلاً، لكن السيول الجارية لم تتوقف. دخلت الأزقة، وأسقطت أعمدة المصابيح، وأخذت معها أصص الزهر الكبيرة، التي تدحرجت وانكسرت. كان صوتها وهي تتكسر قطعاً، مؤلماً». ص225

وكما كان الصراع أداة الكاتبة لتحقيق التطور الدرامي للأحداث، كان وسيلتها للدفع بجرعات من التشويق أيضاً، الذي عززته عبر حيل استباقية، خلقت عبرها هالة من الضبابية والغموض، حول أحداث بعينها، وعمدت إلى إرجاء تفسيرها لمرحلة لاحقة من السرد. فاستبقت بانقباض صدر مالك من المزني، وشعوره

بالريبة تجاهه، لتكشف في مرحلة لاحقة، عن حقيقته الشبحية، وانتمائه إلى طائفة الشياطين. واستبقت كذلك بالإشارة إلى ما يدبره العامري مع قائد السفينة لعقاب القتلة، وأرجأت كشف حيلته للاحق من الأحداث.

خيط من الغرائبية

اختارت الكاتبة القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري؛ فضاءً زمنياً للأحداث. ودللت عليه بحكم بني عباد لمدينة إشبيلية. وعلى الرغم من واقعية النص، الذي رصد حياة المسلمين في دولة الإسلام المترامية في تلك الحقبة، وجسّد ملامح واقع من التنقل، والترحال، ووثق ملمحاً اجتماعياً مهماً للمجتمعات آنذاك يتصل بفكرة الصداقة والرفيق، فإن التاريخ لم يكن إلا وعاءً - وحسب - للأحداث والشخوص التي تمخضت عنها - جميعها - مخيلة الكاتبة.

ورغم هذه الواقعية أيضاً؛ فإن الغرائبية وجدت طريقاً إلى النسيج، فزادت من جاذبيته ومتعته. وانسجمت في الوقت نفسه مع الطابع الواقعي للأحداث، لاسيما أنها ارتكنت إلى الموروث الديني والشعبي، الحافل بأساطير الجن والشياطين. فكانت

شخصية المزني الشيطانية، طرفاً رئيسياً في الصراع مع الراوي. وكانت مطارداته له ومحاولاته النيل منه، عقاباً على فضوله الإنساني؛ وسيلة ناجعة اعتمدتها الكاتبة للدفع بالمزيد من التشويق إلى النص، لا سيما مع استخدامها عين الكاميرا، كتقنية بصرية وضعت عبرها الأحداث في مرمى العين. «من ينصب قبوراً وحيدة هنا وستة أيضاً؟ ... ذابت بعد لحظات من حديثنا. لم تعد القبور في مكانها. صب نجم الدين الماء على وجهي من قربته. قلت له: أقسم أنها ألاعيب المزني. نحن ستة: اللخمي، وزين، عشتار، وأنا وأنت والعامري. هل يشير إلينا؟». ص 73 ولم تكن شخصية المزني الرافد الوحيد للفانتازيا بالنص، وإنما أوجدت الكاتبة روافد أخرى مثل المرأة ذات الضفائر، التي تئن في البئر، ولا تكف عن الصراخ، حتى يسكب الماء فوقها، فتهدأ وتتراجع جدائلها عن الحافة.

بعيداً عن التنميط

وكما أسهمت العجائبية في تعزيز حالة الترقب، وضمنت الاحتفاظ بالقارئ طوال رحلة السرد، لعبت دوراً في زيادة جاذبية الشخوص لا سيما أنها أسهمت - من خلال شخصية المزني - في

الكشف عن النوازع الرديئة للنفس الإنسانية، فكانت محفزاً لما اعترى مالك من خوف وغضب ورغبة في الانتقام. وعززت الجاذبية التي اتسمت بها الشخوص؛ حالة التماهي مع النص. وأبرزت رغبة الكاتبة في الابتعاد بشخوصها عن المثالية الكاملة، والخروج بشخصيتها المحورية بعيداً عن دائرة التنميط. فرغم فورة الشجاعة التي سيطرت على «مالك»، ودفعته لمواجهة الظلم والتجبر، أثناء وجوده في مكة. حصل على نصيبه البشري من الخوف والغضب، والقلق.

وكان كل من الحلم، والمونولوج الداخلي؛ وسيلتين لاستجلاء تلك المخاوف. كذلك لعب حلمه بإخوة نبي الله يوسف، وظيفة تمهيدية سبقت حادثة السقوط في البئر، أما المونولوج الداخلي وتيار الوعي، فلم يؤدِدوره في الكشف عما يعتمل في عوالم النفس الداخلية وحسب، وإنما كان وسيلة ناجعة، أتاحت تنويعاً أسلوبياً جمع بين ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، ما أنعش السرد وزاد من حيويته. «تبحث عن الظل في الفيافي، فتشعر بالقحط الشديد. لا أعني الجوع، ولكنك تلاحق الظلال طوال المسير...

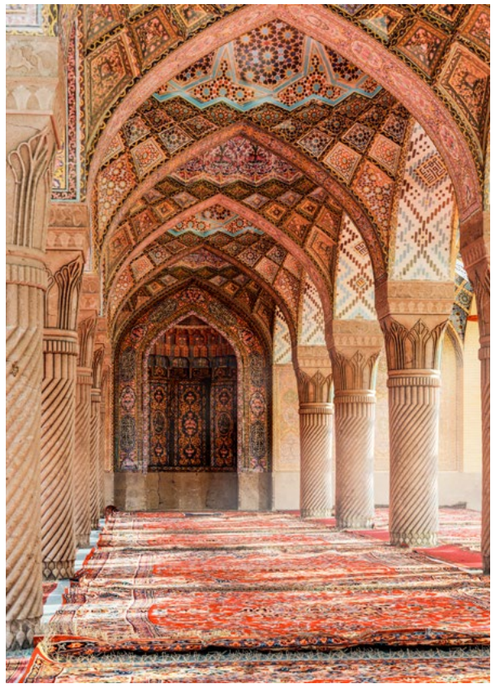

أثرثر مع نفسي، وأسترق النظر إلى نور القناديل». ص 148 وعلى نقيض «مالك» الذي أصابه التحول بعد حادثة البئر، فبات أكثر قلقاً وهشاشة، كانت شخصية «العامري» أقرب للشخصية النمطية للرجل البدوي، شديد الوفاء لأصدقائه والذي يملك من المروءة ما يجعله يأبى أن يحيد عن الحق، ويلقي بنفسه إلى المهالك، رغبة في إغاثة الضعفاء ونصرة المظلومين. «إنما أنا عربي بدوي، أتريدني أن أترك الحق لغير أصحابه؟». ص 167.

المعرفة والموروث

مررت التميمي في طيات السرد حمولات معرفية كثيفة، حول المدن التي مر بها الراوي في رحلته. فكشفت سمات تميزت بها تلك المدن، مثل مدينة سرقسطة، التي اشتهرت بأن الطعام لا يتعفن بها، ولا تدخلها الأفاعي. ومررت معارف أخرى حول معالم تلك المدن، والطرز المعمارية للمساجد التي شيدها المسلمون المقيمون فيها. ورصدت أنشطتها التجارية، مثل تجارة الحرير والديباج والكتان في إشبيلية، وشهرة سرقسطة باحتوائها أجود أنواع الملح. كما نقلت العديد من مفردات البيئة المحلية للمدن التي وطأها البطل، ومنها مكة. فرصدت نخيلها، وأسواقها التي كان يقام بها منتديات الأدب ويباع فيها الرقيق فضلًا عما كانت تحويه من مختلف أنواع البضائع، مثل: الحرير، والتوابل، والزيوت، والعطور، والسيوف، والتمر، والزبيب. ورصدت مكانة بعض المنتجات، مثل مسحوق السدر. «كان الفتيان يحملون سلال مسحوق السدر، ويغرقون الدكاكين بها، فالنساء لا يصبرن عنه، ومنقوعه يستخدم كذلك في غسل الموتى. فلا خوف من كساده في السوق». ص47 وتطرقت إلى خصوصية الطعام لدى سكانها، مثل تناولهم الجراد المقلي، والثريد.

وكما رصدت الكاتبة ملامح البيئة المحلية في مكة. ووثقت بعضاً من موروثاتها الشعبية، فرصدت استبشار أهلها بالسدر، وتطيرهم من نعيق الغربان، ومن ذكر مرض الجزام. وتطرقت إلى الأهازيج الشعبية، التي يرددها الحادي للإبل، وإلى بعض أنواع الزي الشعبي «العمائم والطيلسان»، الذي كان يميز المسلمين قديماً في مختلف أرجاء دولة الإسلام، وإن بدأت مظاهر تراجعه واختفائه في تلك الحقبة.

استنفار الحواس

عمدت الكاتبة طوال رحلتها السردية، لاستنفار حواس القارئ، فاستخدمت لغة مشهدية، وجسدت عبر تقنيات الوصف؛ ملامح

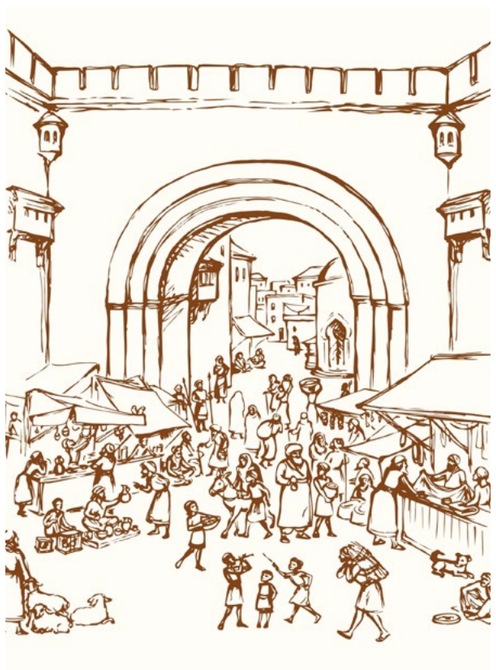

المدن، والبحر، والبادية. بل ورسمت حتى ما يعتمل في عوالم الشخوص الداخلية من مخاوف، وهواجس، وشكوك. وكان لكل ما التقطته أثره على السرد، جعل له صوتاً، وملمساً ورائحة، فبات بإمكان القارئ سماع أصوات الباعة، وضجيج السوق، وهزيم الرعد. وبات بمقدوره سماع صرير الخوف أيضاً ورؤية دخان الغضب في العوالم الداخلية للشخوص وإدراك أفراحهم وأتراحهم.

ولم تكتفِ الكاتبة برصد طبائع النفس الإنسانية، وتناقضاتها، ونقائصها، وإنما أحالت - ضمناً - لقضية كبرى، تتصل بما حل بدولة الإسلام من تفتت، وسقوط بلاد الأندلس نتيجة الصراعات الداخلية، التي أضعفت حكامها المسلمين «كانت سرقسطة في شمال شرق المملكة الإسلامية، تقارب دولة النصارى. ولذا خفنا أن تسقط في أيديهم مبكراً ثم يتتابع سقوط باقي المدن بعدها». ص178 . وقد استدعت التميمي تقنية الحوار المسرحي، واستخدمتها بكثافة في مساحات واسعة من النسيج، لتحقق عبرها مزيداً من الصدقية، والإيهام بالحدوث، وكذا لتبطئ من إيقاع السرد، بما يمنح القارئ فرصة لتأمل الماضي، واستيعاب ما مررته من رؤى ■

كاتبة صحفية مصرية

عايض بن ختروش الكتبي.. شاعر الحنين والبادية

حاورته: ميثة سالم العامري

الشاعر عايض بن مطر بن ختروش الكتبي من سكان مدينه العين من منطقة الشويب. ولد وعاش طفولته في البيئة البدوية الجميلة بكل معانيها، ما بين حلٍّ وترحال مع أهله وعشيرته طلباً للكلأ؛ لكثرة المواشي والإبل العربية الأصيلة التي كان يمتلكها والد الشاعر مطر بن ختروش الكتبي. تعلم عايض في مدارس الشويب وسويحان والمدام وفي مدارس العين حيث التحق بالخدمة العسكرية. وبدأ في كتابة الشعر وهو في سن الرابعة عشرة من عمره، وكانت بدايته محاولات بسيطة لا ترتقي إلى قصيدة، ومع مرور الوقت اتضحت ملكة نظم الشعر والقصيدة لديه بتشجيع من والده الشاعر مطر، الذي تبادل الأبيات الشعرية والقصائد معه، وكانت له مساجلات شعرية مع العديد من الشعراء، ولديه العديد من القصائد المغناة. وكانت أول قصيده كتبها الشاعر «عطيتك يا عشيري حب صافي» والتي من خلالها وصل إلى محبي الشعر ومتذوقي الكلمة الشعبية الإماراتية. وكانت بداياته في الشعر المغناة هو التعاون مع المطرب الفنان سعيد الدوبي، الذي كان له دور كبير في إيصال كلمات الشاعر عايض ونشرها. وقد أعجب عدد كبير من مطربي الدولة بكلمات الشاعر وقصائده؛ فاختاروا منها مجموعة من القصائد وتغنوا بها وكانت لها شهرة بين المغنين، ومن هؤلاء الفنانين المطرب عيضة المنهالي وسعيد الدوبي. وما زال الشاعر مقيماً في مدينه العين وينتج المزيد من الأبيات الشعرية.

وفي حوارنا مع الشاعر طرحنا عليه مجموعة من الأسئلة المتعلقة بشعراء الخليج العربي والإمارات كان أولها كالتالي:

هل تأثرت بأحد من شعراء الإمارات أو شعراء الخليج العربي؟

يؤثر الشعراء في بعضهم عند كتابة القصائد وهذا الأمر شائع في سائر الخليج العربي وقد تأثرت بهم مثل ما تأثرت بشعراء دولة الإمارات المعروفين من دون ذكر أسماء. واستفدت كثيراً من طريقة نظمهم ومما أوردوه في أبياتهم الشعرية ما جعلني أتطور في نظمي للشعر وفي كلماتي الشعرية وإيحاءاتها. كما اكتسبت من مخالطتهم الخبرة في طريقة رصف الشعر ونظمه والتنقل بين الموضوعات واختيار الكلمات القوية التي لها دور في قوة المعنى، وكذلك كيفية تأثير القافية والوزن والكلمات في بحور الشعر. وأول من شجعني وكان الداعم القوي في مسيرتي الشعرية هو والدي مطر، فقد علمني الشعر والمعاني والأخلاق وكنا نتبادل القصائد الشعرية والأبيات. ومن أشعار والدي مطر الكتبي رحمه الله:

يايرانـــــن كانـــو احذانـــــا
وقلعونـــــا قلعـــــه نولـــــي
اتركونـــــا واتركـــــوا مانـــــا
واسكنـــــوا فـــي رزم متعلـــــى
يعلهـــم فـــي حفـــظ مولانـــا
وعقبهـــم ماهـــوب متسلـــي
لو بغينـــــا النـــوم مايانـــا
ولا قدرنـــا نقـــوم ونصلـــي
الا احســـن نجـــرب مطايانـــا
ويـــن بيحلـــون بنحلـــي
ع السبـــوع ايطـــيب مرعانـــا
والحـــلال رتـــوع ومفلـــي

من المعروف أن الموضوعات التي يتناولها الشعراء في قصائدهم تختلف حسب الفترة التاريخية والثقافية التي يعيشون فيها، فما الموضوعات التي تناولتها في قصائدك؟

تناولت الكثير من الموضوعات في أبياتي الشعرية، مثل: الموضوعات الاجتماعية، وحب الوطن، ومدح أصحاب السمو شيوخ دولة الإمارات، وفي الغزل. كما دارت بيني وبين عدد من الشعراء قصائد الردود والمشاكاة، وكتبت قصائد عدة في وصف الإبل وسباقات الهجن التي لاقت استحساناً واهتماماً كبيرين من الجمهور، وتغنى بها الفنانون وانتشرت انتشاراً واسعاً على المستويين المحلي والخليجي.

للإبل عشق خاص وإرث يتجدد وتاريخ وفاء وسط الصحراء، حدثنا عن مدى اهتمامك بالإبل وخاصة أنك نظمت فيها الكثير من الأبيات شعرية؟

أمتلك قطيعاً كبيراً من الإبل ومن سلالات مختلفة، محلية ومهجنة وأصايل. وأشارك فيها بسباقات الهجن التي تقام في الدولة، وقد حصلت على العديد من المراكز المتقدمة، ولدي خبره كبيرة في عالم الهجن، كما أهوى «التضمير» التي تعد من أصعب الهوايات الشعبية وأعقدها، وقد اعتزلتها من فترة بسيطة، ولكن لا يزال حبي للإبل كبيراً وهو متوارث من أجدادي. وقد كتبت القصيدة التالية في دورة دبي «نادي دبي لسباقات الهجن»:

شوقـــــني التنظيـــم في دورة دبـــي
دار الشيـــوخ اللي ذرا كـــل خايـــف
بين القبائـــــل دائمـــاً ذكرهم حـــي
يثنـــي عليهـــم لـــي مـــن البعـــد لايـــف
هـــم ذخنـــا إن بدنـــا مالدهـــر
يعلهـــم ما يشتكـــون الحسايـــف
غنـــى لهـــم لـــي يادلـــه ينثـــني طـــي
ريـــم ٍربـــى فـــي نايفـــات الشريـــف
زايـــد كرمهـــم عـــن كـــرم حاتـــم الطـــي
لو هـــو كريـــمٍ فـــي زمـــان الشضـــايـــف
لـــي مـــن لفاهـــم معســـر الوقـــت يبـــي
يحيـــا ولو هـــو مالعســـركـــان هايـــف

يا ديرتي ياديـــــرة العـــــزيدبـــي
رفـرف علمـك بكـل عالـي ونايـــــف
يشتـــاق لك لـي حايلـه تقطـع الفـي
وانـتي مـراد اهـل الضـمور النحايـف
يعـل المـزون اللـي بهـا الخـير تسـري
غدرانهـا تصبـــح شطـوطٍ ذرايـــف
تسقـي تـراب دبـي ومـا حـوى دبـــي
والكـم سلامـات ٍكـــثيرة رضايـــف

حدثنا عن مشاركاتك في البرامج التراثية والشعرية التي تبثها القنوات التلفزيونية والإذاعات المحلية؟ وهل لك مشاركات في الأمسيات الشعرية داخل الدولة وخارجها؟

شاركت في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية في القنوات المحلية والمهتمة بالشعر والتراث، منها على سبيل البرامج المنوعة والمتعلقة بالشعر بالتعاون مع مجلس جمعية إحياء التراث الشعبي. وقدمت العديد من الأمسيات الشعرية في مختلف مناطق الدولة ومعظمها في مدينة العين. كما شاركت في أمسيات شعرية خارج الدولة، في الكويت وقطر وسلطنة عُمان، وكانت آخر مشاركاتي في برنامج «عذب القصيد» الذي يقدمه الأستاذ أحمد بن سليم الكتبي ويُبث على قناة سما دبي.

هل سبق لك أن نشرت قصائدك في الصحف والمجلات؟ وما رأيك بوسائل التواصل الاجتماعي التي سهّلت وكسرت الحواجز الثقافية بين المجتمعات المختلفة؟ وهل لها دور في شهرة الشاعر ونشر أشعاره؟

لديّ العديد من القصائد المنشورة في الصحف والمجلات المحلية والخليجية، منها على سبيل المثال: جريدة «البيان» و«الاتحاد» و«الوحدة» وغيرها، وأتواصل الآن مع جمهوري عبر وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة، حيث أصبحت هذه القنوات أسهل وأسرع، ما يساعدنا على نشر قصائدنا في أي وقت، ولكن أحياناً يحدث العكس حيث العديد ممن ليس لهم في الشعر أي صلة يسيئون عِبْرَها للشعر وللشعراء.

ما رأيك بجهود دولة الإمارات في دعم الشعر والشعراء؟

نحن محظوظون في دولة الإمارات العربية المتحدة بدعم حكومتنا الرشيدة ومتابعتها وبشكل كبير لنا نحن الشعراء، وكذلك للبرامج والأنشطة الثقافية المتعلقة بالحقل الشعري والمحاضرات والندوات البحثية وورش العمل الأدبية التي تشارك فيها نخبة من المهتمين من مختلف دول العالم. كما أنها تدعم المنصات الشعرية المرموقة للتجارب الشعرية الجديدة والواعدة في العالم العربي عبر الاهتمام بإقامة أمسيات شعرية لشعراء شباب وشابات من مختلف مناطق في العالم العربي، إضافة إلى نشر أعمالهم الشعرية والأبحاث المتعلقة بالشعر.

هل يمكن أن نطلع على بعضٍ من أشعارك الاجتماعية والمغناة؟

من القصائد المغناة التي كتبتها:

عطيتـــك يا عشـــيري حـــب صافـي
وبادلـــــت المحبـــه بالتجافـــي
وبالهجـــران عاكســـت المـــوده
ومـــاشيتـــه ودادي بانعطافـــي
نسـيت ايـــام يـا خلـي تمضـــت
زمـــان كـنت يالمظنـــون وافـــي
زمـــان بـــه بهينـــا واهتنينـــا
وشمينـــا مـــن زهـــور الفيافـــي
علامـك تهـــدم آمـــالاً جميلـــه
وتجـرح جـــرح مـــا يرضـــاه ربـــي
ولا ترحـــم غريـــم بـك مولـــع
عطـاك مـن الغـلا مـاكـان كافـــي
تجاهلتـــه وتعلمـت الخيانـــه
مهيـد اللـي سعـــالك في خلافـــي
وهـذا اليـــوم رح واتبـــع طريقـــه
عسـاه يكـــون لك اخـر مطـــاف
وانـا مرتـاح مـن قلـبي وواثـــق
لانـــي فيـك راعيـــت النصافـــي
ولـــي يحكـم ويتمـــلك ضمـــيره
يعيـــش الدهـر مستـــانس وغافـي

ولي قصيدة في مدح رئيس الدولة صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، حفظه الله:

يظـل الشعـر للشاعـر وسيلـه
بعبريـه لشخـص ٍينتميلـه
وانا عـبرت عـن مـا فـي ضميري
لمـن حبـه وسـط قلـبي اشيلـه
غلاه أكـبر من اِحسـاس المشـاعر
وبيـوت الشعـر فـي حقـه قليلـه
محمـد ولـد زايـد تـاج راسـي
ذخرنـا يـوم حـزات والوهيلـه
كفوفـه مثـل همـال السحايـب
يغـيث الأرض لو كانـت محيلـه
وعـم الخيـر مـن فظلـه وجـوده
كمـا وبلـن مـن السحـب المخيلـه
وغطانـا جميلـه ومعروفـه
عسانـا نـرد بعـض ٍمن جميلـه
ومـن طيبـه تعلمنـا التواضـع
وخدنـا منـه لخـلاق النبيلـه
ووقفـات المراجـل والشجاعـه
على الشـدات لو كانـت ثقيلـه
وفعـل الخيـر واسلـوب التعامـل

ودرسنا منهج الطيب وسبيله يمتاز مثل الصبح لي بان وأشرق
اسال الله يحميه ويصونه إيزيح ويلات الزمان ويحيلها
من الحساد واصحاب الدغيله الله عطانا اياه من كبر حظنا
إلّهي يحفظه ويعزداره رحمة من المولى عسى الله يطيلها
وتبقى دارنا حرة جميله ايحفظه الرحمن ويدوم عزه
وهذه قصيدة أخرى كتبها لصاحب السمو رئيس الدولة الشيخ واللّه يجيره ماالليالي وميلها
محمد بن زايد آل نهيان، حفظه الله: كما كتبت قصيدة في مدينتي الجميلة مدينة العين:
اخترت من زين المعاني جزيلها العين غيروجوها غير
آخذ نوادرها واخلي هزيلها خصوص في وقت المسيان
نوادر يطرب لها كل سامع يهيضك صوت العصافير
أصوغها واختار منها جميلها والورد لي يانع ورويان
واعد نظم الشعر في مدح سيدي وان هبت النسمات لعصير
سليل قوم نعم من هو سليلها تاخذ عطر من كل بستان
بوخالد إن حقت علينا واظلمت لو عالطريق اتمر وتسير
يوقف لها بالبين يوضح دليلها ابيك ريح العود ذنان
تفخر بيوت الشعر بسمه وتعتلي جو خيالي فيه تغيير
طاريه يرفعها صعود ويشيلها يعالج اهمومك ولحزان
هو رئيس الدولة وحامي حماها وبتشوف بصمة زايد الخير
كل الأمور الكايده يرتكيلها لي زاهيه في كل ميدان
يبادل الشعب الغلا والمحبه حصون وافلاج ونوافير
ومحبته بين الحنايا نشيلها للمجد والتاريخ عنوان

القصيدة التالية كتبتُها في وطننا الغالي وحكومتنا الرشيدة:

ابشرو بالخير وابشريا وطنا
الحكومه وافيه والشعب وافي
ولي يحارب دارنا ما هوب منا
وياحد المعروف يعله ما يشافي
وياوطن في ظل حكامك تهنا
بالتقدم صرت في اعلا المرافي
والمواطن نال كل ما تمنا
والرخى والامن ما يخفيه خافي
وانزرع حب الوطن فينا ومنا
مخلصين الحب له والقلب صافي
والليالي والتجارب علمنا
من يعيش بلا وطن تلقاه حافي
ودونكم ياشيوخنا لا مانتشا
امركم ماشي مثل حد الرهافي
دمنا فدواء عن ترابٍ حظنا
التراب اللي انا ارض ولحافي

أما عن المساجلات الشعرية فلدي العديد من المساجلات التي تحمل مواضيع التي تعبرعن القيم الأخلاقية عن أحوال البادية في الفترة التي تسبق قيام الاتحاد. ومن هذه المساجلات ما داربيني وبين الشاعر غدير بن مطر الكتبي الذي كتب القصيدة التالية:

نستبشر بخيريا عايض متى يطلع
نجمٍ نحبه ونحتسب لاجله حسابي
يا زين شوفه ونور الصبح ما شعشع
لميع نجمه لراعي الذود جذابي
والقيظ له مدة وأيام ويودع
وأهل الذلايل بدوا في كل مسحابي
وابشرك هالسنّه شاهينا بدع
في كل دوره خبر لانتاجه ونابي
ايجيب حمر البكار الندر القطع
لي تكسر التيم يوم الشوط ينهابي

وكان ردي له بالقصيدة التالية:

القيظ يا بو محمد قرب ايودع
ونسايم سهيل يا الشاعر لبوابي
والوقت دوار اللي راح ما يرجع
يا حظ من يغتنم وقته إذا طابي
ايدور النادرة لي تلحق وتدفع
في تيمها فارقه والشكل جذابي
من الشواهين ولا مالشقر منبع
من العنانيف فيها دم وانسابي ■

* مركز زايد للدراسات والبحوث

الشاعر الراوي علي بن بخيت العميمي
ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات

مريم النقبي

الشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي، أحد أبرز شعراء القبائل في دولة الإمارات العربية المتحدة، ولد في بادية الإمارات الشمالية في المنطقة الواقعة بين رأس الخيمة وأم القيوين، في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي في عام 1935 تقريباً، وعاش طفولته مع والده، ثم انتقل للعيش مع عائلته وأخواله في مناطق البادية بإمارة رأس الخيمة، مثل: الحمرانية والدقداقة والخران، واعتمد على نفسه في مرحلة مبكرة من عمره حتى استقر في دبي عام 1952، بعدها انتقل للعيش في بادية فلج المعلا وكان له صيتاً كبيراً بين القبائل ومتذوقي الشعر الشعبي إلى أن استقر به المقام في مدينة الذيد مع أسرته وظل فيها حتى وفاته في السادس من يونيو 2023 .

لم يتلقَ شاعرنا الراحل - رحمه الله - أي نوع من أنواع التعليم، لكنه قرض الشعر في وقت مبكر من عمره، قبل بلوغه سن العشرين، وتساجل في خمسينيات القرن الماضي مع العديد من شعراء الإمارات، ورافق بعضهم، وعمل مع بعضهم الآخر، ما كان له أثر كبير في الاعتراف بموهبته من قِبل كبار الشعراء وقتها أمثال: محمد بن خلفان بن حزيم الفلاسي، وحمد بن بدر العليلي، ومطر بالخيصي الكتبي، ومطر بن سرور الكتبي، ومبارك بن نواس الكتبي، وعيسى بن شقّوي العليلي وغيرهم، كما كانت تربطه علاقة أخوية قوية مع الشاعر علي بن رحمه الشامسي - رحمه الله - والشاعر خميس السماحي الذي كان من أقرب الشعراء إليه وأكثرهم ارتباطاً به .

كما كان الشاعر علي في بداياته مشاركاً بصورة دائمة في فن «الرزيف»، المتعارف عليه في المناسبات الاجتماعية والأعراس، وفي أواخر الثمانينيات كان عضواً في عددٍ من البرامج الإذاعية والتلفزيونية المتخصصة بالشعر النبطي كبرنامج «مجلس الشعراء» في تلفزيون دبي، و«شعراء القبائل»، في تلفزيون أبوظبي، إلى جانب عددٍ من البرامج التي تقدم في المحطات الإذاعية في

الشارقة ورأس الخيمة وأم القيوين. كما شارك في العديد من الأمسيات الشعرية، وصدر له ديوانان الأول صدر عن وزارة الإعلام والثقافة، بعنوان «ابن البادية»، عام 1993، أما الثاني، فقد صدر عن نادي تراث الإمارات، عام 2012، كما صدرت له الأعمال الكاملة من معهد الشارقة للتراث 2022 بعنوان: «ديوان الشاعر علي بخيت العميمي القصائد الذاتية الأعمال الكاملة».

ويُعد الشاعر علي العميمي - رحمه الله - من الشعراء الذين يكتبون بغزارة، كما كان مهتماً بالبادية في قصائده وما اشتهر فيها من فنون مثل: «الونة والتغرودة والردح والعازي»، وتنوعت أغراضه الشعرية بين العاطفة، والمدح، والشعر الاجتماعي، والقصائد الذاتية وغيرها، ومن قصائده :

ان غضّوا الهيْعين بمْنام
جفني لذيذ النوم جافاه
مغنّث من رويات الاحلام
في النوم تلفيني رواياه
كثير من عايش ع الاوهام
ومقزّر أيامه ودنياه
والقى مُرضي زايد عن العام
ولا يقدر الدخترعلى ذْواه
هذا سبب مدقوق لَوشام
اللي بخَص حالي وشقّاه
ربته صدف في بعض ليّام
غافل وباني في المفاجاه
مرفوق لو بيقيّض الشام
لاترك عيالي وانبيْ ويّاه
قالوا علي من هالوطن شام
حتى العمل في الذيد خلاه
شل الجوازوزرّ الحزام
وانحى على لمغيب مجراه
تابع مخوّة ناسٍ احشام
اللي لهم حشمه ومداه

وله أيضاً :

ماطاب نوم العين بنعاس
وأفكار قلبي باتت تُدور
راعي التجارب شخص حسّاس
على الفكر تجري له شْعور
تفكّري يا قورة الياس
مر الزمان وطافت عُصور
وتبدّلت ناسٍ على ناس
واصبح طريق الياس مهجور
لوّل نحيد الورد والياس
يستعمله مهضوم لخصور
وقتٍ مضى يمشط به الراس
ويفوح من بنّات لِعطور ■

* شاعرة وباحثة إماراتية

القهوة بين العياشي والسديري

محمد أحمد السويدي

للعرب مذاهب ومسالك في الحديث عن القهوة، ولعلّ البدايات المبكرة في إفراد مؤلفات تناولتها كانت مع كتاب عمدة (الصفوة في حل القهوة) للشيخ محمد بن عبد القادر الجزيري (الجزيرة الفراتية في العراق)، وهو علامة ومؤرخ حنبلي عاش بين عامي 911 - 977هـ. وحققه ونشره لأول مرة شيخ المستشرقين الفرنسيين سلفستر دي ساسي (سنة 1806 م).

وذكر فيه نصوصاً رجّح فيها الوقت الذي عرف فيه العرب نقيع البنّ، أو على الأقل شيوعه وانتشاره، وكان ذلك من قبل الشيخ جمال الدين أبي عبد الله بن سعيد الذبحاني المتوفى سنة 875 هـ، بالرغم من أن أول من ذكر البن كان الرازي في مسرده بكتاب الحاوي، ولكنه أورد ذكره كعلاج وكذلك فعل ابن سينا في قانونه. أما الذبحاني فلقد سرد حكاية تولي الذبحاني الفتوى في (بر أفريقيا) فوجد أهلها يستعملون القهوة ولم يعلم بخاصيتها، وبعد عودته إلى عدن تعرّض إلى وعكة ألزمته الفراش فتذكر نقيع البن، وشربه فشفي من مرضه، وأدرك أن من خواصها أنها تنشّط البدن وتورثه خفة وعزما.

ثم صار الصوفيون يستعينون بها ليتمكنوا من قطع طرفٍ ليالي عباداتهم الطويلة، ومن ثم ألفها الناس والفقهاء والعلماء، وبعد ذلك انتقلت إلى الحجاز وبلاد الشام ومصر قبل أن تعرفها أوربا في أوائل القرن السابع عشر من خلال الهولنديين الذين كانوا ينقلونها بسفنهم من ميناء مخا، ومن هذا الميناء ظهرت تسمية الموكا (المخا) لضرب من القهوة.

ثم وبعد ما يزيد قليلاً على القرن ذكر العياشي المتوفي في 1679م .1090 هـ القهوة في رحلته، وسرد جوانباً من اختلاف أهل عصره في شأنها وانقسامهم بين محلّل ومحرّم لشربها.

فلقد كان حريصاً على مخالطة الناس خلال إقامته في الحجاز، وخصوصاً في مكة والمدينة وتدوين مشاهداته، والتنبيه على الظواهر الاجتماعية وتفشّي بعض السلوكيات. فنجده يتطرق بعين ثاقبة وبيده عدّة المؤرخ التي تتحرك في أرجاء المشهد وتقبض بعد تفحّصٍ على الأشياء ثم يبدأ بالتعليل والتحليل، ولقد أشار إلى كثير من الجوانب التي لم يشر إليها أقرانه من الرحالة والمؤرخين كشغف أهل الحجاز بالقهوة، وانتشار البُن في بيوتهم أو تفشي عادة الدخان، في القرن الحادي عشر الهجري. ودخل في مناظرات مع مجموعة العلماء. ويهمّنا في هذا المقام ما أورده من مناظرات في تحليل القهوة وتحريمها وما صار إليه أمر العلماء من تناولها، فمنهم من ذهب إلى أن شرب القهوة بذاته مباح خاصة إذا اقترن بالإعانة على السهر في العبادة أو المطالعة الليلية، أما إذا اقترن شربها بإتباع الأهواء و(لهو حضور من لا يحل حضوره من الجواري) فهي في حق هؤلاء محرمة. وتناول أيضاً الخلاف في (شراب يتخذ من قشور البن)، وتوسّع إلى الشطرنج، وتعامل معهما بحسب نتائجهما وطبيعة استعمالهما، فالتحريم عنده لا يكون لذاتهما، بل بحسب استعمالاتهما.. أما التدخين فلقد قال العياشي بضرورة تحريمه متفقاً مع كثير من فقهاء عصره. ولكنه كتب في نبرة متشائمة (ولم يزل الأمراء مجتهدين في قطعه ومع ذلك فلا يزاد إلا شهرة)..

ولكن ما أن أقبل القرن العشرين حتى أصبحت القهوة في الخليج شراباً لا محيد عنه، وارتبط بمجموعة من العلاقات والقوانين التي دخلت في صلب النسيج المجتمعي لسكان المنطقة، فيذكر الوالد أن إيران شرابها الشاي الذي قوامه السكّر، وإبان الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تقوم على تأمين المؤونات بنظام البطاقة للخليج وكان السكر على رأس أولوياتها، وهو الأمر الذي لم يكن يتوفّر في الجهة الأخرى من الخليج، فكان ذلك سبباً في رواج تجارة تهريب السكر إلى إيران، فالكيس الذي كان يبلغ ثمنه مئة روبية كان يُباع بألف. والسبب في ذلك يعود إلى أن أهل الخليج أهل قهوة وتمر، وكان الخليجي، وخصوصاً البدوي يكتفي بحمل قبضة من هذه الحبوب في رحلةٍ قد تطول أو تقصر، فكأنه كان يحمل معه قبضة من الذهب. ولمحمد أحمد السديري الذي عاش بين عامي 1915 - 1979

في هذا المعنى قصيدة من عيون شعره قال فيها:

يا بجـاد شـب النـار وادن الدلالـي
واحمـس لنـا يا بجاد مـا يقعـد الراس
ودقّـة بنجـرن يا ظريـف العيالـي
يجـذب لنـا ربعـن على اكـوار جـلاس
وزلّـه ليامنّـه رقـد كـل سالـي
وخلّـه يفـوح وقنـن الهيـل بقيـاس
وصبّـه ومـدّه يا كريـم السبالـي
يبعـد همومـي يوم اشفـه بالانفـاس
فنجـال يغـدى مـا تصـور إيبالـي
روابعـن ناخـذ بهـا اخمـاس واسـداس

والقصيدة مبنية في وزنها وغرضها على قصيدة ذاع صيدها منذ القرن التاسع عشر للشاعر دغيّم الظلماوي الذي عاش في منطقة حائل في فترة حكم آل رشيد، والتي قال في بعض أبياتها:

يـاكليـب شـب النـار يا كليـب شبـه
عليـك شبـة والحطـب لك يجابـي
وعلـي أنـا يا كليـب هيلـه وحبـه
وعليـك تقليـط الدلال العذابـي
وادغث لها يا كليب مـن سمـرجبـه وشبة
الـي منـه غفـى كـل هـابي
باغـي ليـا شبيتهـا ثم قبـة
تجلـب لنـا ربعـا سراة غيابـي
بنسريـةً يا كليـب صلفـا مهبـه
لاهـب نسناسـه تقـل سـم دابـي
سـراة ليـل وناطحيـن مهبـه
متكنفيـن وشوقهـم بالعذابـي
الوالمـة يا كليـب عجـل بصبـه
والرزق عنـد اللـي ينـشى السحابـي

وقيل أن الأمير محمد بن عبد الله بن علي الرشيد بعد سماعه هذه القصيدة أقسم بأن لا يشتري دغيم الظلماوي القهوة مادام حيّاً وأن تأتيه هدية من ابن رشيد.

ولقد أخبرني الصديق صلاح أن هذه القصيدة كان يسمعها مُغنّاة بالطور البدوي من جده الذي ولد في عام 1872 وكان من ملازمي ابن هذال من شيوخ قبيلة عنزة طيلة ستين عاماً، وجال معه البوادي بين لوقا ولينا وعرعر ..ولعلّها من أكثر القصائد التي عارضها الشعراء، وبعضهم مَن عاصر دغيّم ذاته، منهم الشاعر حسن التبيناوي الشمّري الذي كتب:

يا حسين شـب النـار يا حسـين شبّـه
بقصيصـةٍ مـا بـه دبيبٍ ودابـي

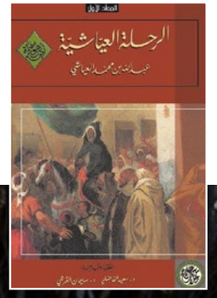

بـــاغٍ إلـــى شبيتهـــا ثـــم قبّـــه
قلّـــــط ثلاثٍ ميرهـــــا بـــس دابـي
من مـــيرسلطـــان العرب جبت حبّـــه
واللي تبقـــى يلحقونـــــه حبابـــــي

كما عارض القصيدة الشيخ سعد بن مسعد الأيدا بقوله:

يا عيد شب الناريا عيد شبّه قلّط دلالٍ .. مكرماتٍ تعابٍ وإسمك
ركون البيت وإذروا مهبّه إن هبّت الشمطا .. علينا إنحطابِ
إقصربماها .. ثم زيدوا بحبّه يصبغ على الفنجال .. لون الخضابِ
ردها على المجلس .. بلطف ومحبّة فنجالها يجلا .. عن الوجه غابي

ومن أشهر من عارضه أيضاً الشاعر القبالي التميمي راعي قصر العشروات وهو من حاضرة قفارولقد اشتهربالكرم أيضاً، بقوله:

يا علي شب الناريا علي شبّه.. لا مال في مشمرخات الهضابِ
باغٍ إلى .. شبيتها .. وإضلهبّه قلّط ثلاثٍ .. لونهن كالغرابِ
حنكيّةٍ ... ما ينفعه لو نربّه بلغودها تلقى ... سنا النارصابِ
يللي تقول: النار ... كلٍ يشبّه الفرق بالمنبا ... ولينَ الجنابِ
زادك و ميسورك و لين المحبة أخير من كبشٍ.. سمينٍ يجابِ

ومن القصائد التي سمعتها من جدّة صديقة لنا، قصيدة يتحاور فيها الشاعر مع قهوته، فيقول:

البارحـــه نوم المـــلا ما هنانـــي
وأصبحـــت كني واحـــد لاحقـــه دين
مـــن دلـــة فنجـــا لها ما هيانـــي
حرقه ولا ادري ويش الأفكاريا حسين

فردت القهوة عليه قائلة:

يابو علي لومـــــك على اللى قلانـــي
لا زين الحمســـه ولا لقط الشـــين
ادفق سريبـــــه والخمـــــر مـــا يدا
وكثروقيـــده من قضى يابس وزيـــن
وكـــثر مـــن المسمـــار والزعفرانـــي
وشوي هيـــل مع طيوب ارش العين
وأنا الذي مـــن ذاقـــني ما ســـلاني
وأنا الذي اجمع بشمل المحـــبين ■

شاعروكاتب من الإمارات

الشعر بين الروايات والمخطوطات

قاسم خلف الرويس
باحث ومؤرخ سعودي

ربما تكون حاجتنا إلى نشر دراسات الشعر النبطي القديم أكثر أهمية من نشر دواوين الشعر النبطي الحديث بحكم الدلالات العلمية التي يعكسها ذلك الشعر لكونه مصدراً أولياً لدراسة حياة الصحراء بكافة جوانبها، تلك الصحراء التي احتضنت تاريخ العرب المتقدمين والمتأخرين على حد سواء، ولا شك في أن دراسة الشعر النبطي وفق منهج علمي رصين تقتضي -كما يشير الباحثون مثل الدكتور الصويان وغيره من المهتمين - أن ندعم مصادرنا المطبوعة بالوثائق الخطية ما أمكن ونجد في البحث عن أقدم الشواهد المخطوطة من الشعر النبطي لأنه لا يحسم الخلاف مثل السند المكتوب، فالرواية الشفهية وحدها ومن دون دعم من سند خطي موثق لا يمكن الركون إليها لأكثر من مئتي سنة أو ما يقارب ذلك.

وبينما لا نجد أقدم من المخطوطات التي جلبها تشارلز هوبير من حائل حينما زارها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وقريباً منها في الزمن المخطوطة التي اشتراها ألبرت سوسين من محمد الحساوي في بغداد والمنسوخة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وهو ما يؤكد وجود فجوة زمنية تزيد على أربعمئة سنة تفصل بين أقدم النماذج التي وصلتنا من الشعر النبطي وبين مخطوطات هوبير التي تمثل أقدم ما بين أيدينا من مخطوطات الشعر النبطي؛ ويرجح الصويان أنها منسوخة من مخطوطات أخرى للشعر النبطي ويتساءل عن تلك المخطوطات التي استفادت منها مخطوطات هوبير مادتها والتي كانت متداولة منذ بدء تدوين الشعر النبطي في مرحلة المبكرة.

من هذا المنطلق فإن المخطوطات الشعرية تكتسب أهمية قصوى في حفظ نصوص الشعر النبطي الأصلية المدونة بين صفحاتها التي ربما تكون الرواية الشفوية قد أثرت في مكوناتها عبر التداول لهذه النصوص خلال فترة زمنية طويلة ظلت فيها السيادة للرواية الشفوية دون غيرها لظروف عديدة أبرزها انتشار الأمية والعزلة وانعدام وسائل الاتصال التي كانت تعيشها الجزيرة العربية في القرون المتأخرة، وإذا كان خبراء المخطوطات يؤكدون أنه كلما تقدم زمن كتابة المخطوطة زادت أهميتها، فإن خبراء الشعر النبطي يؤكدون أن تقدم الزمن أكثر أهمية لمخطوطات الشعر النبطي بسبب سرعة تأثر هذا الشعر بالرواية الشفوية، حيث أدت إلى تآكل نصوصه وتغييرها وربما تشوهها وعلى الرغم من أن كثيراً من المخطوطات لا تخلو من أخطاء الكتابة المنتشرة سواء بتحريف أو تصحيف أو سقط وغيرها إلا أن تقييد النص بالكتابة يشكل حماية له إلى زمن كتابة المخطوطة بحيث يعطي تصوراً عن النص المتداول لقصيدة ما في ذلك الزمن أو على الأقل الرواية التي وصلت إلى أسماع كاتب المخطوطة حينذاك.

ويرى الصويان أنه لو تضافرت الجهود لجمع مخطوطات الشعر النبطي من مختلف العصور ولم شتاتها ثم تحقيقها وعمل دراسات مقارنة بينها لأمكن تحديد العلاقات فيما بينها ولو بصورة تقريبية ولأمكن تتبع المراحل والتغيرات التي مرّت بها بعض القصائد، لا سيما القصائد القديمة. كما أنه كلما تعددت النسخ الخطية للقصيدة غطت مساحات زمنية ومكانية أوسع استطعنا عن طريق التحقيق والتدقيق والمقارنة والمقابلة بين هذه النسخ أن نرمم النص، ونصحح ما فيه من أخطاء، ونتمكن من قراءة ما انطمس من كتابته، وفهم ما استغلق من معانيه، لنخرج بنص قويم سليم قريب من الأصل في لغته ومفرداته وعدد أبياته وترتيبها. وكلما تراكمت لدينا المادة الشعرية استطعنا أن نرصد مسيرة الشعر النبطي بلغته ومضامينه وأساليبه الفنية في حركته المستمرة على طريق التغير اللغوي والفني. هذه الحركة من البطء والتدرج بحيث قد لا يشعربها الإنسان ويلاحظها بشكل مباشر في حياته الفردية، كما أن ملاحظة التغير اللغوي والفني في الشعر النبطي تحتاج منا النظر إلى التراث الشعري برمته ثم فرزه وترتيبه في تتابع زمني منتظم ■

أَمَّي أَمَّي يا أمَّايه

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

تحظى الأهازيج الشعبية بمكانة حميمة، وتقدير لدى الشعوب؛ لأنها تعبر عن الذاكرة الجمعية، فهي جزء أساسي من تراث أي دولة؛ تشمل المشترك بين أغلب الناس؛ مما جعلها توصف بكلمة الشعبية، أي تعبيرها عن عموم الشعب، عن دورة حياتهم من الميلاد، التعلم، العمل، الزواج، وانتهاء بالوفاة. هي معبرة عن أفكاره وعواطفه، مسجلة لأهم الأحداث التي عبرت بهم فعبروا عنها بأشكال مختلفة، من شعر، أهازيج، حكايات، وأمثال، أي أنه ميراث ثقافي ذاكرة حية نابضة بالحنين إلى الماضي، تتناقله الأجيال مشافهة - في أغلب الأحيان - وعن طريق الممارسة الحياتية والتنشئة الاجتماعية.. إن الأهازيج الشعبية، في دولة الإمارت، أخص هنا التي تغنت بها الأمهات لأطفالهن في مختلف المراحل العمرية بدءاً من تنويم الطفل، إطعامه، ملاعبته، الحبو، مراحل طفولته وصباه، من هذه الأهازيج أهزوجة سمعناها كثيرا، حتى تعد أكثر شهرة من غيرها، تعرفها معظم الأمهات على امتداد أرضنا الحبيبة. سأورد الأهازيج متبوعة بشرح المفردات قبل التعليق على النصوص. الأهزوجة الشهيرة هي:

أَمَّي أَمَّي يا أمَّايه/ رَاعي البَحر ما باه / يَصبح يَكدّ العومة /تَقطر على عَلْباه/أبغي وليد عمي/ بخنجرِه و داه

يكدّ: أي يعمل في صيد العومة، علباه: قفاه، أي الرقبة من الخلف. وفي نص ثان:

أَمَّي أَمَّي يا أمايه/ رَاعي البحر ما أباه/ أبغي صَبي غاوي/ يَعكم لي ويقود/ لِمرت الغَزايه/ ما قال أنا مَهُود

يعكم: يجهز مكان للجلوس على ظهر المطية، الغزاية: الغزاة، مهود: مريض. هذه الأهازيج فيها لمحات من معيشة أهل البحر، الذين يعتمدون عليه في كسب أرزاقهم. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي هدفت إليه هذه الأهازيج؟ يبدو في جوهرها تركيز المرأة التي عاشت في البر على تماسك القبيلة ولحمتها، فابنة العم تريد أن تبقى في قبيلتها، في مكان ذكرياتها مع أهلها، حيث يعرفونها وتعرفهم، تحظى بمحبتهم، وتقديرهم؛ لهذا تختار ابن عمها زوجاً لها، بدلاً من ذهابها لقبيلة أخرى، لما قد تعانيه من غربة وبعد عن الأهل، ولدخولها في قبيلة جديدة، ستحرص على نيل محبتهم ورضاهم، وإثبات نفسها بين نساء القبيلة الأخرى. الفتاة تعلل هنا سبب اختيارها ابن عمها؛ لدوره في القبيلة، بوصفه بأنه غاوي أي جميل الشكل في اللهجة الإماراتية، لكن هذا الجمال يصل إلى حسن صنيعه وأفعاله، خاصة في الشدائد، فحين يهجم الأعداء لا يدّعي المرض جبناً وخوفاً من الموت، بل يتقدم ويدافع عن قبيلته. أم أن الرفض بسبب الخوف من البحر وأهواله؛ لأن الغواص يواجه صعوبات كثيرة، وقد تفقد المرأة معيلها سواء أكان زوجاً، أم أباً، أم ابناً، ولا شيء أسوأ من أن تعود سفن الغوص دونه. لذلك اشتهرت مقولة: اشلك بالبحر وأهواله ورزق الله على السيف. شهرة الأهزوجة السابقة، طمست أية أهازيج أخرى تأتي في سياقها، لكنني وجدت أهزوجة فريدة، لابنة البحر تعيد قراءة الأهزوجة السابقة، ترفض الحياة مع الجمّال حسب قولها، الذي تصف فيها المعيشة في السيوح، لأنها تتوق إلى رائحة البحر، تتطلع للماشوة وهي القارب الصغير المصنوع من السعف. وهذه هي الأهزوجة التي تتغنى بالبحر في مقابل البر،والفتاة التي لا تريد الزوج من أهل البر:

مَانَي الجَمَّال ولومعه بُوشه/في السَّيح سَكنها تحت يُنوشي/كَلبيته مَسْدوحه تَنبح مرة وتَهُوشي/على بيتك سَنيّح ويَحوط بيتك هُوشي/ مَرادنا المَاشوّه طويلة اليُوشي/تسابق السّنيار بدامنٍ ويوشي

ينوشي: يحاول الوصول إليه ويناوشه، هوشي: الأغنام والماشية. سنيّح: ستار لحماية أهل البيت من نظرات الغرباء، الماشوه: من أنواع القوارب الصغيرة المصنوعة من السعف، دامن طرف الشراع الأسفل من السفينة، يوشي: حبل في السفينة. مما سبق نجد أن الأهازيج قامت بدور على مستوى القبيلة، حيث حرصت على زيادة اللحمة بين أبنائها وبناتها، بالبقاء فيها، رغبة في زيادة عددهم، جمع صفوفهم، توحيد كلمتهم. وهذه القبائل كلها تجمعت بعد الاتحاد تحت راية الأب المؤسس الذي بنى صرح الاتحاد وأعلاه المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه، مع حكام الإمارات، الآباء المؤسسين؛ لتخرج إلى النور الإمارات العربية المتحدة، المعتزة بتراثها وبتاريخها، المنفتحة على العالم محبة وتسامحاً، بغية التعاون على الخير والسلام، الازدهار للدول أمنا و انسجاماً ■

نادي تراث الإمارات

إعلان طباعة كتب

وَضَع نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث خُطَّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، ويَدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها في «المركز»، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ «المركز» لمؤلِّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنهْل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

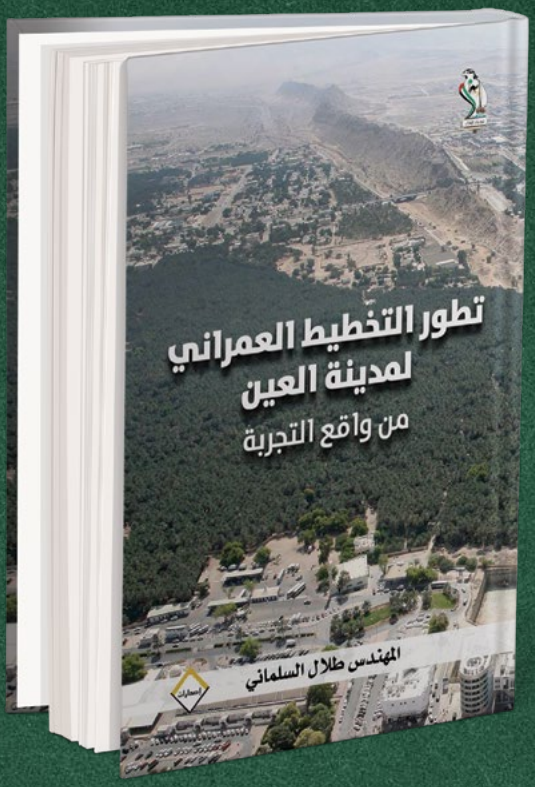

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين

«من واقع التجربة»

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين «من واقع التجربة» كتاب يتناول قصة نجاح مدينة العين في التحول من تجمعات سكانية صغيرة حول الواحات إلى مدينة عصرية خضراء، ويرى المؤلف في كتابه أن الحفاظ على هذا النجاح واستدامته هو من أولويات التخطيط الحضري السليم الذي يستوجب المراجعة الدورية المنتظمة لخطط التطوير العمراني للتحقق من مرونتها واستجابتها لمتطلبات المرحلة القادمة دون الإخلال بالثوابت والأهداف التي حددتها خطة إطار الهيكل العمراني لمدينة العين لعام 2030. كما يتحدث المؤلف عن واقع معايشته لمستجدات التطور العمراني لمدينة العين لأكثر من ثلاثة عقود مشيراً إلى مجموعة من المشاهدات لبعض الظواهر في البيئة العمرانية في المدينة، وهو يرى أن أي تخطيط للمدينة يجب أن يقوم على أساس علمي منهجي يستند إلى دراسات وإحصائيات وتحليلات لمختلف القطاعات ذات الصلة بحياة البشر سواء في الإسكان...

المهندس طلال السلماني